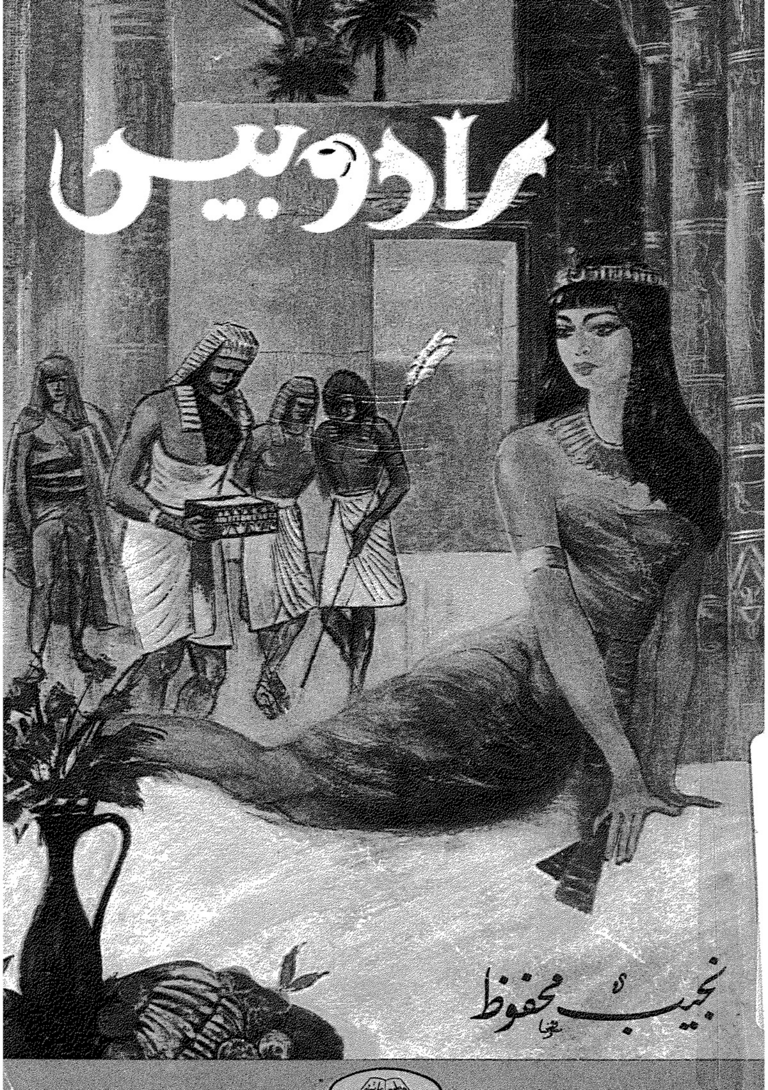

رادوبيس
نجيب محفوظ

راوُبليس



رادوبيس

تأليف

نجيب محفوظ

الناشر : مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقى "الفجالة"

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدقى

عيد النيـــــل

لاحت فى الأفق الشرقى تباشير ذلك اليوم من شهر بشنس ، المنطوى فى أثناء الزمان منذ أربعة آلاف سنة . وكان الكاهن الأكبر لمعبد الرب سوتيس يتطلع الى صفحة السماء بعينين ذابلتين . أضناهما التعب طوال الليل . وانه لفى تطلعه اذ عثر بصره بالشعرى اليمانية ، يتألق نورها فى كبد السماء ، فتهلل وجهه بالبشر ، وخفق قلبه بالفرح ، وسجد على أرض المعبد الطاهرة شكرا وزلفى ، وصاح بأعلى صوته أن قد بدت صورة الرب سوتيس فى أفق السماء ، تحمل الى الوادى بشرى فيضان النيل المعبود ، وتسير بين يدى رحمته . وأيقظ صوته الجميل النيام ، فهبوا من نومهم فرحين ، وقلبوا وجوههم فى السماء ، حتى قرت أعينهم على النجم المعبود ، فرددوا ترتيلة الكاهن ، وأفعمت قلوبهم غبطة وامتنانا ، ثم تركوا ديارهم مهطعين صوب شاطىء النيل ، يشهدون أول موجة حاملة للخير والبركة . وردد جو مصر الهادىء صوت كاهن الرب سوتيس ، وأذاع البشرى السعيدة فى الآفاق ، فعلم الناس أن قد آن أوان الهجرة الى الجنوب ، للاحتفال بعيد النيل المقدس . فحزموا أمتعتهم ، ونشطوا خفافا وثقالا من طيبة ومنف وهرمونت وسوت وخمونو ، يولون وجوههم شطر آبو العاصمة ، فنهبت العجلات الوادى ، ومخرت السفن عباب الماء ..

كانت آبو عاصمة مصر ، يقوم بنيانها الشامخ على دعائم من الصوان ، تؤلف بينها الكثبان الرملية ، وقد غشاها النيل بطبقات من طميه الساحر ، بثت فيها الخصب والخير العميم ، وأنبتت أرضها السنط والتوت والنخيل والدوم ، وكست سطحها البقول

والخضروات والبرسيم ، ونشرت فيه الكروم والمراعى والجنان تجرى من تحتها الأنهار ، وترعاها القطعان . ويطير فى سمائها الحمام والطير ، ويتضوع نسيمها بشذا العطر والأزهار ، وتتجاوب فى جوها أغاريد البلابل والأطيار .

فما هى الا أيام معدودات ، حتى ضاقت آبو وجزيرتاها : بيجة وبيلاق ، بالنازحين ، فامتلأت البيوت بالنازلين ، وازدحمت الميادين بالخيام ، وغصت الطرق بالغادين والرائحين ، وانتشرت حلقات اللاعبين والمغنين والراقصين ، وزخرت الأسواق بالعارضين والبائعين ، وازدانت واجهات البيوت بالأعلام وأغصان الزيتون ، وبهرت الأنظار جماعات من حرس جزيرة بيلاق بشيابها المزركشة وسيوفها الطويلة ، وهرعت جموع القانتين المؤمنين الى معبدى سوتيس والنيل ، يوفون بالنذر ، ويقدمون القرابين . واختلط غناء المنشدين بصياح السكارى الثملين ... وشاع فى جو آبو الرزين فرح راقص ، وطرب حار بهيج ...

وجاء يوم العيد الموعود ، وقصدت هاتيك الخلائق جميعا الى هدف واحد ، هو الطريق الطويل الممتد ما بين القصر الفرعونى والهضبة القائم عليها معبد النيل ، فسخن الهواء بأنفاسهم الحارة ، وناءت الأرض بحملهم ، ويئس قوم لا عداد لهم من الأرض ، فهبطوا الى السفن ، وأطلقوا الشرع ، وطافوا بهضبة المعبد ينشدون أغانى النيل على أنغام المزمار والقيثار ، ويرقصون على توقيع الدفوف ...

ووقف الجنود صفين على جانبى الطريق العظيم شاهرى الرماح ، وقد نصبت على مسافات متباعدة تماثيل بالحجم الطبيعى لملوك الأسرة السادسة ، آباء فرعون وأجداده ، فرأى الأقربون تماثيل الفراعين : اسر كرى ، وتيتى الأول ، وبيبى الأول ، ومحتمساوف الأول ، وبيبى الثانى ...

وكان الجو يضج بأصوات القوم المختلطة ، فيضيع تمييزها

كما تضيع الأمواج فى المحيط المصطخب ، ولا يبقى منها الا دوى هائل شامل . ولكن كانت تعلو أحيانا أصوات جهيرة ، تخترق الضوضاء ، وتبلغ الآذان ، يهتف بعضها قائلا : « مجدوا الرب سوتيس الذى بشرنا بالخير » . ويصيح صوت آخر : « مجدوا النيل الرب المقدس الذى يجلب الى أرضنا الحياة والخصب » . وبين هذا وذاك ، ترتفع أصوات منادية على خمر مربوط ، وانبذة آبو ، داعية الى السرور والنسيان ...

وكان جماعة من المشاهدين يتجاورون ويخلصون نجيا ، تبدو على وجوههم آى النبل والنعيم ، فقال أحدهم وهو يرفع حاجبيه متأملا متعجبا :

ـ كم من فرعون اطلع على هذه الجموع الحاشدة ، وشاهد هذا اليوم العظيم !... ثم ذهبوا جميعا كأنهم لم يكونوا ملء الصدور ، ملء الأبصار والأفئدة !

فقال آخر : نعم ذهبوا ليحكموا عالما أجل من هذا العالم ، كما سنذهب جميعا ... انظر الى هذا المكان الذى أشغل .. كم من البشر سوف يشغله فى الأجيال المقبلة ، ويجدد الآمال والأفراح التى تخفق فى صدورنا الآن .. ترى هل يذكروننا كما نذكرهم ؟

ـ اننا أكثر من أن يذكرنا مذكر ... الا ليت الموت لم يكن ..

ـ وهل كان من يسع الوادى تلك الأجيال التى ذهبت ؟.. ان الموت طبيعى كالحياة ... وما قيمة الخلود ما دمنا نشبع بعد الجوع ، ونشيخ بعد الشباب ، ونسأم بعد المسرة ؟..

ـ فكيف يعيشون فى عالم أوزوريس ؟..

ـ انتظر ستعلم ذلك بعد حين ...

وقال آخر باهتمام : هذه أول مرة يسعدنى الرب برؤية فرعون .

فقال له صاحبه : أما أنا فقد رأيته يوم التتويج العظيم منذ أشهر فى نفس المكان .

ـ انظر الى تماثيل أجداده الأماجد .
ـ سترى أنه قريب الشبه بجده مختمساوف الأول ..
ـ ما أجمل هذا .
ـ أجل .. أجل .. ان فرعون شاب جميل ، لا نظير له فى طوله الفارع ، وحسنه الجاهر ..
وتساءل أحد المتحدثين قائلا : ترى ماذا يخلف حكمه ؟.. أمسلات ومعابد ، أم ذكريات غزو فى الشمال والجنوب ؟
ـ ان صدق حدسى فهى الثانية ..
ـ ولم ؟
ـ لأنه شاب عظيم البأس .
فهز الآخر رأسه بحذر وقال :
ـ يقال ان شبابه من نوع جامح ، وان جلالته ذو أهواء عنيفة . يغرم بالحب ، ويهوى الاسراف والبذخ ، ويندفع فى سبياله كالريح العاصفة ..
فضحك المستمع ضحكة خافتة ، وهمس قائلا :
ـ وهل فى ذاك ما يدعو الى العجب ؟. ما أكثر المصريين الذين يغرمون بالحب ويهوون الاسراف والبذخ .. فما بالك بفرعون .
ـ صه .. صه .. ، أنت لا تدرى من الأمر شيئا ، ألم تعلم بأنه اصطدم برجال الكهنوت منذ اليوم الأول لتوليته العرش ؟. انه يريد المال لينفقه فى تشييد القصور ، وغرس البساتين . والكهنة يطالبون بنصيب الآلهة والمعابد كاملا . لقد منحهم آباء الملك نفوذا وثراء ، والملك الشاب ينظر الى هذا بعين الطمع .
ـ حقا انه لأمر محزن أن يبدأ الملك حكمه بالاصطدام .
ـ اجل .. ولا تنس أن خنوم حتب ، رئيس الوزراء والكاهن الأكبر ، رجل حديدى الارادة . شديد المراس . وهناك أيضا كاهن منف ، تلك المدينة المجيدة التى لحقها الأفول على عهد هذه الأسرة الجليلة .

فارتاع الرجل لهذه الأخبار التى تصك اذنيه لأول مرة ، وقال :

ــ اذاً فلندع الأرباب جميعا أن تلهم الرجال الحكمة والأناة والرأى السـديد .

فقال الآخرون باخلاص صادر من الأعماق : آمين .. آمين .

ولاحت من أحد الواقفين التفاتة الى النيل ، فلكز صاحبه بمرفقه قائلا :

ــ انظر أيها الصديق الى النهر .. لمن يا ترى هذه السفينة الجميلة الآتية من جزيرة بيجة . كأنها الشـمس صاعدة من الأفق الشرقى ؟..

فعطف صاحبه رأسه نحو النهر ، فرأى سفينة عجيبة ، لا بالكبيرة ولا بالصغيرة ، خضراء اللون كأنها جزيرة معشوشبة تطفو على سطح الماء ، تبدو مقصورتها على البعد متعالية ، وان قصرت العين عن رؤية ما بداخلها ، ولاح فى أعلى صاريها شراع متموج عظيم ، وانتظمت جانبيها حركة مجاديف بديعة تنبعث من مئات الأيدى .. فاستولت الحيرة على الرجل ، وقال :

ــ عسى أن تكون لموسر من أهل بيجة ..

وأصغى الى حوارهما رجل قريب ، فحدجهما بنظرة انكار ، وقال لهما : أراهن أيها السيدان أنكما ضيفان .

فضحك الرجلان معا ، وقال ثانيهما : صدقت يا سيدى المحترم ، فنحن من طيبة ، واثنان من الآلاف التى ناداها العيد المجيد فلبت هارعة الى العاصمة من جميع البلدان .. هل تكون هذه السفينة الجميلة لكبير من رجالكم البارزين ؟.

فابتسم الرجل ابتسامة غامضة ، وقال وهو يشير لهما بأصبعه محذرا :

ــ طبتما نفساً أيها السيدان الكريمان ، ليست هذه السفينة لرجل من رجالنا ، ولكنها لامرأة .. اجل هى سفينة غانية حسناء

يعرفها حق المعرفة جميع أهل آبو ، وجزيرتيها بيجة وبيلاق ..
— ومن عسى أن تكون هذه الحسناء ؟..
— رادوبيس .. رادوبيس الفاتنة ، ملكة النفوس والأهواء جميعا .

وأشار الرجل بيده نحو جزيرة بيجة ، واستدرك :
— وهى تقيم هناك فى قصرها الأبيض الساحر .. هدف العشاق والمعجبين ، حيث يستبقون الى نيل عطفها ، واستدرار رحمتها .. وعسى أن يسعفكم الحظ برؤيتها ، صانت الأرباب قلبيكما عن التلف ..

واتجهت أنظار الرجلين وسواهما من الواقفين الى السفينة مرة أخرى ، وقد بدا على الوجوه الاهتمام الشديد . وكانت السفينة تدنو من الشاطىء ، رويدا رويدا ، والزوارق توسع لها طريقها على عجل ، وكلما عبرت ذراعا اختفت شيئا فشيئا وراء الهضبة المقام عليها معبد النيل ، ومضى يغيب عن الأبصار مقدمها ، ثم مقصورتها ، فلما أن اطمأنت الى المرفأ لم يكن يرى منها سوى أعلى صاريها وقمة شراعها المتموج ، كأنه علم الحب يظل القلوب والنفوس ..

ومضت فترة وجيزة ، ثم رئى أربعة من النوبيين قادمين من الشاطىء يوسعون فى البحر المتلاطم طريقا ، يسير فى اثرهم أربعة آخرون يحملون على الأكتاف هودجا جميلا فاخرا ، لا يحوزه الا الأمراء والنبلاء ، جلست فيه غادة حسناء ، تستند فى طراءة الى وسادة ، وتتكىء على نمرقة بساعد بض ، وتمسك يمناها بمروحة من ريش النعام ، تلوح فى عينيها الجميلتين نظرة ناعسة حالمة ، تصوبها الى الأفق البعيد فى كبرياء سامية ، تقتحم الخلق أجمعين .

وكان الركب الصغير يسير على مهل ، ترمقه العيون من كل صوب ، حتى بلغ الصف الأول من المشاهدين . وهنالك مالت المرأة الى الأمام قليلا بجيد كالغزال ، ونثرت من فمها الوردى

كلمات تاقت نفوس الى سماعها : فتوقف العبيد عن السير ، ولزموا أماكنهم كأنهم تماثيل من البرنز ، وارتدت المرأة الى جلستها الأولى ، واستغرقت فيما كانت فيه من الأحلام ، ولبثت تنتظر الموكب الفرعونى الذى لاشك جاءت لمشاهدته .

وكان ما يرى منها نصفها الأعلى . فاستطاع المجدودون أن يشاهدوا شعرها الأسود الحالك السواد ، ينتظم على رأسها الصغير فى أسلاك من الحرير اللامع ، ويهبط على كتفيها فى هالة من الليل كأنه تاج الهى ، ينبلج فى وسطه وجه مشرق مستدير ، عانقت فيه أشعة الشمس خدين كالورد اليانع ، وفماً رقيقا مفترا كأنه زهرة من الياسمين فى خاتم من القرنفل ، وعينين دعجاوين صافيتين ناعستين ، تلوح فيهما نظرة يعرفها الحب معرفة المخلوق لخالقه ، فما رئى وجه قبل هذا اختاره الجمال سكنا ومستقرا .

وقد فتن الناس منظرها كافة ، وحرك قلوب الشيوخ الفانية ، فصوبت اليها من جميع الجهات نظرات نارية ، لو عثرت فى طريقها بصوان لأذابته . ورمقتها أعين النساء شزرا ومقتا ، وسرى الهمس بين المحيطين بها ، وانتقل الحوار من فم الى فم .

ـ يا لها من امرأة فاتنة ..

ـ رادوبيس .. يسمونها ربة الجزيرة !.

ـ هذا جمال قهار ، لا يمكن أن يعصاه قلب .

ـ هو اليأس لمن يرى .

ـ صدقت ، فما وقعت عليها عيناى حتى قامت فى نفسى ثورة جامحة ، ونؤت بأعباء ظلم فادح ، وأحسست بتمرد شيطانى ، وصدت نفسى عما بين يدى ، وغلبنى على أمرى الخذلان والخزى الأبدى ..

ـ هذا أمر محزن .. لكأنى بها صورة للسعادة حقيقة بالعبادة .

ـ هى شر وبيل !.

ـ نحن اضعف من أن نحتمل مثل هذا الحسن القاهر .
ـ ألا رحمة للعاشقين ..
ـ ألا تعلم أن عشاقها هم صفوة رجال المملكة ؟.
ـ حقا ؟..
ـ ان حبها فرض على علية القوم ، كأنه واجب وطنى .
ـ لقد شيد المعمار النابغة هنى قصرها الأبيض .
ـ وأثثه بآيات منف وطيبة آنى حاكم جزيرة بيجة .
ـ مرحى .. مرحى ..
ـ وصنع تماثيله ، ونحت جدرانه ، المثال النابغة هنفر .
ـ نعم ، وأهدى تحفه الثمينة القائد طاهو . رئيس الحرس الفرعونى .
ـ اذا كان جميع هؤلاء يتنافسون فى حبها فمن السعيد الذى تستخلصه لنفسها ؟.
ـ سل عن السعيد فى هذه المدينة الشقية ..
ـ لا أظن أن هذه المرأة تعشق أبدا .
ـ من أدراك ؟.. عسى أن تعشق عبدا أو حيوانا .
ـ كلا .. ان جمالها هو القوة الجبارة .. وما حاجة القوة الى الحب ؟.
ـ انظر الى نظرة عينيها الرفيعة القاسية .. انها لم تذق الحب بعد .
وكانت امرأة تصغى الى هذا الحديث ، فضاق صدرها ، وقالت بجفاء :
ـ ما هى الا راقصة .. تربت فى بؤر الفساد والمجون ، ووهبت نفسها منذ الطفولة للخلاعة والغواية ، وأجادت فن المساحيق ، فتبدت فى هذا المظهر الخلاب الكاذب .
فكبر هذا الكلام على أحد الرجال المفتونين فقال :
ـ معاذ الرب يا سيدتى ، الم تعلمى بعد بأن جمالها الرائع

ليس كل ما وهبتها الآلهة من ثراء ؟.. وأن توت لم تبخل عليها بنور الحكمة والعرفان ؟.

ـ بخ .. بخ .. من أين لها بالحكمة والعرفان ، وهى تنفق عمرها فى اغواء الرجال ؟.

ـ قصرها يستقبل كل مساء جماعة ممتازة من الساسة والحكماء والفنانين ، فلا عجب أن تكون كما يشاع عنها من أعمق الناس فهما للحكمة ، وأدراهم بالسياسة وأذوقهم للفن .

وسأل سائل : كم عمرها ؟..

ـ يقولون انها بنت ثلاثين .

ـ لا يمكن أن تجاوز الخامسة والعشرين .

ـ ليكن عمرها ما تشاء ، فهذا الحسن يانع قاهر ، يقسم أن لن يلحقه الذبول أبدا ..

وعاد السائل يسأل باهتمام : ما منشؤها ، وما أصلها ؟.

ـ علم هذا عند الأرباب .. وكأنى بها وجدت منذ الأزل فى قصرها الأبيض بجزيرة بيجة !.

***

وشقت الصفوف المتراصة بغتة امرأة غريبة . كانت منحنية الظهر كالقوس ، تتوكأ على عصا غليظة ، منفوشة الشعر بيضاءه ، طويلة الأنياب صفراءها ، مقوسة الأنف ، حادة البصر ، يشع من عينيها نور مخيف يرسل من تحت حاجبين كثيفين أشيبين . وكانت ترتدى جلبابا واسعا طويلا ، يضيق عند وسطها بمنطقه من الكتان .. وصاح الذين رأوها :

ـ ضام .. الساحرة ضام ..

فلم تبالهم ، وسارت بقدميها الهزيلتين . كانت تدعى الاطلاع على الغيب ، وكشف الستار عن المستقبل ، وكانت تسخر قوتها

الخارقة لقاء قطعة من الفضة ، وكان المحيطون بها بين خائف منها ومتهكم بها . والتقت الساحرة فى طريقها بشاب حدث ، فعرضت عليه أن تقرأ له صفحة الغيب ، ولم يمانع الشاب ، وكان فى الحقيقة ثملا يترنح فى سيره ، لا تكاد تحمله ساقاه ، فدفع لها بقطعة من الفضة ، وهو يرنو اليها بعينين نصف نائمتين ، وسألته بصوتها الأجش ، كم عمرك يا غلام ؟.

فأجابها ، وهو لا يعى ما يقول :

ـ اثنتا عشرة كأسا . .

وعلا ضحك الساخرين ، فاهتاجت المرأة غضبا ، ورمته بالقطعة التى نفحها بها ، واستأنفت مسيرها الذى لا ينتهى . واعترض سبيلها شاب ساخر ، وسألها بقحة :

ـ ماذا ينتظرنى من الحادثات يا امرأة ؟.

فنظرت اليه مليا ، وهى مغيظة محنقة ، ثم قالت له :

ـ أبشر . . ستخونك زوجك للمرة الثالثة .

وضحك الناس وصفقوا لها ، وانزوى الشاب خجلا ، وقد رد السهم الى صدره . وسارت الساحرة حتى بلغت هودج الغانية ، وطمعت فى سخائها فتوقفت بازائه . وصاحت تحدث صاحبته وهى تبتسم ابتسامة كريهة :

ـ أيتها السيدة المحروسة بالعناية . . هل اقرأ لك الطالع ؟.

ولم يبد على الغانية أنها سمعت صوت الساحرة ، فصرخت العجوز :

ـ مولاتى !

وانتبهت اليها رادوبيس فيما يشبه الذعر ، ثم عطفت عنها رأسها سريعا وقد لمسها الغضب ، وقالت لها العجوز :

ـ صدقينى ما من انسان فى هذا الجمع الحاشد يحتاج الى اليوم حاجتك !.

فتقدم منها أحد العبيد ، وحال بينها وبين الهودج . وكاد

الحادث على تفاهته يثير اهتمام القريبين ، ولكن سمع صوت بوق شديد يخترق الفضاء ، ووضع على آثره الجند المصطفون على جانبى الطريق الأبواق فى أفواههم ، ونفخوا فيها نفخا طويلا متصلا ، فعلم الناس جميعا أن الركب الفرعونى بدأ تحركه ، وأنه عما قليل يغادر فرعون القصر فى طريقه الى معبد النيل ، فنسى الجميع ما كانوا فيه وشخصوا الى الطريق بأعناق مشرئبة ، وحواس مرهفة .

ومضت دقائق طويلة ثم بدت طلائع الجيش تسير صفوفا متراصة على أنغام الموسيقى الحربية تتقدمها حامية بلاق بعددها المتنوعة ، تسير وراء علمها المتوج بصورة الباز ، فكانت الجنود تقابل فى كل مكان بالهتاف والتصفيق ..

وقفتها بعد حين قليل فرقة المشاة حاملى الرماح والتروس ، تتأثر موسيقاها ، وعلمها المزدان بصورة الرب حورس ، وقد استقامت الرماح فى صورة هندسية دقيقة ، فرسمت فى الهواء خطوطا متوازية طولا وعرضا .

وجاءت فرقة الرماة الكبرى حاملى القسى والسهام ، واستغرق مسيرها فترة طويلة من الزمن ، يتقدمها علمها الموسوم بصولجان العرش .

ثم سمع من بعيد دوى وصلصلة وصهيل خيل ، ولاحت للأنظار فرقة العجلات تنطلق عشرة عشرة فى صفوف متوازية دقيقة كأنما رسمت بالقلم ، يجر العجلة جوادان مطهمان ، ويقوم على ظهرها فارسان ، سائق مزود بالسيف والمزراق ، ورام مدرع يمسك قوسه بيد ويحمل جعبته بيد ، فذكر المشاهدون لمرآها غزو النوبة وطور سيناء ، وخالوا أنهم يرونها تنتشر فى السهول والوديان كالنسور المنقضة ، والعدو يتشتت أمامها ، وقد أذهله الرعب ، وأحاط به الهلاك ، فاشتعل الحماس فى عروقهم نارا ، وشق هتافهم السماوات ..

وبدا للناظرين الموكب الفرعونى المهيب ، تتقـدمه العجلة الفرعونية ، وتتبعها مباشرة أهلة من العجلات خماسى خماسى ، تحمل الأمراء والوزاراء وكبار رجال الكهنوت والقضاة الثلاثين وقواد الجيش وحكام الأقاليم ، واختتم الموكب بذيل من الحرس الفرعونى على رأسه القائد طاهو ..

ووقف فرعون فى عجلته منتصب القامة ، مهيب الطلعة ,كأنه تمثال من الجرانيت لا يميل يمنة ولا يسرة ، ويصوب بصره الى الأفق البعيد غير ملتفت الى الخلق جميعا ، ولا الى هتافهم الصاعد من أعماق القلوب .

وكان يضع على رأسه تاج مصر المزدوج ، ويقبض بيد على السوط الملكى ، وبالأخرى على العصا المعقوفة ، وقـد ارتدى فوق لباسه الملكى كساء من جلد النمر احتفالا بالعيد الدينى .

وأفعمت القلوب حماسة وسعادة ، فتعالى الهتاف . فكاد لشدته أن يفزع الطير المحلق فى السماء . وأثار الحماس رادوبيس نفسها فدبت بها حياة فجائيـة ، وأضاء وجهها بنور بهيج ، وصفقت يداها الرخصتان ..

وأفلت من بين الأصـوات الهاتفة صوت يصيح على عجل : « ليحيى صاحب القداسة خنوم حتب » ، فردد هتافه عشرات الأصوات ، وأحدث هتافه انزعاجا وأهاج ضجة شديدة ، وتلفت الناس يبحثون عن الجسور الذى هتف باسم رئيس الوزراء على مسمع من فرعون الشاب ، والجماعة التى ناصرت هذا التحدى العجيب ! ..

ولم يترك الهتاف أثرا ظاهرا ، ولم يبد على أحد من حاشية الملك أدنى تأثر ، وتبع الموكب سيره حتى بلغ هضبة المعبـد ، فتوقفت العجلات جميعا ، وتقدم الى عجلة فرعون أميران يحملان وسادة من ريش النعام مكللة بغطاء من نسيج ذهبى ، فترجل الملك عليها . ونفخ فى الصور ، فأدى الجند التحية العسكرية ،

وصدحت موسيقى الحرس بنشيد تحية النيل المعبود ، وصعد فرعون درجات الهضبة فى تؤدة وجلال ، يتبعه وجوه مملكته من الأمراء والوزراء والحكام ، ولدى باب المعبد العظيم وجد الكهنة فى استقباله سجدا . ولما أعلن كبير الحجاب سنفخاتب وصول الملك ، وقف رئيس كهنة المعبد وأحنى ظهره ، وأخفى عينيه بيديه ، وقال فى صوت خافت :

ـ يتشرف خادم الرب المعبود النيل ، بازجاء تحية العبودية والاخلاص الى مولاى سيد القطرين ، ابن رع ورب المشرقين .

فأعطاه فرعون العصا المعقوفة ، فقبلها الكاهن فى اجلال عميق ، وقام الكهنة واصطفوا صفين موسعين لفرعون ، فسار تتبعه حاشيته الى ساحة المذبح المحاطة بالأعمـدة الشاهقة من كل جانب ، وطافوا بالمذبح ، وكان الكهنة يحرقون البخور ، فينتشر أريجه فى جو المعبد ، وتتنفسه الرءوس المنكسة اجلالا وقنوتا . وأحضر بعض الحجاب ثورا ذبيحا ، ووضعوه على المذبح قربانا وزلفى . ثم تلا فرعون هذه الكلمات التقليدية :

مثلت فى رحابك أيها الاله المقدس بعد أن طهرت
نفسى . وقدمت القربان زلفى اليك ، فامنن بالخير
على أرض هذا الوادى الطيب . وأهله الآمنين .

ورددت الكهنة الدعاء فى صوت عال مؤثر ، يفيض بالايمان والتقوى ، رافعين رءوسهم الى السماء ، باسطين أيديهم فى الهواء . وردد الحاضرون جميعا الدعاء ، وسرى الصوت الى خارج المعبد ، فسارع الناس فى ترديده ، وما هى الا هنيهة حتى لم يبق لسان لم يلهج بدعاء النيـل المقدس . ثم سار الملك وفى معيته كاهن المعبد ، ويتبعهما رجال المملكة الى بهو الأعمدة ذى الصحون الثلاثة المتوازية ، ووقفوا صفين بينهما الملك وخادم الرب ، ثم رتلوا نشيد النيل المعبود بأصوات متهدجة ، تختلج بخفقات القلوب ، فيرن صداها فى جو المكان القاتم المهيب .

وصعد الكاهن الدرجات المؤدية الى البهو الخالد ، واقترب من باب قدس الأقدس ، وأبرز المفتاح المقدس . وفتح الباب العظيم وانتحى جانبا ، وركع ساجدا يصلى . وتبعه الملك ودخل الحجرة المقدسة حيث يرقد تمثال النيل فى السفينة الالهية ، وأغلق الباب . وكان المكان واسعا ، شاهق السقف ، شديد الظلمة ، قوى الأثر ، وعلى مقربة من الستار المسدل على تمثال الآلهة أقيدت الشموع على مناضد من الذهب الوهاج . ونفذت هيبة المكان الى قلب الملك الكبير ، فوهنت حواسه ، وتقدم فى اجلال الى الستار المقدس وأزاحه بيده ، وأحنى ظهره الذى لاينحنى أبدا ، وسجد على ركبته اليمنى ولثم قدم التمثال . وكان مايزال مهيبا ، ولكن غابت عن وجهه آى مجد الدنيا وكبريائها ، واكتست صفحته بلون باهت من الخشوع والتقوى .. وصلى فرعون صلاة طويلة ، واستغرق فى العبادة ناسيا مجده التالد وعظمته الدنيوية .

ولما بلغ النهاية لثم القدم المقدسة مرة أخرى ، وقام واقفا وأسدل الستار الكريم ، وانسحب الى الباب ووجهه الى الرب ، حتى تنفس هواء البهو الخارجى ثم أغلق الباب .

وحيا القوم فرعون بالدعاء ، وساروا وراءه الى بهو المذبح . وتبعوه الى خارج المعبد ، وعرجوا جميعا الى حافة الهضبة المطلة على النيل . ورآهم الأهلون المتجمعون فوق أسطح السفن ، فتعالت أصواتهم بالهتاف ، ولوحوا بالأعلام والغصون .

ودعى رئيس الكهنة الى القاء الخطبة التقليدية ، فنشر بين يديه ورقة طويلة من اوراق البردى ، وتلا بصوت قوى النبرات :

السلام عليك أيها النيل ، يا من يعم فيضه الوادى مبشرا بالحياة والسعادة .. انك لتسكن الغياهب أشهرا ، فاذا اصخت الى توسلات عبادك ، ولان قلبك الكبير رحمة بهم ، خرجت من الظلمات الى النور ، وانسبت فى بطن الوادى زاخرا ، فتبعث فى الأرض الحياة ، وسرعان ما تهتز النباتات طربا ، وتفيض الصحراء

تحت بساط سندسى ، وتزدهر البساتين . وتغنى المغارس ، وتصدح الطير ، وتهتف القلوب بنشوة الفرح ، فيكسى العارى ، ويطعم الجائع ، ويروى الصديان ، ويتزوج الأعزب ، وتتلفع أرض مصر بالسعادة والمجد .. تعاليت والمجد لك .. تعاليت والمجد لك ..

ورتل كهنة المعبد أنشودة النيل على نغم القيثارة والمزمار والناى ، وعلى توقيع الدفوف فى ألحان عذبة وأنغام شجية .

ولما أن ضاعت الأنغام فى تضاعيف الفضاء ، تقدم الأمير ناى من فرعون وأسلم اليه قرطاسا مختوما من البردى ، يشتمل على دعاء النيل المعبود ، فأخذه الملك ورفعه الى جبينه ، ثم تركه يهوى الى النيل فحملته أمواجه المتدافعة فى صخب صوب الشمال ..

وهبط فرعون أدراج الهضبة ، وركب عجلته ، ورجع الموكب كما أتى تحف به العظمة ويحوطه المجد ، وتهتف له قلوب الملايين من الرعايا المخلصين ، وقد أهاجهم الحماس ، وأسكرتهم نشوة الطرب ..

الصنـــدل

عاد الموكب الملكى الى السراى الفرعونية ، وظل الملك يحافظ على جلاله وهدوئه ، الى أن خلا الى نفسـه ، فتبدى الغضب على وجهه الجميل بصورة وحشية ، وجبت لها قلوب الجوارى اللاتى يخلعن ثيابه ، فانتفخت أوداجه وتصلبت عضلات جسمه ، وكان سريع الانفعال شـــديد الغضب ، لا تطمئن نفســـه حتى تنزل العقاب الصارم بمن أثارها . وكان يدوى فى أذنيه الهتاف الأخرق ، فيظنه انذارا جريئا موجهـــا الى رغباته ، فيشتد به الغضب وينذر بالويل والثبور ..

وكان عليه أن ينتظر ساعة كاملة ، قبل أن يستقبل رجال مملكته الرسميين ، الذين جاءوا من أقصى البلاد للاشتراك فى عيد النيل ، ولكنه لم يستطع صبرا ، فهرع كالريح الهوج الى جناح الملكة ، واقتحم بابها بعنف . وكانت الملكة نيتوقريس جالسة بين وصيفاتها ، تلوح فى عينيها الصافيتين آى السلام والطمأنينة ، فلما رأى الوصيفات الملك ، وشاهدن الغضب يصرخ فى وجهه ، وقفن مرتبكات مضـــطربات ، وانحنين له وللملكة ، وانسحبن مسرعات لا يلوين على شيء .. ولبثت الملكة جالسة هنيهة ، ترمقه بعينين هادئتين ، ثم قامت فى جلال ، ودنت منه ، ثم شبت على أطراف قدميها وقبلت كتفه وقالت :

ـ أغاضب أيضا يا مولاى ؟

كان يحس بالحاجة القصوى الى انسان يطلعه على النار الموقدة فى دمائه ، فارتاح الى سؤالها وقال بشدة :

ـ كما ترين يا نيتوقريس !.

وكانت الملكة تشعر شعورا قويا بعد درايتها بأخلاقه ، بأن واجبها الأول هو أن تذهب عنه حدة الغضب اذا أهاجه ، فقالت بهدوء وهى تبتسم اليه :

ـ الحلم أحرى بالملك .

ولكنه هز كتفيه العريضين استخفافا وقال :

ـ أتوصيننى بالحلم أيتهـا الملكة ؟ انه لثوب زائف يتقنع به الضعفاء .

فقالت الملكة فى تألم ظاهر :

ـ مولاى .. لماذا تضيق بالفضائل ذرعا ؟

ـ أحقا انا فرعون ؟ .. وهل حقا أتمتع بشبابى وقوتى ؟.. فكيف اذا أريد ، ولا أستطيع نيل ما أريد ؟.. كيف تنظر عيناى الى أراضى مملكتى فيتصدى لى عبد ويقول : لن يكون هذا لك؟..

فوضعت يدها على ذراعه وأرادت أن تجذبه الى الديوان ، ولكنه تخلص منها ، ومضى يذرع الحجرة جيئة وذهابا . غاضبا ساخطا ، فقالت بلهجة تنم على الأسف العميق :

ـ لا تصور الأمور لنفسك على هذا النحو .. واذكر دائما أن الكهنة رعاياك المخلصون ، وأن أراضى المعابد كانت منحا تنازل عنها أجدادنا ولكنها اكتسبت صفة الحقوق الكاملة ، وأنت تريد يا مولاى أن تستردها ، فمن الطبيعى أن يقلقوا ..

فقال الملك الشاب بحدة :

ـ أريد أن أشيد قصورا ومقابر ، وأن أتمتع بحياة سعيدة عالية ، ولا يقف فى سبيل رغباتى الا أن نصف أراضى المملكة فى أيدى أولئك الكهنة .. أيجوز أن تعذبنى رغباتى كالفقراء ؟ . ألا سحقا لهذه الحكمة الفارغة ، أوتعلمين ماذا حدث اليوم ؟.. لقد هتف نفر منهم فى أثناء سير الموكب باسم ذلك الرجل خنوم حتب

.. ارأيت أيتها الملكة ؟.. انهم يتحدون فرعون عينا لعين !
فاستولت الدهشة على الملكة ، واصفر وجهها الوديع ، وتمتمت بكلمات غير مسموعة ، فقال الملك بلهجة ساخرة مريرة :
ـ ماذا دهاك أيتها الملكة ؟

احست بلا شك بانزعاج واستياء ، ولولا أن الملك غاضب الى حد الثورة لما حاولت أن تخفى غضبها ، ولكنها تسلطت على انفعالاتها بارادة من حديد ، وقالت بهدوء :

ـ دع هذا الحديث الى وقت آخر ، فانك على وشك استقبال رجال مملكتك وعلى رأسهم خنوم حتب . وينبغى أن تقابلهم المقابلة الرسمية الكاملة ..

فنظر فرعون اليها نظرة غامضة ، وقال بسكينة مخيفة :
ـ انى أعرف ما أريد ، وينبغى أن أفعل .

وفى الوقت المحدد ، استقبل الملك رجال مملكته فى البهو الرسمى العظيم ، واستمع الى خطب الكهنة ، وآراء حكام الأقاليم ، ولاحظ كثيرون أن الملك « لم يكن راضيا » ، وحين تفرق الجمع استبقى الملك رئيس وزرائه وحده واختلى به زمنا غير يسير . وملكت الحيرة النفوس ، ولكن لم يجرؤ أحد على التساؤل ، ثم ظهر رئيس الوزراء ، وحاول كثيرون أن يقرءوا صفحة وجهه ، لعلهم يعثرون على بينة ، ولكن وجهه كان جامدا كالصخر لا يبين .

وأمر الملك مستشاريه المقربين ، سوفخاتب كبير الحجاب ، وطاهو رئيس الحرس . أن يسبقاه الى موضع سمرهم على شاطىء بركة الحديقة ، ودار فى الممرات المعشوشبة ، يبدو على وجهه الأسمر الارتياح ، كأنه ارضى الغضب العنيف الذى طالبه بالثأر منذ حين قليل ، فمشى الهوينى يستروح الشذا الطيب الذى تبعث اليه به الأشجار تحية وسلاما ، وينقل ناظريه بين الأزهار والثمار ، ثم اتخذ سبيله الي البركة الغناء ، فوجد رجليه فى

انتظاره : سوفخاتب بجسمه النحيل الطويل ، وراسه الأشيب ، وطاهو بجسمه القوى الفولاذى الذى تربى على متون الخيل والعجلات .

وحاول كلا الرجلين أن يقرأ صفحة وجه الملك بامعان ليستكنه باطنه ويطمئن على السياسة التى يشير باتباعها نحو الكهنة ، وكانا سمعا الهتاف الجرىء الذى عد فى جميع الدوائر تحدياً لسلطة فرعون ، وكانا يتوقعان له رجعاً شديداً فى نفس الملك الشاب ، وعلما بعد ذلك باستبقاء فرعون لرئيس وزرائه بعد انتهاء التشريفات ، فخفق قلباهما ، وأشفق سوفخاتب من عواقب غضبة الملك ، لأنه كان ينصح دائماً بالتؤدة والأناة والصبر ، وبمعالجة مشكلة الأراضى بمنتهى الاعتدال ، أما طاهو فكان يرجو أن يدفع غضب الملك الى الانضمام الى رأيه ، فيصدر أمره بنزع أملاك المعابد وينذر الكهنة انذارا نهائيا ...

وجعل الرجلان المخلصان ينظران الى وجه مولاهما ، يرجوان ، ويكابدان قلقا اليما ، ولكن فرعون كتم عواطفه ، وطالعهما بوجه كأبى الهول . وكان يعلم بما تضطرب به نفساهما ، وكأنه رغب فى أن يمد لهما حبل الوساوس ، فجلس على أريكة فى هدوء . وأمرهما بالجلوس ، وسرعان ما عاودت وجهه هيئة الجد والاهتمام ، فقال :

ــ يحق لى اليوم أن أغضب وأتألم .

وفهم الرجلان ما يعنى ، ورن فى أذنيهما الهتاف الجرىء مرة أخرى . فرفع سوفخاتب يديه تألما واشفاقا ، وقال بصوت متهدج :

ــ تعالى مولاى عن دواعى الألم والغضب !

وقال طاهو بقوة :

ــ لا يجوز أن يألم مولاى وفى المملكة سلاح لا ينثلم ، ورجال يفتدونه بالأرواح ، حقا ان هؤلاء الكهنة علي علمهم وخبرتهم ،

يتنكبون سبيل الرشاد ، ويركبون رءوسهم ، ويعرضون أنفسهم الى تهلكة لا قبل لهم بها ...

فأحنى الملك رأسه ناظراً الى ما تحت قدميه ، وقال :

ــ انى أتساءل ، هل قوبل أحد من آبائى وأجدادى طوال عهد حكمه بمثل ما قوبلت به اليوم من هتاف ، وما مضى على جلوسى سوى بضعة أشهر ؟...

فالتمعت عينا طاهو بنور خاطف مخيف ، وقال بيقين :

ــ القوة يا مولاى ... القوة يا مولاى ... كان أجدادك المقدسون أقوياء ، يحققون ارادتهم بعزيمة كالجبال ، وسيف كالقضاء . كن مثلهم يا مولاى ، لا تتردد ولا تركن الى الحلم . واضرب اذا ضربت ضربة شديدة لا تعرف الرحمة ، تذهل الجبار عن نفسه ، وتخنق فى صدره أوهى الأمل .

ولم يرق هذا الكلام فى عينى الشيخ الحكيم سوفخاتب ، وذعر من حماس قائله ، وأشفق من عواقبه . فقال :

ــ مولاى .. ان الكهنة منبثون فى أقطار المملكة كالدم فى الجسم ، منهم : الولاة والقضاة والكتاب والمربون ، وسلطانهم على القلوب مبارك بيد الأرباب منذ القدم ، وليس لدينا من قوة حربية سوى الحرس الفرعونى وحامية بلاق ، فالضربة القاسية قد تأتى بعواقب غير محمودة ...

ولم يكن طاهو يؤمن بغير القوة ، فقال :

ــ وما عسى أن نفعل أيها المشير الحكيم ؟.. أنستوصى بالصبر حتى يقتحمنا عدونا ، ونرد فى عينيه الى الهوان ؟

ــ ليس الكهنة بأعداء لفرعون ، ومعاذ الرب أن يوجد لفرعون من شعبه عدو . فالكهنة طائفة مخلصة أمينة ، وما نأخذ عليهم الا أن امتيازاتهم اكثر مما يقتضى الحال ، وأقسم أنى ما يئست يوما من ايجاد الحل الموفق الذى يحقق رغبة مولاى ، ويحفظ للكهنة حقوقهم ...

وكان الملك يستمع اليهما فى هدوء ، وعلى فمه العريض ابتسامة غامضة ، فلما أتم سوفخاتب كلامه ، قال بهدوء وهو يرمقهما بعينين ساخرتين :

ــ أريحا نفسيكما أيها الرجلان المخلصان ، فقد أطلقت سهمى .

واستولت الدهشة على الرجلين ، ونظرا الى الملك فى اشفاق وأمل وخوف . وكان طاهو أدنى الى الأمل ، أما سوفخانب فامتقع وجهه وعض على شفتيه ، وانتظر صامتا سماع الكلمة الفاصلة . وقال الملك بلهجة نمت عن الزهو والتشفى :

ــ تعلمان أنى استبقيت الرجل بعد انصراف الناس جميعا ، ولما أن خلا المكان ابتدرته قائلا : ان الهتاف باسمى تحت سمعى وبصرى عمل حقير خئون ، وأكدت له أنى لا أعدم الهاتفين من شعبى النبيل الأمين ، فرأيته يضطرب ويبهت ، ويحنى رأسه الكبير على صدره الضيق ، وفتح فمه ليتكلم ، ولعله كان يريد أن يعتذر بصوته الهادىء البارد . . .

وقطب الملك جبينه ، وصمت لحظة ، ثم استطرد قائلا بعنف :

ــ ولم أتركه يعتذر فقطعت عليه باشارة من يدى ، وصارحته بكلام صارم ، مؤكدا له أنه من تفاهة العقل أن يظن مثل ذاك الهتاف يردنى عن رأى اعتزمته . ثم أخبرته بأن نيتى انتهت الى ضم أملاك المعابد الى أراضى التاج ، وأنه لن يترك للمعابد منذ اليوم الا ما يقوم بحاجتها من الأراضى والنذور . . .

وكان الرجلان يصغيان بكل حواسهما الى حديث الملك أما سوفخاتب فكان ممتقع اللون ، منكفىء الوجه ، يعانى مرارة الخيبة ، وأما طاهو فكان متهللا فرحا ، كأنه يستمع الى لحن جميل ، يتغنى بمجده وعظمته ، واستدرك الملك قائلا :

ــ لا شك أن قرارى أذهل خنوم حتب ، وأخرجه عن طوره ، فبدا عليه الجزع ، وتوسل الي قائلا : ان أراضي المعابد هى أراضى

الأرباب ، وان خيراتها تعود فى الغالب الى الشعب والفقراء ، وينفق فى وجوه التعليم والتربية الخلقية . وحاول أن يفيض ، ولكنى أوقفته باشارة من يدى ، وقلت له : ان هذه هى ارادتى ، وان عليه تنفيذها دون ابطاء ، وآذنته بانتهاء المقابلة .

فلم يتمالك طاهو أن صاح فرحا :

ــ باركتك الأرباب جميعا يا مولاى !

فابتسم الملك ارتياحا ، ولاحت منه نظرة الى وجه سوفخاتب فى ساعة خذلانه ، فأحس نحوه بعطف وقال :

ــ أنت رجل مخلص يا سوفخاتب ، ومشير نصوح ... فلا يحزنك أن خولف رأيك .

فقال الرجل :

ــ لست يا مولاى من قوم مغرورين ، يغضبون أشد الغضب اذا خولفت نصيحتهم ، لا خوفا من العواقب ، ولكن ذودا عن كرامتهم ، حتى ليبلغ الغرور بأحدهم أن يتمنى لو يقع شر كان أنذر به ، ليعرف من لايعرف قدره .. أعوذ بالرب من شر الغرور ، فما يدفعنى الى محض النصيحة سوى الاخلاص ، وما يحزننى حين مخالفتها سوى الاشفاق من صدق حدسى ، وما أتمنى على الرب من شىء الا أن يكذب رأيى ، ليطمئن قلبى ...

وكأن فرعون أراد أن يطمئنه ، فقال :

ــ لقد نلت بغيتى ، ولن ينالوا شيئا منى ، فمصر تعبد فرعون ، ولا ترضى عنه بدلا ...

فأمن الرجلان على قول مولاهما باخلاص ، ولكن كان سوفخاتب مضطربا ، يحاول عبثا أن يقلل من خطورة الأمر الذى أصدره فرعون ، ويذكر فى ضيق صدر ان الكهنة سيتلقون الأمر الشديد وهم مجتمعون فى آبو ، فيتسع لهم المقام لتبادل الرأى ، وتباث الشكوى ، فيعودون الى ولاياتهم وقد أطبقت أفواههم على التذمر

والحزن . وانه ليعلم علم اليقين من هم الكهنة وما هو نفوذهم على القلوب والعقول .. ولكنه لم يبن عن آرائه ، لأنه وجد الملك فرحا راضيا ضاحك الثغر ، فأشفق من تعكير صفوه ، وبسط صفحة وجهه ، ورسم على شفتيه ابتسامة راضية .

وقال الملك بسرور :

ـ لم أشعر بمثل نشوة الظفر هذه منذ اليوم الذى انتصرت فيه على قبائل المعصايو جنوب النوبة فى حياة أبى ، فلنشرب نخب هذا الفوز السعيد .

وجاءت الجوارى بأبريق من خمر مريوط وكئوس ذهبية ، وصببن الخمر ، وقدمن كئوسا مترعات الى الملك والرجلين المخلصين ، فشربوا فى صفاء وهناء ، وعلوا فى نشوة ، وجعل سوفخاتب يذب عن قلبه الخواطر المقلقة ، ليركز حواسه فى رحيق مريوط ، ويشارك الملك والقائد سعادتهما ، وكانوا جلوسا صامتين تتبادل أعينهم المودة والصفاء ، والبركة من تحتهم يستحم فى مائها الطرب شعاع الشمس المائل ، والأشجار من حولهم ترقص أغصانها على شدو الأغاريد ، وتنبثق الأزهار من بين أوراقها انبثاق الخواطر السعيدة من غيابات النفوس ... واستسلموا الى يقظة ناعسة زمنا غير يسير حتى انتبهوا على حادثة غريبة انتزعتهم من أحلامهم بعنف ، اذ سقط شىء فى حجر الملك من عل ، فانتفض واقفا ، وتبعه الرجلان ، فسقط الشىء عند قدميه ، واذا به صندل ذهبى ، ونظروا الى أعلى دهشين ، فرأوا نسرا هائلا يحلق فى سماء الحديقة فوق رءوسهم ويبعث فى الفضاء صرصرة مخيفة ، ويصليهم نظرات ملتهبة من عينين متقدتين ، ثم ضرب بجناحيه الهواء ضربة عنيفة حلق بها فى آفاق بعيدة ..

وعادوا بالنظر الى الصندل ، والتقطه الملك بيده ، وجلس

يتأمله بعينين مبتسمتين تلوح فيهما آى الدهشة . ونظر الرجلان الى الصندل بغرابة ، وتبادلا نظرات الانكار والدهشة والارتياب .

ومضى الملك فى تأمله ، ثم غمغم قائلا :

ـ هذا صندل امرأة بلا ريب ، ما أجمله وما أثمنه !.

وتساءل طاهو وعيناه تلتهمان الصندل :

ـ ترى هل خطفه النسر ؟

فابتسم الملك قائلا :

ـ لا يوجد فى حديقتى شجر يتساقط منه نبت طيب كهذا .

وقال سوفخاتب :

ـ يعتقد العامة يا مولاى أن النسر يتعشق الحسان ، وأنه يخطف من العذارى من تهوى اليها نفسه ، ويطير بها الى قمم الجبال ، فلعل هذا النسر عاشق هبط منف وابتاع الصندل لحبيبته ، ثم خانه الحظ فأفلت من بين مخالبه ، وسقط عند قدمى مولاى .

وجعل الملك يتأمله مسرورا منفعلا ، ويقول :

ـ ترى كيف خطفه ؟.. أخشى أن يكون لاحدى ساكنات السماء ..

فعاد سوفخاتب يقول باهتمام :

ـ أو لاحدى ساكنات الأرض يامولاى ، خلعته مع ثيابها على شاطىء بركة ، وتعرت تستحم ، فجاء النسر وخطفه .

ـ ورمى به الى حجرى .. يا للعجب ، لكأنى به يعلم بحبى الحسان ! ..

فابتسم سوفخاتب ابتسامة ذات معنى ، وقال :

ـ أسعدت الآلهة ايامك يا مولاى .

وتبدت الأحلام فى عينى الملك ، وابتسمت أساريره ، ولان جبينه ، وتوردت وجنتاه ، وكان ينظر الى الصندل لا تفارقه

عيناه ، ويسائل نفسه ترى من صاحبته ؟ وما صورتها ؟ وهل هى جميلة كصندلها ؟ وكيف لا تدرى أن صندلها سقط فى حجر الملك وما شأن الأقدار التى نصبته هدفا له ؟ . وعثر بصره بصورة منقوشة على باطنه ، فقال وهو يشير اليها :

ـ ما أجمل هـذه الصورة .. انه فارس وسيم ، يقدم قلبه هدية على يده المبسوطة .

ووقعت هذه العبارة من قلب الرجلين موقع الانتباه الشديد . فالتمعت أعينهما بنور خاطف ، وتطلعا الى الصندل باهتمام عظيم ، وقال سوفخاتب :

ـ هل يتنازل مولاى عن الصندل لحظة ؟

فأعطاه ، ونظر اليه كبير الحجاب ، كما نظر اليه طاهو ، ثم رده الرجل الى الملك وهو يقول :

ـ صـدق حدسى يا مولاى .. هذا صندل رادوبيس غانية بيجة الشهيرة .

فتساءل الملك قائلا :

ـ رادوبيس .. يا له من اسم جميل .. من عسى أن تكون صاحبته ؟ ! .

وساور القلق قلب طاهو واختلجت عيناه فقال :

ـ هى راقصة يا مولاى يعرفها أهل الجنوب جميعا .

فابتسم فرعون وقال :

ـ ألسنا من أهل الجنوب ؟. حقا ان الملوك قد تخترق أعينها سجف الأفق القصى ، وتعمى عما يقع عليه ظلها .

واشتد القلق بطاهو ، فقال وقد امتقع لونه :

ـ انها امرأة يامولاى قد طرق بابها رجال آبو وبيجة وبلاق .

وكان سوفخاتب يعلم بما يساور قلب صاحبه من المخاوف ، فقال وهو يبتسم ابتسامة غامضة ماكرة :

ـ على أية حال هى صورة أنثوية يا مولاى ، جعلتها الآلهة آية على قدرتها واعجازها .

فردد الملك ناظريه بين الرجلين وقال مبتسما :

ـ وحق الرب سوتيس انكما لأخبر أهل الجنوب بها .

فقال سوفخاتب بهدوء :

ـ ان بهو استقبالها يا مولاى ملتقى أهل الرأى والفن والسياسة .

ـ حقا ان الجمال عالم ساحر ، يطالعنا كل يوم بالمعجزات . هل هى أجمل ممن رأيت ؟

فقال سوفخاتب باطمئنان :

ـ هى الجمال عينه يا مولاى ، هى فتنة قهارة ، وعاطفة لا تقاوم . لقد صدق الفيلسوف هوف وهو من أصدقائها المقربين اذ قال يوما : انه من أخطر الأمور فى حياة الرجل أن تقع عيناه على وجه رادوبيس .

وتنهد طاهو يائسا ، وحدج كبير الحجاب بنظرة خاطفة فهم معناها ، ثم قال :

ـ ان جمالها يا مولاى جمال شيطانى رخيص . لا تضن به على طالب !

فضحك الملك بصوت عال ، وقال :

ـ كلاكما يغرينى وصفه ..

فقال سوفخاتب :

ـ الا فلتروك سماء مصر بأجمل ما تظل من السعادة يامولاى.

ونزع خيال الملك به الى النسر ، فتولاه عجب ساحر ، اضفى عليه ما سمعه نسيجا رقيقا من الفتنة والأحلام ، فتساءل وكأنه يحادث نفسه :

ـ ترى أأحسن النسر فى اختيارنا هدفا له أم أساء ؟

واختلس طاهو نظرة عاجلة من وجه مولاه المكب على ما بين يديه ، وقال فى حيرة :

ــ ما هى الا مصادفة يا مولاى . وما يؤسفنى الا أن أرى هذا الصندل الملوث بين يدى مولاى المعبودتين .

ولحظ سوفخاتب صاحبه بنظرة ساخرة متشفية ، وقال بهدوء :

ــ مصادفة ؟.. ان هذه الكلمة يامولاى مهضومة الحق ، يظن بها التخبط والعمى ، ومع هذا فهى المرجع الوحيد لأغلب السعادات وأجل الكوارث ، فلم يبق للآلهة الا القليل النادر من حادثات المنطق . كلا يا مولاى ، ان كل حادثة فى هذا العالم لاشك موكلة بارادة رب من الأرباب ، ولا يجوز أن تخلق الآلهة الحادثات ــ جلت أو تفهت ــ عبثا أو لهوا .

فجن جنون طاهو ، وكظم بقوة تيــار غضب جنونى كاد أن يجرف هدوءه فى حضرة الملك ، وقال لسوفخاتب بلهجة تنم على اللوم والتعنيف :

ــ أتريد أيها المعظم سوفخاتب أن تشغل بال مولاى . فى هذه الساعة الجليلة ، بأمثال هذه الأوهام ؟

فقال سوفخاتب بهدوء :

ــ ان الحياة جد ولهو ، كما أن اليوم نهار وليــل . والرجل الحكيم من لا يذكر فى أوقات جده أسباب لهوه ، ولا يعكر صفو لهوه بأمور جده . فمن أدراك أيها القائد ، فلعل الآلهة لسابق علمها بحب مولانا الجمال ، أرسلت اليه هــذا الصندل على يد النسر العجيب .

وقلب الملك عينيه فى وجهيهما واستضحك قائلا :

ــ أدائما على اختلاف أيها الرجلان ؟ كما تشاءان . ولكن كان ينبغى أن أجد فى طاهو الرجل مضربا بالهوى ، وفى ســوفخاتب

الشيخ زاجرا عنه . وعلى أية حال لا مندوحة لى من الميل مع رأى سوفخاتب فى الحب .كما ملت الى رأى طاهو فى السياسة .

وقام الملك واقفا ، فقام الرجلان . وألقى نظرة على الحديقة الواسعة وهى تودع الشمس المائلة نحو الأفق الغربى ، وقال وهو يهم بالمسير :

ــ أمامنا ليلة عمل شاقة . فالى الغد ، ولسوف نرى .

وذهب فرعون والصندل فى يده ، فانحنى الرجلان فى اجلال.

ووجدا نفسيهما منفردين مرة أخرى فوقف كل منهما بازاء صاحبه : طاهو بجسمه الطويل وصدره العريض وعضلاته الفولاذية . وسوفخاتب بجسمه الدقيق النحيل وعينيه الصافيتين العميقتين وابتسامته الجميلة العظيمة .

وكان كل منهما يحس بما اختلج فى صدر صاحبه ، فيبتسم سوفخاتب ، ويقطب طاهو جبينه . ولم يستطع القائد أن يودع الحاجب بغير قول ينفس به عن صدره الكظيم ، فقال :

ــ غدرت بى أيها الصديق سوفخاتب ، بعد أن لم تطق منازلتى وجها لوجه ..

فرفع سوفخاتب حاجبيه انكارا ، وقال :

ــ يا له من كلام بعيد عن الحق أيها القائد . مالى أنا والحب ؟ ألم تعلم بأنى شيخ فان ، وأن حفيدى سنب طالب فى جامعة أون؟

ــ ما أسهل تزوير الكلام عليك أيها الصديق ، ولكن الحقيقة تهزأ بلسانك اللبق الحكيم .. ألم يمل قلبك الفتى يوما الى رادوبيس ؟ الم يسؤك أن تهبنى عطفا لم تظفر به انت ؟

فرفع الشيخ يديه يستعيذ من كلام القائد ، وقال :

ــ ان خيالك لا يقل قوة عن عضلات ساعدك الايمن ، والحق أنه اذا كان قلبى مال الى هذه الغانية يوما . فعلى طريقة الحكماء المبرأة من الطمع !

ـ اما كان يجمل بك الا تفتن خيال مولانا بحسنها اكراما لى ؟

فبدت الدهشة على سوفخاتب ، وقال باهتمام وأسف صادق :

ـ احقا انك تجد فى الأمر جدا ؟ .. أم انك ضقت بدعابتى ذرعا ؟ ..

فقال طاهو بسرعة :

ـ لا هذا ولا ذاك أيها المعظم ، ولكن يسوءنى فقط أن نختلف دائما .

فابتسم كبير الحجاب ، وقال بهدوئه الطبيعى :

ـ لن يزال يجمعنا رباط وثيق هو الاخلاص لصاحب العرش !

قصر بيجة

غاب الموكب الفرعونى عن الأنظار ، ورفعت تماثيل ملوك الأسرة السادســة ، فاندفع الناس من جانبى الطــريق ، فتــلاطمت أمواجهم ، واختلطت انفاسهم ، كأنهم بحر موسى الذى انشق له طوعا ، وانقض على أعــدائه كاسرا . فأمرت رادوبيس عبيدها بالعودة الى السفينة . وكانت نشوة الحماس التى انبعثت فى قلبها لدى ظهور فرعون ما تزال تلتهب فى قلبها نارا وتندفع الى أطرافها دما حارا . وكانت صــورته لا تفارق مخيلتها لشبابه الغض . ونظرته المتعالية ، وقده الرشيق ، وعضلاته المفتولة .

وكانت رأته قبــل ذلك فى يوم التتويج العظيم منذ شــهور قلائل ، وكان يقف فى عجلته كما وقف اليوم فارع الطول جاهر الجمال ، مرسلا بناظريه الى الأفق البعيد ، وقد تمنت يوم ذاك كما تمنت اليوم لو عطف اليها عينيه .

ترى لماذا ؟.. ألأنها تطمع فى أن يفوز جمالها منه بما هو أهله من التكريم ؟ أم لأنها تود فى أعماقها لو تراه فى هيئة البشر بعد أن رأته فى قداسة الأرباب المعبودة ؟ كيف السبيل الى فهم هذا التمنى ؟.. على أنه مهما كانت حقيقته . فقد تمنت صادقة ، وتمنت مخلصة مشوقة .

لبثت الغانية مستغرقة فى غمرات أحلامها ، فلم تعن بالالتفات الى الطريق المزدحم الذى يجتازه ركبها الصغير بشق الأنفس ، ولم تلق أدنى انتبــاه الى الآلاف من الخلق الذين يــكادون أن يلتهموها ، بنهم وشراهة . وصعد بها الى السفينة ونزلت من

الهودج فى المقصورة ، واطمأنت الى عرشها الصغير ، وهى فى شبه غيبوبة تسمع ولا تعى، وتنظر ولا ترى .. وانسابت بها تشق وجه النيل الرزين . حتى رست الى سلم حديقة قصرها الأبيض ، عروس جزيرة بيجة . وكان القصر يرى عن بعد فى نهاية الحديقة اليانعة التى تنتهى معارجها الى سيف النيل ، تحوط به أشجار الجميز ، ويحنو عليه النخيل ، كأنه زهرة بيضاء نبتت فى أحضان تلك الجنة الوارفة . فهبطت أدراج السفينة ، ووضعت قدمها على أولى درجات الحديقة ، وصعدت سلما من المرمر المصقول . يمتد بين سورين من الجرانيت تنتصب على الجانبين مسلات عالية نقشت عليها أشعار رقيقة لرامون حتب ، الى أن بلغت أرض الحديقة السندسية .

واجتازت بوابة من الحجر الجيرى نقش اسمها على واجهتها باللغة المقدسة ، وقام فى وسطها تمثال لها بالحجم الطبيعى . نحته هنفر ، وأفنى فيه دهرا جميلا من أسعد أيام حياته ، يمثلها جالسة على عرشها الجميل الذى تستقبل عليه المقربين ، ويكشف فى روعة فنية رائعة عن جمال الوجه . وتكعب الثديين ، ورشاقة القدمين . ثم خلصت الى ممر وسيط اصطفت على جانبيه الأشجار تعانقت أعالى أغصانها ، فظللت عليه سقفا من الأزاهر والأوراق الخضراء ، وفرشت أرضه بالحشائش والأعشاب ، وكانت توازيه عرضا من اليمين والشمال ممرات جانبية قدت على نفس الصورة ، تنتهى ذات اليمين الى سور الحديقة الجنوبى ، وذات الشمال الى سورها الشمالى . وكان هذا الممر ينتهى الى الكرمة المتفرعة المتسلقة على أعراش من عمد رخامية ، تنبسط الى يمينها غابة من الجميز . وتمتد الى يسارها غابة من النخيل أقيمت فيها هنا وهناك بيوت القردة والغزلان ، وانتثرت فى جنباتها المترامية التماثيل والمسلات .

وانتهت بها قدماها الى بركة واسعة من ماء غير آسن ، ينطلق على شطآنها نبات اللوتس ، ويسبح على سطحها الأوز والبط وتغنى فى جوها الأطيار ، وقد انتشر شذى العطر وأريج الزهر وغردت البلابل .

ودارت حول البركة نصف دورة كاملة . فصارت أمام الحجرة الصيفية ، ووجدت فى استقبالها جماعة من الجوارى انحنين لها اجلالا ، ثم وقفن ينتظرن أوامرها . وأسلمت الغانية نفسها الى أريكة مظللة تستريح .. ولم يطل بها المقام فانتفضت واقفة ، وقالت لجواريها :

– كم ضايقتنى أنفاس القوم الحارة .. وكم أرهقنى الحر .. اخلعن ثيابى ، فقد تقت الى مياه البركة الباردة .

فدنت الجارية الأولى من سيدتها ، ورفعت بخفة خمارها الموشى بالذهب نسيج منف الخالدة .

ثم تقدمت اثنتان فخلعتا العباءة الحريرية ، فكشفتا عن قميص شفاف انحسر عما فوق النهدين وما تحت الركبتين . ثم تبعتهما جاريتان فسحبتا بيدين رقيقتين القميص السعيد ، وروعتا الدنيا بجسد طليق ، خلقته الآلهة جميعا ، وادعاه كل لقدرته وفنه !

واقتربت جارية أخرى وحلت عقدة شعرها الفاحم ، فانساب على جسدها ، وغشاه من الجيد الى الرسغين ، وانحنت على قدميها وخلعت صندلها الذهبى ووضعته على حافة البركة . وعشت الغانية تتهادى ، وهبطت درجات البركة المرمرية على مهل ، ومضى الماء يغمر القدمين ، فالساقين ، فالفخذين ، ثم ألقت بجسمها فى الماء الهادىء يأخذ منه عطرا ويعطيه بردا وسلاما . واستسلمت لمداعبة الماء فى رخاوة ، ولعبت فيه ماشاء لها الهوى والمرح ، وسبحت طويلا تارة على بطنها ، وتارة على ظهرها ، وثالثة على أحد جانبيها .

وما كانت لتعير شيئا اهتماما لولا أن صك أذنيها صراخ فزع يرسله جواريها ، فتوقفت عن السباحة ، والتفتت اليهن ، فراعها أن رأت نسرا هائلا يحلق من علو قريب من شاطىء البركة ، ويرف بجناحيه ، ففرت من بين شفتيها صرخة فزع ، وغاصت في الماء تنتفض فزعا ورعبا ، وتصبرت بجهد جهيد ، وحبست أنفاسها طويلا حتى أحست بالاختناق ، ونفذت قدرتها فرفعت رأسها في خوف وحذر ، ونظرت فيما حولها وهي تخشى ، فلم تر شيئا . فنظرت الى السماء فوجدت النسر يولى بعيدا يوشك أن يلج باب الأفق ، فسبحت الى الشاطىء على عجل ، وصعدت الأدراج مسرعة مضطربة ، ووضعت قدمها في احدى زوجي صندلها ، ولكنها لم تجد الأخرى ، وبحثت عنها طويلا ثم سألت :

– اين الأخرى ؟

فأجابها الجوارى في قلق :

– خطفها النسر !

وتبدى الأسف على وجهها ، ولكنها لم تجد متسعا من الوقت لاعلان سخطها ، فدلفت الى الحجرة الصيفية ، والجوارى من حولها وبين يديها يجففن جسدها الغض ، تنحدر عليه نقط الماء كأنها لؤلؤ ينتشر على أديم عاج .

***

ولدى الغروب تأهبت لاستقبال الضيوف ، وما أكثرهم في أيام العيد التي تجذب الناس الى الجنوب من كل صوب ، فارتدت أجمل ثيابها ، وازينت بأفخر حليها ، ثم تركت المرآة الى بهو الاستقبال ، تنتظر القادمين وقد آن موعدهم .

وكان البهو آية من آيات الفن والعمارة ، بناه المعمار هنى ، وجعل صورته على هيئة بيضاوية ، وشيد جدرانه من الجرانيت

كبيوت الأرباب ، وكساه بطبقة من الصوان ذات الوان تسر الناظرين ؛ وكان سقفه مقببا تزينه الصور والتهاويل ، وتتدلى منه المصابيح المكفتة بالذهب والفضة .

وزخرف الجدران المثال هنفر ، وتنافس العشاق فى تأثيثه باهداء المقاعد الوثيرة والدواوين الفاخرة ، والرياش الجميلة . وكان عرش الغانية أبدع هذه التحف جميعا ، فهو من العاج الثمين على قوائم من سن الفيل ، وقاعدته من الذهب الخالص المحلى بالزمرد والياقوت ، وقد أهداه اياها آنى حاكم جزيرة بيجة .

ولم يطل انتظار الغانية ، فدخل عبد من عبيدها ، وأعلن قدوم السيد عانن تاجر سن الفيل . ودخل الرجل على الأثر يهرول فى ثيابه الفضفاضة . ويزهو بشعره المستعار ، يتبعه عبد يحمل صندوقا من العاج المطعم بالذهب ، وضعه على كثب من كرسى الغانية ، ورجع من حيث أتى . وانحنى التاجر على يد رادوبيس، ولثم أناملها . فابتسمت اليه ، وقالت بصوتها الحلو :

ــ أهلا بك أيها السيد عانن . كيف حالك ؟. أهكذا لا نراك الا كل دهر طويل !

فضحك الرجل سعيدا مسرورا ، وقال :

ــ ماذا أصنع يا مولاتى !.. هى حياتى التى اخترتها أو التى فرضتها الأقدار على ، أن أكون أخا سفر ، جواب أرض . تتقاذفنى البلدان ، فأقضى نصف عامى فى بلاد النوبة . ونصفه الثانى ما بين الجنوب والشمال ، أشترى وأبيع ، وأبيع وأشترى . لا أعرف لحياتى مستقرا !!.

فنظرت الى الصندوق العاجى وهى لا تزال تبسم وسألته :

ــ وما هذا الصندوق الجميل ؟ اخال أنه هدية من هداياك النفيسة !.

ــ ليس الصندوق بالذات ، ولكن ما فيه .. هو سن فيل

مفترس . اقسم التاجر النوبى الذى ابتعته منه أن صيده كلفه أربعة من رجاله الأشداء ، فحفظته فى مكان أمين ، ولم أعرضه على الطالبين . ولما ألقيت عصا الترحال فى تنيس ، دفعت به الى أيدى صائغيها المهرة ، فبطنوه بقشرة من خالص الذهب وطلوه من الخارج ، فصار كأسا لا يشرب منها الا الملوك .. وقلت لنفسى : أحرى بتلك الكأس التى كلفت نفوسا غالية . أن تهدى الى من تبذل فى سبيلها النفوس العزيزة رخيصة . وهى راضية .

فضحكت رادوبيس ضحكة رقيقة ، وقالت :

ــ شكرا لك أيها السيد عانن .. ان هديتك على نفاستها لا تعدل بجمال حديثك !

فطرب أيما طرب ، ورنا اليها بعين ناطقة بالاعجاب والتوسل ، وقال بصوت خافت :

ــ ما أجملك .. ما أفتنك .. كلما عدت من سفر طويل أجدك أجمل وأفتن مما تركتك ، وكأنى بالزمان ولا عمل له الا السمو بحسنك الفاتن .

وكانت تصغى الى اطراء حسنها ، كمن يصغى الى نغمة معادة ، فطاب لها أن تتهكم به فسألته :

ــ كيف حال أبنائك ؟!.

فأحس بشىء من الخيبة ، وصمت لحظة ، ثم انحنى على الصندوق ورفع غطاءه ، فبدا الكأس نائما على جانبه . ثم قال وهو يرفع رأسه اليها :

ــ ما ألذع سخريتك يا سيدتى . ومع هذا فلن تجدى شعرة بيضاء برأسى ، وهل تستطيع من تقع عيناه على وجهك أن يحفظ فى قلبه بأدنى حرارة لامرأة سواك !.

فلم تجبه ، وما تزال تبتسم ، ثم دعته للجلوس فجلس قريبا منها . واستقبلت على أثر ذلك جماعة من التجار وكبار المزارعين .

منهم من يتردد على قصرها كل مساء ، ومنهم من لا تراه الا في الأعياد والمناسبات ، فرحبت بهم بابتسامتها الفاتنة . ثم رأت المثال هنفر يلج باب البهو بقامته الرشيقة ، وحنجرته الناتئة ، وشعره المفلفل ، وأنفه الأفطس ؛ وكان من الرجال الذين تستخف ظلهم ، فأعطته يدها ، ولثمها الرجل في حب عميق . وقالت تداعبه :

ــ ايها الفنان الكسول .

ولم يرض هنفر عن هذا الوصف فقال :

ــ لقد انتهيت من عملي في زمن قصير .

ــ والحجرة الصيفية ؟

ــ هي الباقية بلا زخرف ، وانه ليؤسفني أن اقول لك بأني لن ازخرفها بنفسي .

فبدا التساؤل على وجه رادوبيس ، فقال الرجل :

ــ سأرتحل بعد غد الى بلاد النوبة . لأن أمي مريضة ، وقد بعثت الى رسولا يبلغني رغبتها في رؤيتي ، فلم أر بدا من السفر .

ــ خففت الأرباب عنها وعنك .

فشكرها هنفر وقال :

ــ لا تظني أني نسيت الحجرة الصيفية . ففي الغد يأتيك أنبغ تلاميذي بنامون بن يسار ، ويقوم بزخرفتها على أكمل الوجوه ، أني أثق به ثقتي بنفسي ، ولعلك ترحبين به وتشجعينه.

فشكرته على عنايته بها ، ووعدته خيرا .

واطرد تيار القادمين ، فجاء المعمار هني ، وقفاه آني حاكم الجيزة ، وتبعهما بعد حين قليل الشاعر رامون حتب . وكان آخر من أتى الفيلسوف هوف ، الذي كان في يوم من الأيام استاذ جامعة اون الأكبر . وقد عاد اخيرا الى آبو مسقط رأسه ، بعد ان نيف

على السبعين من عمره . وكانت رادوبيس لا تفتأ تداعبه ، فقالت له وهى تستقبله :

ــ مالى اذا رأيتك اشتهى أن أقبلك ؟

فقال الرجل بهدوء :

ــ لعلك يا مولاتى من هواة التحف القديمة .

***

ودخلت جماعة من الجوارى يحملن أوانى من الفضة ملئت طيبا ، وباقات من أزهار اللوتس ، فدهن رءوس الحاضرين وأيديهم وصدروهم بالطيب ، وأهدين الى كل منهم زهرة من اللوتس .

وقالت رادوبيس بصوت عال :

ــ ألم تعلموا بما حدث لى اليوم ؟

فتطلع اليها الجميع بانتباه ، وساد الصمت ، فقالت باسمة :

ــ نزلت أستحم ظهر اليوم فى البركة ، فهبط نسر بغتة وخطف فردة صندلى الذهبى ، وطار بها .

فبدت الدهشة والابتسامة على الوجوه ، وقال الشاعر رامون جتب :

ــ ان رؤيتك فى الماء عارية تهيج الطيور الكاسرة !

وقال عانن بحماس :

ــ أقسم بالرب سوتيس على أن النسر كان يتمنى لو يخطف صاحبة الصندل .

فقالت رادوبيس آسفة :

ــ كم كان عزيزا لدى .

فقال هنفر المثال :

ــ من المحزن حقا أن يضيع شيء تمتع بلمسك أياما وأسابيع ،

وما مصيره فى النهاية الا السقوط ، وقد يسقط فى حقل ناء فتطؤه قدم ريفية بسيطة !

فقالت رادوبيس بحزن :

ـ مهما يكن مصيره ، فلن يعود الى . .

وكان الفيلسوف هوف يعجب لحزن رادوبيس على صندل تافه ، فقال يعزيها :

ـ على اية حال ان خطف النسر لصندلك فأل حسن ، فلا تحزنى .

فسأله أحد الأعيان المبرزين :

ـ وماذا ينقص رادوبيس من السعادة ، وجميع هذه الوجوه من عشاقها ؟

فرد عليه الفيلسوف قائلا ، وهو يحدجه بنظرة ساخرة :

ـ ينقصها أن تتخلص من بعضهم !

ودخلت جماعة أخرى من الجوارى يحملن أباريق الخمر وكؤوس الشراب الذهبية . ودرن بها على الحاضرين ، كلما لاح العطش على واحد منهم روينه بكأس مترعة ، تطفىء الظمأ فى الفم ، وتوقد النار فى القلوب . وقامت رادوبيس على مهل ، وسارت الى الصندوق العاجى ، ورفعت الكأس العجيبة ، ومدت بها يديها الى الساقية وهى تقول :

ـ لنشرب نخب السيد عانن لهديته الجميلة ، وعودته السالمة.

فشربوا جميعا هنيئا ، وشرب عانن كأسه حتى الثمالة . وأرسل الى الغانية نظرة امتنان وشكران ، ثم التفت الى صاحب له وقال :

ـ أليس من كبريات النعم أن يجرى ذكر اسمى على لسان رادوبيس ؟

فأمن الرجل على قوله ، وتنبه عند ذاك الحاكم آنى الى وجود

السيد عانن ، وكان يعرفه ، ويعلم بأنه كان فى رحلة فى الجنوب ، فقال له :

ــ عود سعيد يا عانن ، كيف كانت سفرتك هذه المرة ؟

فأحنى الرجل رأسه احتراما ، وقال :

ــ حفظتك الآلهة من كل سوء أيها الحاكم الجليل ، لم اتوغل هذه المرة فيما وراء اقيم الواوايو ، وكانت رحلة موفقة موفورة الخيرات مأمونة العواقب .

ــ وكيف حال صاحب السمو كارفنرو حاكم الجنوب ؟

ــ الحق أن سموه يلقى متاعب جمة بسبب تمرد قبائل المعصايو ، فهم يضمرون الكراهية للمصرين ، ويتربصون لهم . فاذا وقعوا على قافلة هاجموها بلا رحمة ، وقتلوا رجالها ، ونهبوا تجارتها ، ولاذوا بالفرار قبل أن تبلغهم القوات المصرية .

فبدا الاستياء على وجه الحاكم ، وسأل التاجر باهتمام :

ــ ولماذا لا يسير سموه اليهم قوة تأديبية ؟

ــ ان سموه لا ينفك يرسل قواته فى أعقابهم ، ولكنهم لا يواجهون القوات الحربية ، ويفرون فى الصحارى والغابات . فتضطر القوات الى العودة بعد نفاد المؤن ، ويستأنف العصاة غاراتهم على طرق القوافل .

وكان الفيلسوف هوف يصغى بانتباه الى كلام عانن ، وكانت له خبرة ببلاد النوبة ، وكان على علم واف بقضية المعصايو ، فسأل التاجر قائلا :

ــ لماذا يصر المعصايو دائما على العصيان ! .. ان البلاد المشمولة بحكم مصر تتمتع فى ظله بالطمأنينة والرفاهية ، ونحن لا نتعرض لعقائد غيرنا . فلماذا يناصبوننا العداوة ؟

ولم يكن عانن يعنى بمعرفة الأسباب ، وظن أن نفاسة التجارة هى التى تغرى القوم بالانقضاض عليها ، ولكن الحاكم آنى كان متبحرا فى هذه المسائل ، فقال للفيلسوف :

ـ الحق ياسيدى الأستاذ ان العصيان لا يرجع الى أسباب سياسية أو دينية . وحقيقة المسألة أن القوم قبائل رحالة ، يعيشون فى أرض جدباء ، ويهددهم الجوع فى كل حين ، وبين أيديهم كنوز من الذهب والفضة لا تغنى ولا تشبع من جوع . فاذا انبرى المصريون لاستثمارها ، هاجموهم ونهبوا قوافلهم .

فقال هوف :

ـ اذا كان الأمر كذلك . فالحملات التأديبية عديمة الجدوى ، وانى اذكر يا سيدى الحاكم أن الوزير أونا ـ تقدست روحه فى عالم أوزوريس ـ منى نفسه يوما بعقد معاهدة معهم على أساس المنفعة المتبادلة ، فيمدهم بالغذاء فى مقابل أن يؤمنوا له طرق القوافل .. هى فكرة ثاقبة أليس كذلك ؟

فهز الحاكم رأسه دلالة على الموافقة ، وقال :

ـ لقد احيا رئيس الوزراء خنوم حتب مشروع الوزير أونا ، وعقد المعاهدة قبل عيد النيل بأيام ، ولن نعرف نتيجة سياسته قبل زمن طويل ، والمتفائلون كثيرون ..

وكان الحاضرون ملوا سريعا حديث السياسة ، فانقسموا حلقات ، ومنهم عانن ، وشتتهم شجون الحديث . وحاولت كل حلقة أن تجذب رادوبيس اليها ، ولكن الغانية جذبها ذكر اسم خنوب حتب ، وذكر الهتاف الذى دوى باسمه فى أثناء سير الركب الفرعونى ، فعاودها استياء غمرها وقتذاك واحست بلفحة غضب ، فدلفت الى حيث يجلس آنى ، وهوف ، وهنفر ، وهنى ، ورامون حتب ، وقالت بصوت خافت :

ـ ألم تسمعوا ذلك الهتاف العجيب ؟

وكان زوار القصر الأبيض اخوة ، لا تقوم بينهم كلفة ، ولا يعقل ألسنتهم خوف ، وكانت أحاديثهم تتناول كل شىء فى حرية مطلقة ، وطمأنينة كاملة . وقد سمع هوف مرات ينتقد سياسة الوزراء ، كما سمع رامون حتب وهو يبدى شكوكه

ومخاوفه من تعاليم اللاهوت ، ويعلن عن ايمـانه باللذة ويدعو الى متاع الدنيا .

وتناول المعمار هنى جرعة من كأسه ، وقال وهو ينظر الى وجه رادوبيس الجميل :

ــ انه هتاف جرىء لم يسمع بمثله من قبل فى وادى النيل .

فقال هنفر :

ــ نعم ولا شك أنه كان مفاجأة محزنة لفرعون الشاب فى أول عهده بالحكم .

وقال هوف بهدوء :

ــ لم تجر العادة قط بأن يهتف باسم انسان ما مهما كانت مكانته ، فى حضرة فرعون ! .

فقالت رادبويس بلهجة دلت نبراتها على الغضب :

ــ ولكنهم خرقوا هذه العادة بمنتهى الوقاحة .. لماذا أقدموا على ذلك أيها السيد آنى ؟

فرفع الرجل حاجبيه الكثيفين ، وقال :

ــ أراك تسألين عمـا يتحدث عنه الناس فى الطرقات ... فكثير من العامة يعلم الآن أن فرعون يرغب فى أن يضم كثيرا من أملاك المعابد الى أملاك التاج ، وأن يسترد المنح الواسعة التى أسبغها آباؤه وأجداده على رجال الكهنوت .

وقال الشاعر رامون حتب بلهجة لم تخل من عنف :

ــ كان الكهنة دائما موضـع عطف الفراعنـة : يقطعونهم الأراضى ، ويهبونهم الأموال ، حتى صاروا يملكون ثلث الأراضى المنزرعة ، وتغلغل نفوذهم فى الأقاليم ، وبسط على الرقاب ، ولا شك أن هنالك وجوها من المنافع أحق بالمال من المعابد ..

فقال هوف :

ــ يزعم الكهنة أنهم يصرفون ريع الأراضى على أعمال الاحسان

والبر ، ويصرحون دائما بأنهم يتنازلون عن أملاكهم عن طيب خاطر اذا دعت الضرورة الى ذلك .

ـ وما هذه الضرورة ؟

ـ أن تشتبك المملكة فى حرب مثلا تحتاج للانفاق الكثير .

ففكرت الغانية قليلا ، ثم قالت :

ـ لا يجوز على أى حال أن يناهضوا رغبة الملك .

فقال الحاكم آنى :

ـ لقد تورطوا فى خطأ بالغ . وفوق ذلك فهم يبثون دعاتهم فى الأقاليم ، ويدخلون فى روع الفلاحين أنهـم يدافعون عن أملاك الأرباب المعبودة ..

فتساءلت رادوبيس دهشة :

ـ كيف تؤاتيهم شجاعتهم ؟!

فقال آنى :

ـ البلاد فى سـلام ، والحرس الفرعونى هو القوة المسلحة الوحيدة التى يعتد بها ، والكهنة تؤاتيهم شجاعتهم اذا أيقنوا أن قوة فرعون غير كافية !

فتضايقت رادوبيس وقالت بحنق :

ـ يا لهم من أوغاد !

فابتسم الفيلسوف هوف ، ولم يكن يرضى أن يحبس رأيا فقال :

ـ اذا أردت الحق فالكهنة طائفة مطهرة ، تسهر على دين هذه الأمة وآدابها وتقاليدها الخالدة ، أما الطمع فى السلطان فداء قديم .

فحدجه الشاعر رامون حتب بنظرة تحد ، وكان مغـرما باثارة الزوابع ، وسأله فى اقتضاب :

ـ وخنوم حتب ؟ !

فهز هوف منكبيه استهانة وقال بهدوئه الغريب :

ــ هو كاهن كما ينبغي ، وسياسي نافع ، وليس من ينكر عليه قوة الارادة ، ونفاذ البصيرة .

وتململ الحاكم آني ، وهز راسه بشيء من العنف ، وقال :

ــ لم يثبت الى الآن اخلاصه للعرش !

فقالت رادوبيس بحدة :

ــ بل أعلن غير ذلك !

ولم يكن الفيلسوف يوافقهما ، فقال :

ــ أنا أعرف خنوم حتب جيدا ، وهو بلا شك مخلص لمولاه ولوطنه .

فقال آني بغرابة :

ــ لم يبق الا أن تصرح بأن فرعون مخطيء ..

ــ كلا ... ان فرعون شاب سامي الآمال . يرغب في أن يكسو بلاده حلة من البهاء ، ولن يتأتى ذلك الا بالاستعانة بجانب من موارد الكهنة .

فتساءل رامون حتب في حيرة شديدة :

ــ فمن المخطيء اذا ؟ !

فقال هوف :

ــ عسى أن يختلف اثنان وكلاهما على حق !

ولكن رادوبيس لم ترتح الى تفسير الفيلسوف ، ولم ترض عن الموازنة التي يجريها بين فرعون ووزيره ، كأنهما ندان . وكانت تؤمن بحقيقة ثابتة ، وهي أن فرعون سيد البلاد دون منازع ، وأنه لا تجوز مخالفته بأي حال ولأي سبب ، ونفر قلبها من كل رأي يخالف عقيدتها هذه ، وصرحت برأيها لأصحابها وختمت كلامها بقولها :

ــ اني أعجب متى آمنت بهذا الرأي ؟ !

فقال رامون حتب مداعبا :

ـ حين وقعت عيناك على فرعون لأول مرة .. لا تفرطى فى العجب فالجمال مقنع كالحق سواء بسواء .

وضاق صدر المثال هنفر فصاح بصوت مسموع :

ـ أدرن الكئوس أيتهـا الجوارى .. وهلمى أيتها الغانية رادوبيس أسمعينا لحنا شجيا ، أو متعى أعيننا بحركة من الرقص الرشـيق ، فان نفوسنا التى أسكرتها خمر مربوط ، وهيأها العيد للفرح والمسرة ، لتتوق الى نشوة الطرب ولذعة المجون .

فضربت عنه صفحا ، وأرادت أن تسترسل فى حديثها ، ولكن لاحت منها التفاتة الى التاجر عانن ، فرأته كالنائم ، وكان منفردا بعيدا عن الجماعات فتذكرت أنها أطالت المكث فى حلقة آنى ، فانسحبت من بينهم وسارت الى التاجر ، وصرخت فى وجهه : « أصح » فانتبه الرجل فزعا ، ولكن سرعان ما أشرق وجهـه لرؤيتها ، فجلست الى جانبه وسألته :

ـ أكنت نائما ؟

ـ بل كنت أحلم .

ـ آه ... فيمه ؟

ـ فى ليالى بيجة السعيدة ، وكنت أسائل نفسى حيران ترى هل أفوز اليوم باحـدى هاتيك الليالى الخالدات ؟ ! أيمكن أن أظفر الآن بمجرد وعد !

فهزت رأسها أن لا ، فجزع . وسألها بخوف واشفاق :

ـ لمه ؟

ـ قد تطلبك نفسى ، وقد تطلب غيرك ، فلم أقيـدها بوعد خائن ؟ !

وتركته الى جماعة أخرى كانت منهمكة فى الحديث والشراب ، فرحبوا بها فيما يشبه الصياح ، وأحاطوا بها من كل جانب ، وقال واحد منهم يدعى شامة :

ــ ألا تشتركين معنا فى الحديث ؟

ــ وفيم تتحدثون ؟

ــ يتساءل بعضنا عما اذا كان الفنانون أهلا للتكريم الذى يحبوهم به الفراعنة والوزراء .

ــ وهل أجمعتم على رأى ؟

ــ نعم يا مولاتى .. على أنهم لا يستحقون شيئا .

وكان شامة يتكلم بصوت مرتفع لا يبالى شيئا ، فنظرت رادوبيس الى حيث يجلس الفناون : رامون حتب ، وهنفر ، وهنى ، وضحكت ضحكة ساخرة ذات جرس فاتن ساحر ، وقالت بصوت يبلغ آذان الفنانين :

ــ ينبغى أن يكون هذا الحديث عاما . ألا تسمعون أيها السادة ما يقال عنكم .. يقال هنا أن الفن عرض تافه ، وأن الفنانين غير أهل للتكريم .. فما رأيكم ؟ !

وعلت فم الفيلسوف الشيخ ابتسامة ساخرة ، أما الفنانون فقد نظروا الى الجماعة التى تستهين بهم نظرة متعالية ، وابتسم هنفر ابتسامة هزء ، أما رامون حتب فأصفر وجهه غضبا ، لأنه كان شديد التأثر ، وكان شامة معجبا بما يقول لأصحابه فأعاد قوله بصوت عال قائلا :

ــ انى رجل عمل وجد ، أضرب الأرض بيد من حديد ، فتذل وتبذل لى خيراتها من الأنعم السابغة ، فأفيد ويفيد معى الآف من المحتاجين ، كل هذا دون حاجة الى قول موزون أو لون براق ...

وأدلى كل من الرجال بدلوه ، اما للتنفيس عن حقد طال حفظه ، أو لمجرد الثرثرة والاعلان عن النفس ، فقال أحد الكبار يدعى رام :

ــ من الذى يحكم ويسوس الناس ؟ ... من الذى يفتح البلدان ويغزو المعاقل ؟ .. من الذى يجلب الثروة والخيرات ؟ .. أناس غير الفنانين بلا ريب ...

وقال عانن وكان سريع التلبية للخمر :

ـ ان الرجال يهيمون بحب النساء ، ويهذون بذكرهن فى خلواتهن ، أما الشعراء فيبسطون هذيانهم فى كلام موزون ، والى هنا لايجد العاقل ما يؤاخذهم عليه الا أنهم يضيعون وقتهم فيما لا طائل تحته ، ولكن السخافة والحماقة أن يطلبوا لهذيانهم ثمنا من المجد والخلود .

وقال شامة مرة أخرى :

ـ ويكذب آخرون كذبا طويلا منظما ، ويهيمون فى وديان بعيدة ويستوحون الأشباح والأوهام ، يزعمون أنهم رسل وحى كريم ... والأطفال تكذب كذبهم ، وكثير من العامة ، ولكنهم لا يزعمون شيئا .

فضحكت رادوبيس طويلا ، وانتقلت من مجلسها الى قريب من هنفر ، وقالت هازئة :

ـ ويحك أيها الرجل ... لماذا اذا تسير مختالا فخورا كأنك بلغت الجبال طولا ؟

فابتسم المثال ابتسامة صفراء ، ولكنه لازم الصمت كصاحبيه تعاليا منهم عن الرد على « المتهجمين بغير علم » ، وان انطوى كل منهم على غضب شديد . وكرهت رادوبيس أن تنتهى المعركة عند ذاك . فالتفتت الى الفيلسوف هوف ، ووجهت اليه هذا السؤال :

ـ وما رأيك أنت أيها الفيلسوف فى الفن والفنانين ؟

ـ الفن لهو ولعب ، والفنانون لاعبون مهرة .

ولم يستطع الفنانون أن يخفوا غضبهم . فلم يملك الحاكم آنى نفسه من الضحك . وتصايح التجار والملاك فرحين .

وصاح رامون حتب بغضب :

ـ أتريد أيها الفيلسوف أن تكون الحياة جداً خالصاً ؟

فهز الشيخ رأسه فى هدوء ، وقال والابتسامة لا تفارق

شفتيه :

ـ كلا ، ما الى هذا قصدت . فاللعب ضرورة . ولكن ينبغى ان تذكر أنه لعب .

فسأله هنفر بتحد :

ـ هل الابداع الملهم لعب ؟

فقال الفيلسوف باستهانة :

ـ أنت تسميه الالهام والابداع ، أما أنا فأعلم أنه لعب الخيال.

ونظرت رادوبيس الى المعمار هنى تحثه على خوض المعركة ، وتحاول أن تخرجه عن صمته الطبيعى . ولكن الرجل لم يلب اغراءها ، لا استهانة منه بالموضوع الذى يثير النقاش . ولكن اعتقاداً منه ـ ان حقا كان أو وهما ـ أن هوف لا يعنى ما يقول وأنه يداعب هنفر ورامون حتب ـ على الأخص ـ بأسلوبه القاسى . أما الشاعر فاشتد به الغضب ، ونسى أنه فى قصر بيجة ،وسأل الفيلسوف بلهجة حاقدة :

ـ اذا كان الفن لعب خيال . فلماذا يكلف أهله ما لا طاقة لهم به ؟

ـ لأنه يتقاضاهم اغفال ما تعودوا عليه من الفكر والمنطق ، واللياذ بعالم الطفولة والخيال !

فهز الشاعر كتفيه استهانة ، وقال : ان هذا كلام لا يستحق الرد عليه .

وأمن على قوله هنفر . وابتسم هنى موافقا ، ولكن رامون حتب لم يستطع صبرا ، ولم يطق غضبه السكوت . فجال بناظريه فى الوجوه الساخرة ، وقال بحدة :

ـ أليس يخلق الفن لكم لذة وجمالا ؟

فقال له عانن . وهو لا يكاد يدرى ما يقول لأن الخمر كانت لعبت برأسه :

ـ ما أتفه هذا .

فاحتد الشاعر ، وترك زهرة اللوتس تقع من يده وقال فى عنف :

ـ ما بال هؤلاء الناس لا يفقهون لما يقولون معنى ! أيجوز أن أذكر اللذة والجمال ، فيقال لى انها شىء تافه ...

ـ وهل توجد غاية فى الدنيا وراء الجمال واللذة ؟!

وطرب هنفر لقول رفيقه ، وأخـذته نشوة حماس ، فمال برأسه ناحية أذن الغانية ، وقال :

ـ صدق وحق جمالك يا رادوبيس . ان الحياة تمضى كحلم سريع الزوال ؛ فأنا أذكر مثلا أنى حزنت لموت أبى حزنا بالغا وبكيته مر البكاء ، ولكنى الآن اذا عاودتنى ذكراه أسائل نفسى : أحقا عاش ذلك الانسان على الأرض ؟ أم أنه وهم خادع يتراءى لى فى غبش الظلام ؟! ... هكذا الحياة .. فماذا أفاد الأقوياء بما أحدثوا فيها من قوة ؟ وماذا نال العاملون مما أنتجوا من مال وثراء ؟ وماذا اكتسب الحاكمون بما حكموا . وما ساسوا ؟! هباء فى هباء ... قد تكون القوة حماقة ، والحكمة خطأ ، والثروة غرورا . أما اللذة فهى لذة ، ولا يمكن أن تكون غير ذلك . فكل ما خلا الجمال باطل !

فبدا الجد على وجه رادوبيس الفاتن ، وقالت له وقد لاحت فى عينيها الأحلام :

ـ ومن يدريك يا هنفر ، فلعل الجمال واللذة من الأباطيل أيضا ؟. ألا ترانى أمضى العمر فى دعة وانتهاب لذة ، وتملى الحسن والجمال ؟.. ومع هذا فكم يطاردنى الملل والسقم !..

ووجدت رادوبيس أن رامون حتب فى حالة سيئة . وطالعت الاستياء فى وجه هنفر ، وصمت هنى ، فأشفقت من ايلامهم ، وغدت نفسها مسئولة عما أصابهم ، فقالت تغير مجرى الحديث :

ـ حسبكم أيها السادة .. فمهما قلتم فلن تنفكوا تطلبون الفن والفنانين . كم تحبون يا هؤلاء الخصام . انكم لتجعلون السعادة نفسها موضوعا للجدل والخصام ! ..

ضاق الحاكم آني بالحديث ذرعا ، فقال لها بتوسل :
ــ اطردى الخصام بلحن من أغانيك السعيدة .
وكان الجميع يتوقون للسماع والطرب ، فضموا توسلاتهم الى توسل الحاكم ، ووافقت رادوبيس ، وكانت شبعت من الكلام ، واستولى عليها قلق غريب تردد عليها مرات فى يومها ، وظنت أن الغناء أو الرقص يزيله ، فقامت الى عرشها وأمرت بالعازفات فجئن بالدفوف والمزمار والقيثارة والناى والونج والصفارة ووقفن وراءها صفا .

ثم أشارت بيدها العاجية ، فأخذن جميعا فى التوقيع الجميل والنقر الرشيق ، يهيئن لصوتها الرخيم جواً فاتناً من الموسيقى والطرب . ثم مضت تخفت أنغام آلاتهن حتى صارت كهمس العاشقين الذاهلين ، وأنشأت رادوبس تغنى قصيدة رامون حتب :

يا من تسمعون الى وعظ الحكماء ، أعيرونى آذانكم
لقد شهدت الدنيا منذ الأزل زوال أسلافكم
الذين عبروا ساحتها عبور الخواطر فى رأس الحالم
وقد شبعت ضحكا من وعدهم ووعيدهم ، فأين
الفراعنة ، أين الساسة ، أين الغزاة ، هل حقا القبر
عتبة الخلود ، ولكن لم يأت من القبر رسول يطمئن
قلوبنا ؟ فلا يفوتكم طرب ، ولا تفوتكم لذة .
لصوت الساقى أبلغ حكمة من صراخ الواعظ .

أنشدت الغانية اللحن بصوت الهى حنون ، أطلق الأرواح من قيود الأجسام ، فهامت فى سماوات الجمال والسعادة ، وذهلت عن متاعب الأرض وهموم الدنيا ، وشاركت فى التجلى الأعلى ، وظل القوم بعد امساكها نشاوى يتنهدون فرحا وحزنا ولذة وألما ...

وطرد الحب من صدورهم كل عاطفة الاه ، فاستبقوا الى الشراب ، وهدفوا بأعينهم الى الغانية تنتقل بين الجالسين ،

وتداعبهم ، وتماجنهم ، وتشاربهم ، ولما دنت من آني همس في أذنها :

ـ أسعدتك الأرباب يا رادوبيس ... جئتك شبحا مثقلا بالتبعات واخال نفسي الآن طيراً يحلق في السماء .

فابتسمت اليه وانتقلت الى جانب رامون حتب ، وأهدته زهرة لوتس عوضا عما فقد ، فقال لها :

ـ يقول هذا الشيخ ان الفن لعب خيال ، ألا سحقاً لرأيه .. انه ومضة الهية تشع من عينيك ، وتدور مع وجيب قلبي ، ثم تأتي بالأعاجيب ..

فقالت له ضاحكة :

ـ أيخرج مني شيء يأتي بالأعاجيب ، وأنا أعجز من الرضيع ؟

ثم هرعت الى حيث يجلس هوف ، وجلست الى جانبه ، ولم يكن ذاق خمراً ، فحدجته بنظرة فاتنة ، فضحك الرجل ، وقال متهكما :

ـ يا سوء ما اخترت جليسا .

ـ ألا تحبني كهؤلاء ؟

ـ ليتني أستطيع .. ولكني أجد فيك ما يجده المقرور في المدفأة .

ـ اذاً انصحني ماذا أصنع بحياتي لأني اليوم أشكو ؟

ـ أتشكين حقا ... أنعيم وثراء وشكوى ؟

ـ كيف غاب عنك هذا أيها الحكيم ؟

ـ الجميع يشكو يارادوبيس . طالما استمعت الى شكاة الفقراء والبائسين الذين يتلهفون على كسرة خبز ، وطالما استمعت الى شكاة السادة وهم يئنون تحت عبء التبعات الجسام ، وطالما استمعت الى شكاة الأغنياء السادرين وقد برموا بالدعة والسعادة فالجميع يشكو ، وما من فائدة ترجى من التغيير ، فاقنعي بما قسم لك .

ـ وهل يشكو الناس فى عالم أوزوريس ؟
فابتسم الشيخ وقال :
ـ آه .. انه صاحبك رامون حتب يهزأ بهذا العالم الخطير ، أما الكهنة العالمون فيقولون انه عالم الأبدية ، فصبرا أيتها الحسناء ، انك ما زلت قليلة التجارب .
فعاودتها موجة المجون والسخرية ، وأرادت أن تداعب الفيلسوف ، فقالت بلهجة جدية متصنعة :
ـ أحقا انى قليلة التجارب .. انك لم تر مما رأيت شيئا ؟
ـ وماذا رأيت مما لم أر ؟
فأشارت ببنانها الى القوم اللاهين وقالت ضاحكة :
ـ رأيت هؤلاء الرجال المبرزين ، وصفوة مصر سيدة الدنيا ، يسجدون عند قدمى ، وقد ردوا الى الوحشية ، ونسوا حكمتهم ووقارهم ، كأنهم كلاب أو كأنهم قرَدَة !
ثم ضحكت ضحكة رقيقة ، وجرت فى خفة الغزلان الى وسط البهو . وأشارت الى العازفات فلعبت أناملهن بالأوتار ، ورقصت الغانية رقصة من رقصاتها المختارة التى يبدع فيها جسمها اللدن ، ويأتى بالمعجز من الخفة والتثنى ، وغلب الطرب القوم على أنفسهم ، فاشتركوا بأكفهم مع الدفوف ، واتقدت فى الأعين أنوار خاطفة . وختمت رقصتها ، ثم طارت كالحمامة الى عرشها ، وجالت بعينيها فى أوجه القوم الجشعة ، فرأت ما أضحكها قهرا ، وقالت :
ـ لكأنى شاة بين الذئاب .
وأعجب عانن الثمل بالتشبيه ، وتمنى لو كان ذئبا ليقتنص الشاة الجميلة . وحققت له الخمر ما تمنى ، وظن نفسه ذئبا حقا ، فعوى بصوت عال ضج له السادة ضحكا ، ولكنه ثابر على العواء ، وانكب على أربع وزحف صوب الغانية بين ضحك القوم العاصف ، حتى صار منها على قيد شبر ، ثم قال لها :
ـ اجعلى هذه الليلة من نصيبى ..

ولكنها لم ترد عليه . والتفتت الى الحاكم آنى ، وقد جاء يحييها تحية الوداع ، فأعطته يدها ، ثم تلاه الفيلسوف هوف ، وقد سألته ضاحكة :

ــ الا ترغب فى أن أجعل هذه الليلة من نصيبك ؟

فهز رأسه ضاحكا وقال :

ــ أيسر على أن أسخر مع الأسرى فى مناجم قفط ! .

ورجا كل أن تكون الليلة له ، وألحف فى الرجاء ، وتنافسوا فى ذلك تنافسا شديدا حتى حرج الأمر . وانبرى هنفر لايجاد حل له فقال :

ــ ليكتب كل منكم اسمه فى ورقة ، ولنضع الأسماء جميعا فى صندوق عانن العاجى ، ثم تمد رادوبيس يدها فتأخذ اسم السعيد الحظ . .

واضطر الجميع الى الموافقة وبادروا الى كتابة أسمائهم ، الا عانن خشى أن تفلت الليلة من بين يديه فقال بتضرع :

ــ مولاتى . . أنا رجل سفر ، اليوم بين يديك ، وغدا فى بلد بعيد لا أبلغه الا بشق الأنفس . وان فاتتنى الليلة فقد أخسرها الى الأبد . .

ولكن أثار دفاعه ثائرة القوم ، وردوا عليه هازئين . وكانت رادوبيس صامتة ، تشاهد عشاقها بعينين جامدتين ، وقد عاودها القلق الغريب ، فأحست برغبة فى الفرار والانفراد . وضجرت من الصراخ ، فأشارت لهم بيدها فكفوا وهم بين الأمل والخوف ، فقالت :

ــ لا تتعبوا أنفسكم أيها السادة . فلن أكون الليلة لانسان !

وجمدت أفواههم ونظروا اليها منكرين ، لايصدقون آذانهم . ثم لم يلبثوا أن ضجوا بالاحتجاج ، وجأروا بالشكوى . فوجدت الا فائدة ترجى من توجيه الكلام اليهم ، فقامت واقفة ، وقد بدا على وجهها التصميم والعزم وقالت :

ــ انى تعبة .. دعونى أستريح ! ..

ولوحت لهم بيدها البضة وولتهم ظهرها ، وغادرت المكان على عجل ..

وصعدت الى مخدتها مسرورة لما فعلت ، سعيدة بخلاصها تلك الليلة ، وما تزال تطن بأذنيها تأوهات القوم الحارة ... وشخصت الى النافذة رأسا وأزاحت عنها الستارة ، ونظرت الى الطريق المظلم ، فرأت على البعد أشباح عجلات وهوادج تحمل النشاوى البائين بالحسرة والخذلان ، فلذ لها منظرهم وارتسمت على شفتيها ابتسامة ساخرة قاسية .

كيف فعلت ما فعلت ؟.. لا تدرى ! ولكنها تشعر باضطراب وقلق ...

واها .. ماذا وراء هذه الحياة الراتبة ؟. لقد حارها الجواب، ولم يرو غلتها الحكيم هوف نفسه . ثم استلقت على سريرها الوثير ، واستسلمت للأحلام ، فمرت بصفحة خيالها حوادث اليوم العجيبة واحدة فى أثر الأخرى : فرأت جموع المصريين المحتشدة .. ورأت عينى الساحرة المتقدتين اللتين جذبتاها اليها بقوة قاهرة ، وسمعت صوتها البشع الذى يبعث الرعشة فى المفاصل .. ثم شاهدت فرعون الشاب فى هالة المجد والجمال، ثم ذلك النسر الهصور الذى انقض على فردة صندلها وطار بها الى السماء . حقا كان يوما حافلا . ولعل هذا أيقظ عواطفها ، وشرد خيالها ، ووزع نفسها أشتاتا ، مما ذهب ضحية له العشاق البائسون . ان قلبها يخفق خفقانا شديدا ، ونفسها تضطرم بلهيب غامض ، وخيالها يتيه بها فى وديان غريبة . وكأنها تود أن تنتقل من حال الى حال ، ولكن أى حال هذه ؟! انها حيرى لاتدرى شيئا ، فهل يكون ما بها نفثة سحر أصابتها بها تلك الساحرة الملعونة ؟ !

ان ما بها لسحرا مبينا ، فان لم يكن سحر ساحر ، فهو سحر الأقدار المسيطرة على المصائر .

طـــاهو

كانت قلقة مبلبلة موزعة النفس ، فيئست من النوم ، وغادرت السرير مرة أخرى ، ودلفت الى نافـذة تطل على الحـديقة ، وفتحتها على مصراعيها ووقفت وراءها كالتمثال . ثم حلت عقدة شعرها ، فانساب فى خصلات مرتعشة على عنقها ومنكبيها ، ولفح جلبابها الأبيض بسواد عميق . وملأت رئتيها بهواء الليل الرطب ، تم وضعت مرفقيها على حافة النافذة ، وأسـندت ذقنها الى كفيها . وتاهت عيناها فى الفضاء الشامل للحديقة . والنيل الجارى وراءها . كانت ليلة ظلماء معتدلة الجو ، يهب نسيمها متقطعا خفيفا ضـعيفا فيراقص الغصـون والأوراق رقصا رحيما رقيقا . وكان النيـل يرى عن بعـد كقطعة من الظلماء . أما السماء فمزدانة بالنجوم اللوامع ، ترسل شعاعا باهتا ما ان يقترب من الأرض حتى يغرق فى بحار الظلمة .

هل يستطيع الليل المظلم والسكون المطبق أن يلقيا على رأسها القلق ظلا من السكينة والطمأنينة ؟. هيهات .. وبلغ بها اليأس من الطمأنينة منتهـاه ، فأتت بوسادة ووضـعتها على حافة النافذة ، وأسلمت اليها خدها الأيمن ، وأغمضت عينيها .

وطرقت ذاكرتها بغتة عبارة الفيلسوف هوف : « فالجميع يشكو . وما من فائدة ترجى من التغيير ، فاقنعى بمـا قسم لك » . وتنهدت من أعماق قلبها ، وتساءلت فى حزن .. أما من فائدة ترجى من التغيير حقـا ؟.. أحقا ان الشـكوى تلاحق الانسان أبدا ؟.. ولكن كيف تستطيع أن تؤمن بهـذا آيمانا صادقا يصرف قلبهـا عن طلب التغيير ؟ ان ما بقلبهـا ثورة

جامحـــة ، تود لو تدمر بها حاضرها وماضيها ، و تفر خالصة الى آفاق غامضة مجهولة . فكيف تجد الراحة والقناعة ؟ انها تحلم بحالة تبطل فيها الشكوى ، ولكنها جزعة برمة بكل شيء .

ولم تترك لأفكارها وأحـــلامها ، اذ سمعت طرقا خفيفا على باب مخـــدعها ، فأرهفت أذنيها دهشـــة ، ونادت قائلة وهى ترفع رأسها :

ـ من ؟

فأجاب صوت تعرفه حق المعرفة :

ـ أنا يا مولاتى ... أتسمحين لى بالدخول ؟

فقالت :

ـ تعالى يا شيث ..

ودخلت الجارية على أطراف أصابعها . ودهشت لوقوف سيدتها . وأن سريرها لم يمس . وعاجلتها الغانية قائلة :

ـ ماذا وراءك يا شيث ؟

ـ ورائى رجل ينتظر الاذن بالدخول .

فقطبت جبينها ، وقالت بصوت ينطوى على الغضب :

ـ أى رجل ! .. اطرديه دون تردد ..

ـ كيف يا مولاتى .. انه رجل لا يغلق دونه باب فى هـــذا القصر .

ـ طاهو !

ـ هو بعينه .

ـ وما الذى جاء به فى هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟

فلاحت فى عينى الجارية نظرة ما كرة ، وقالت :

ـ هذا ما سوف تعلمينه بعد حين يا مولاتى .

فأشارت لها بيدها أن تدعوه ، وغابت الجارية ، لحظات ، ثم لم يلبث أن ملأ فراغ الباب جسم القائد ذو الطول والعرض .

وحياها بانحناءة من رأسـه ووقف أمامها ينظر الى وجههـا بارتباك . ولم يخف عليهـا شحوب لونه ، وتجعـد جبينه ، وظلمة عينيه ، فأنكرته ، وسارت الى الديوان ، وجلست عليه وسألته :

ـ أراك متعباً ... هل أجهدك العمل ؟

فهز رأسه بالنفى ، وقال باقتضاب :

ـ كلا .

ـ لست كعهدى بك .

ـ حقاً !

ـ لا شك أنك تعلم هذا ... ماذا بك ؟

هو يعلم كل شيء بلا ريب ، وستعلمه بعد حين سواء أداه اليها بنفسه أم لم يؤده . وهو يشفق من الاقدام على الكلام لأنه يغامر بسعادته ، ويخشى أن تفلت من يده الى الأبد . ولو أنه كان يستطيع أن يتسلط على ارادتها لهان كل شيء ، ولكنه يكاد أن ييأس من هذا ، فاستولى عليه ألم ممض وقال لها :

ـ آه يا رادوبيس ؛ لو كنت تبادلينني الحب لأمكن أن أتوسل اليك باسم حبنا .

ترى ما حاجته الى التوسل ؟ ... عهدها به رجلا عنيفاً يكره التوسل والرجاء . وطالما قنع بفتنة جسمها ، فما الذىأفزعه !؟.

وخفضت عينيها وقالت :

ـ هذا حديث قديم معاد .

فأغضبه قولها على صدقه ، واحتد قائلا :

ـ أعلم ذلك .. ولكنى أعيده لدواع حاضرة .. آه .. لكأن قلبك غار أجوف فى قاع نهر بارد ..

كانت ألفت أمثال هذا المقال ؛ ولكنها قالت متململة :

ـ هل منعتك شيئاً تشتهيه ؟

ـ كلا يا رادوبيس . لقد وهبتنى جسمك الفاتن الذى خلق

عذاباً للبشر . ولكن طالمـا طمعت فى قلبـك . يا له من قلب يا رادوبيس ... انه يقف وسط زوابع الشهوات جامداً كأنه ليس منك . ولطالما ساءلت نفسى متحيراً مغيظا ، ماذا يعيبنى؟.. ألست رجلا بل أنا رجولة كاملة . والحقيقة أنك بدون قلب ..

وازداد انكارها له . ليست هذه المرة الأولى التى تسمع فيها هذا الكلام ؛ ولكنه كان يقوله ساخراً أو غاضباً غضباً خفيفا . أما فى هذه الساعة المتاخرة من الليل ، فانه يتكلم بصوت متهدج ويتميز غيظاً وحنقاً . فما الذى أهاجه ؟ وكأنها أرادت أن تستحثه فسألته :

ـ أجئت فى هذه الساعة من الليل يا طاهو لتعيد على أذنى هذا الحديث ؟

ـ كلا لم أجىء من أجل هذا الحديث ... ولكننى جئت من أجل أمر خطير ... ان لم يسعفنى الحب فيه ، فلتسعفنى حريتك التى تحرصين عليها .

فنظرت اليه فى اهتمام شديد ، وانتظرت أن يتكلم ، وبلغ به الضيق أشده ، فعزم على أن يخلص الى غرضه بلا لف ولا دوران ، فقال لها بهدوء وحزم وهو يصوب عينيه الى عينيها :

ـ ينبغى أن تهجرى قصر بيجة ، وأن تفرى من الجزيرة فراراً فى أقرب وقت .. قبل أن ينبلج الصباح .

فارتاعت المرأة لقوله ، ونظرت اليه بعينين لا تصدقانه وسألته :

ـ ما هذا الذى تقوله يا طاهو ؟

ـ أقول أنه ينبغي أن تختفى .. أو تفقدى حريتك .

ـ وماذا يهدد حريتى فى بيجة ؟

فأصر على أسنانه ، وسألها بدوره :

ـ ألم تفقدى شيئاً ثميناً ؟

فقالت داهشة :

ـ بلى . فقدت فردة صندلى الذهبى الذى أهديتنيه .
ـ كيف ؟
ـ خطفه النسر وأنا أستحم فى بركة الحديقة .. ولكنى لا أدرى أى علاقة توجد بين حريتى المهددة وصندلى المفقود ؟
ـ مهلا يا رادوبيس .. لقد خطفه النسر حقا ، ولكن ألا تدرين أين سقط ؟
وجدته يتكلم بلهجة العارف . فاستولى عليها العجب وتمتمت قائلة :
ـ من أين لى بهذا يا طاهو ؟
فتنهد قائلا :
ـ سقط فى حجر فرعون .
وقرعت هذه الكلمة أذنيها فى هالة من دوى هائل ، ملأ حواسها جميعا ، وأذهلها عن كل شىء . فنظرت الى طاهو بعينين حائرتين ، ولم تستطع أن تخرج عن صمتها ، وكان القائد يتفرس وجهها بعينين قلقتين مرتابتين ، ويتساءل : ترى ما وقع الخبر فى نفسها ؟. وما الاحساس الذى يعتلج فى صدرها ؟. وضاق ذرعا ، فسألها بصوت خافت :
ـ ألم أكن محقاً فى طلبى ؟
ولكنها لم ترد عليه ، ولم يبد عليها أنها كانت تصغى اليه . كانت غارقة فى لجج تلتطم فى قلبها الحائر ، فهاله جمودها ، وكبرت عليه حيرتها ، ورأى فى ذلك آية نفر منها قلبه ، فذهب صبره ، واستفزه الغضب ، فغشى بصره ، وصاح بها بصوت أجش شديد :
ـ فى أى واد تتيهين يا هذه ؟ .. ألم يفزعك هذا الخبر الهائل؟
فارتجف جسمها من شدة صوته .. والتهب الغضب بقلبها ، وحدجته بنظرة حقد شديد ، ولكنها كظمت ما بنفسها لتحصل منه على ما يريد . وسألته ببرود :

ـ أترى أنه كذلك ؟

ـ أرى أنك تتغابين يا رادوبيس .

ـ كم أنك ظالم .. هب أن الصندل سقط فى حجر فرعون ، فهل تراه قائلى لذلك ؟

ـ كلا . ولكنه قلب الصندل بين يديه ، وتساءل عمن عسى أن تكون صاحبته ؟

فخفق قلب الغانية بشدة وسألته :

ـ وهل وجد الجواب ؟

فأظلمت عيناه ، وقال بصوت متهدج :

ـ كان هناك انسان يتربص بى ، جعلته الأقدار صديقاً عدواً وعدواً صديقاً ، فانتهز الفرصة السانحة ، وطعننى طعنة نجلاء ، فذكرك عند فرعون ذكراً جميلا مغريا ، قدح الرغبة فى قلبه ، وأهاج الشهوة فى صدره .

ـ سوفخاتب ؟!

ـ هو بعينه ذاك الصديق العدو . وقد عبث الاغراء بقلب الملك الشاب .

ـ وماذا يريد ؟

فعقد طاهو ذراعيه على صدره ، وقال بشدة :

ـ ليس فرعون بالانسان الذى يرغب فى شيء ، ويعز عليه ، وهو اذا هوى شيئا يعرف كيف يستأثر به .

وساد الصمت مرة أخرى ، ووقعت المرأة فريسة عواطف مضطرمة . وجثم الكابوس على صدر الرجل ، واشتد به الحنق لصمتها ، ولأنها لم تفزع ولم ترتعب ، فقال لها بغيظ :

ـ ألا ترين أن حريتك مهددة بالأسر ؟ حريتك يا رادوبيس التى تحرصين عليها ، ولا تفرطين فيها . حريتك التى دمرت قلوبا

وأهلكت نفوساً ، وجعلت اللوعة والحسرة واليأس أوبئة تفتك بأهل بيجة جميعاً . لماذا لا تفزعين الى الفرار بها ؟

واستاءت لوصفه هذا لحريتها ، وقالت له بسخط :

ـ أتقذفني بهذا الوصف الذى تقشعر منه الأبدان ، وكل ذنبي أني لم أستبح نفسي للرياء ، وأقول لانسان كذبا اني أحبه ؟

ـ ولماذا لا تحبين يا رادوبيس ؟ لقد أحب طاهو الجندى الجبار الذى خاض غمار الحرب فى الجنوب والشمال ، وتربى على ظهور العجلات . فلماذا لا تحبين أنت .. ؟!

فابتسمت ابتسامة غامضة . وتساءلت :

ـ ترى هل أملك جواباً على سؤالك ؟

ـ لست أبالى هذا الآن ، فما لهذا جئت .. أسألك ماذا أنت فاعلة ؟

فقالت بهدوء ، واستسلام عجيب :

ـ لست أدرى .

فاضطرمت عيناه كجمرتين ، والتهمتاها بحنق ، وأحس برغبة جنونية فى تحطيم رأسها . وحدث أن نظرت اليه فتنفس تنفساً عميقاً ، وقال :

ـ حسبتك أشد حماساً لحرينك .

ـ وما عسى أن أفعل ؟

فضرب يداً بيد ، وقال :

ـ تفرين يا رادوبيس ! تفرين قبل أن تحملى الى قصر الحاكم جارية من الجوارى ، وتودعين حجرة من حجراته التى لا عداد لها. لم تعيشين هنالك فى وحدة وعبودية ، تنتظرين نوبتك مرة كل عام . تعيشين ما بقى من حياتك فى جنة حزينة يطوف بها سجن كئيب .. هل خلقت رادوبيس لمثل هذه الحياة ؟!

وثارت ثائرتها غضباً لكرامتها وكبريائها . ترى من الممكن أن يكون حظها ونصيبها مثل هذه الحياة البائسة ؟

ايقدر لها فى النهاية ــ هى التى يستبق الى رضاها صفوة الرجال ــ أن تقاسم الجوارى قلب فرعون الشاب ، وأن تقنع من الدنيا بحجرة فى الحريم الفرعونى ؟ أتهوى الى الظلمات بعد النور ، وتتلفع بالهوان بعد العزة ، وتقنع بالعبودية بعد السيادة الجبارة الكاملة ؟.. أواه .. ما أبشع التصور وأغرب الخيال .. ولكن هل تفر كما يريد طاهو ؟.. أترضى بالفرار ؟. رادوبيس المعبودة التى لم يحظ بحسنها وجه ، ولم يشحن بسحرها جسم ، تفر من العبودية ؟.. فمن اذاً التى تطمع فى السيادة والتفوق والاستئثار بالقلوب ؟!.

ودنا منها خطوة ، وقال لها بتوسل :

ــ رادوبيس .. ماذا تقولين ؟

فعاودها الغضب ، وقالت بسخرية :

ــ ألا يسوءك أيها القائد أن تغرينى بالهرب من وجه مولاك ؟

وأصابته سخريتها فى صميم قلبه ، فترنح من هول الصدمة ، وقال بسرعة ، وقد أحس بمرارة فى فمه :

ــ لم يرك مولاى بعد يا رادوبيس . أما أنا فمسلوب القلب منذ أمد بعيد . أنا أسير لهوى جامح لايعرف الرحمة ، يوردنى موارد الهلاك . ويطؤنى بقدم الذل والعذاب . ان صدرى أتون من عذاب ملتهب ، وقد اشتد لهيبه اندلاعا حين أشفق من فقدك الى الأبد . فأنا ان أغريتك بالهرب أدافع عن حبى ، ولا أخون مولاى المعبود قط .

لم تلق بالا الى شكواه ، ولا الى دفاعه عن اخلاصه لمولاه ، كانت ما تزال تثور لكبريائها ، ولذلك حين سألها الرجل عما تنوى عمله ، هزت رأسها بعنف كأنما تريد أن تنفض عنها الوساوس الحقيرة ، وقالت بصوت بارد ملىء بالثقة :

ــ لن أفر يا طاهو .

وسهم الرجل فى ذهول ويأس ، وسألها :

ـ هل رضيت بالهوان وأسلمت للذل ؟

فقالت . وعلى فمها ابتسامة :

ـ لن تذوق رادوبيس الذل أبداً .

فاستشاط غضباً ، وقال :

ـ آه لقد فهمت . تحرك شيطانك القديم ، شيطان الغرور والكبر والقوة ، ذلك الشيطان يحتمى ببرودة قلبك الأبدية ، ويلتذ بمشاهدة عذاب الآخرين والتحكم فى المصائر ، لقد لاح له اسم فرعون فتمرد ، وأراد أن يجرب قوته وسطوته ، ويمتحن سلطان هذا الجمال اللعين ، غير عابىء بما يدوس فى سبيله الشيطانى من أشلاء القلوب ، وذوب النفوس ، وأنقاض الآمال ... آه ... لماذا لا أقضى على هذا الشر بطعنة من هذا الخنجر ؟

فنظرت اليه بعين مطمئنة ، وقالت :

ـ لم أمنعك شيئا ، وطالما حذرتك من الاغراء !

ـ ان هذا الخنجر كفيل بتهدئة نفسى ... كم تكون نهاية طبيعية لرادوبيس ؟

فقالت بهدوء :

ـ وكم تكون نهاية أسيفة للقائد الوطنى طاهو !

فنظر اليها طويلا بعينين جامدتين ، وكان يشعر فى تلك اللحظة الفاصلة بيأس مميت وقنوط خانق ، ولكن غضبة لم ينفجر ، وقال بلهفة باردة قاسية :

ـ ما أقبحك يا رادوبيس ... انت صورة بشعة مشوهة ، ومن يحسبك جميلة أعمى لا يبصر . ان صورتك قبيحة لأنها صورة ميتة ، ولا جمال بلا حياة ، لم تنبض الحياة بصدرك قط ، ولم تدفىء قلبك أبدا ... أنت جثة وسيمة القسمات ، ولكنها

جثة . لم يبد الحنان فى عينيك ، ولا انفرجت شفتاك عن الم ، ولا خفق قلبك بالعطف . نظرتك جامدة وقلبك قد من حجر .. أنت جثة ملعونة ، وينبغى أن أكرهك ، وأن أكرهك ماحييت ... وأنا أعلم أنك ستطغين كيف شاء لك شيطانك ، ولكنك ستصرعين يوما محطمة النفس ، وهذه نهاية كل شر .. لماذا أقتلك اذاً .. لماذا أحمل تبعة قتل جثة ميتة ؟

نطق طاهو بهذه الكلمات ثم ذهب .

ولبثت رادوبيس تنصت الى وقع قدميه الثقيلتين ، حتى عمرها سكون الليل ...

ثم رجعت الى النافذة . كان الظلام شاملا ، والنجوم ساهرة فى مأدبتها الأبدية . والسكون مخيما رهيبا ، فخالت أنها تستطيع أن تسمع خلجات قلبها الدفينة .

كان مابها قويا عنيفا مفعما بالحرارة والقلق ، يقسم أن جسمها جسم نابض بالحياة ، لا جثة هامدة ...

وافتحت عينيها فرأت ظلمة . ترى أما يزال الليل جاثما ، وكم ساعة استطاعت أن تخلد فيها الى السكينة والنوم ؟ . ولبثت دقائق لا تعى شيئا مطلقا ولا تذكر شيئا ، كأنها جهلت الماضى كما تجهل المستقبل ، وكأنما ابتلعت شخصيتها ظلمة الليل الحالكة . وأحست هنيهة بذهول وضيق ، ثم ألفت عيناها الظلمة فبهتت وخفت وطأتها ، واستطاعت أن ترى ضوءا خفيفا يشع من خصاص النوافذ ، فتبينت أثاث المخدع ، ورأت المصباح المدلى المكفت بالذهب ، وولج الشعور حواسها ، فذكرت انها ظلت يقظة لا يذوق جفنيها نوم حتى غمرها الفجر بموجه الأزرق الهادىء ، وأنها ارتمت عند ذاك على السرير ، فاختلسها النوم من عواطفها وأفكارها ، وعلى ذلك تكون فى نهار اليوم الثانى ، أو فى مسائه .

وذكرت حوادث الليلة الماضية ، وعادت الى مخيلتها صورة طاهو وهو يرغى ويزبد ، ويئن من اليأس ويتوعد بالمقت ، يا له من رجل عنيف ! انه لرجل جبار شديد الغضب ، وحشى الغرام ، ولا عيب فيه الا أن حبه عنيد مثابر ، شديد التغلغل . وتمنت صادقة لو ينساها أو يمقتها ، انها لا تجنى من الحب سوى المشقة . الكل يتلهف على قلبها ، وقلبها زاهد نافر ، كحيوان غير أليف . وكم اضطرت الى خوض مواقف مؤثرة ، ومآسى أليمة ، وهى كارهة . ولكن المآسى كانت تتبعها كظلها ، وتحوم حولها كخواطرها ، فلوثت حياتها بالقسوة والآلام .

ثم ذكرت ما قال طاهو عن فرعون الشاب من أنه يرغب فى

رؤية صاحبة الصندل ، وأنه سيدعوها حتما الى حريمه العامر.
آه .. ان فرعون شاب ملتهب الدماء ، جنونى الشباب ، كما قيل لها ، فليس عجيبا أن يقول طاهو ما قال ، ولا مستحيلا أن تصدق أقواله ، ولكن عسى أن تأخذ الحوادث مجرى جديدا ، ان ثقتها بنفسها لا حد لها ..

وسمعت طرقا على الباب ، فقالت بصوت متكاسل :

ــ شيث .. ادخلى .

وفتحت الجارية الباب ، ودخلت تسير فى خفتها المعهودة وهى تقول :

ــ حمدا للرب الذى يسر لك النوم بعـد طول السهاد .. وارحمتاه لك يا مولاتى ، لا بد أن الجوع نال منك كل منال .

وفتحت النافذة . فانبعث منها نور مكلل بسمرة ، وقالت ضاحكة :

ــ غابت شـمس اليوم دون أن تراك ، فباءت من زيارتها للأرض بالخسران .

وسألتها رادوبيس وهى تتمطى وتتثاءب :

ــ أأتى المساء ؟.

ــ نعم يا مولاتى ، والآن هل تذهبين الى الماء المعطر أم تتناولين الطعـام ؟ .. وا أسـفاه أنا أعلم بما سـهد جفنيك بالأمس !
فسألتها باهتمام :

ــ ما هو يا شيث ؟ .

ــ انك لم تدفئى الفراش برجل .

ــ خسئت ياماكرة .

فقالت الجارية وهى تغمز بعينيها :

ــ الرجال عادة مستبدة يا مولاتى ، ولولا هذا ما احتملت غرورهم .

ـ حسبك ثرثرة يا شيث .

وشكت من ثقل رأسها ، فقالت لها الجارية :

ـ هلمى بنا الى الحمام .. فالعشاق يتقاطرون على بهو الاستقبال ، ويؤلمهم أن يروه خاليا منك ..

ـ هل جاءوا حقا ؟.

ـ وهل خلا بهو استقبالك منهم قط فى هذه الساعة ؟

ـ لن أرى منهم أحدا .

فبهتت شيث ، ونظرت الى سيدتها بارتياب ، وقالت :

ـ خيبت بالأمس آمالهم .. فماذا تقولين اليوم ؟ .. آه . لو تعلمين يا مولاتى كم جزعوا لتأخر حضورك .

ـ آذنيهم بأنى تعبة .

وترددت الجارية ، وهمت بالاعتراض ، ولكنها صاحت بها بعنف :

ـ اصدعى بما أمرت .

فغادرت المرأة المخدع مرتبكة لا تدرى بما غير مولاتها . وارتاحت الغانية لما فعلت ، وقالت ان هذا ليس وقتهم ، فهى لا تستطيع أن تجمع شتيت أفكارها لتصغى الى انسان ، ولا أن تحصر خواطرها فى حديث فضلا عن أن ترقص أو تغنى .. فليذهبوا جميعا .. وخشيت أن تعود شيث بتوسلات القوم ، فقامت من السرير وهرولت الى الحمام ..

وتساءلت فى وحدتها : ترى هل يرسل فرعون فى طلبها هذا المساء ؟. آه أهى لهذا تضطرب وتقلق ؟. أهى تخشى ؟. كلا .. ان هذا الحسن الذى لم تحظ بمثله امرأة من قبل حقيق بأن يملأها ثقة بنفسها لا حد لها ، وانها لكذلك .. ولن يقاوم جمالها انسان ، ولن يذل حسنها مخلوق ، ولو كان فرعون نفسه ، ولكن لماذا اذا هى مضطربة قلقة ! لقد عاودها ذلك

الشعور الغريب الذى تلبسها مساء الأمس ، والذى نبض بقلبها أول ما نبض حين وقع بصرها على الملك الشاب الواقف على ظهر عجلته كالتمثال . يا عجبا .. اتراها حائرة لأنها حيال لغز غامض ! واسم جبار هائل ! ورب معبود ! ؟ . أترى أنها تود لو تراه فى نشوة البشر بعد أن رأته فى جلال الآلهة ؟!. اتراها قلقة لأنها تريد أن تطمئن الى قوتها بازاء هذا الحصن المنيع !.

وطرقت شيث باب الحمام ، وقالت ان السيد عانى أرسل معها كتابا الى مولاتها ، فغضبت الغانية . وقالت بعنف « مزقيه اربا » . وخشيت الجارية أن تثير غضب مولاتها عليها ، فذهبت تتعثر فى الارتباك . وغادرت رادوبيس الحمام الى مخدعها فى أجمل صوة وأكمل هيئة ، وتناولت الطعام وشربت كأسا مترعة من خمر مربوط . ولم تكد تطمئن الى الديوان حتى دخلت عليها شيث مهرولة بلا استئذان ، فتلقتها بنظرة تحذير ووعيد ، وقالت الجارية فى خوف :

ـ فى البهو رجل غريب يلح فى طلب مقابلتك .

فاستولى الغضب على الغانية ، وصاحت بها :

ـ هل أصابك مس من الجنون يا شيث ؟. أتحالفين أولئك القوم المزعجين على ؟!.

فقالت الجارية وهى تلهث :

ـ صبرا يا مولاتى .. لقد دفعت الزوار جميعا ، أما هذا الرجل فغريب لم تره عينى من قبل .. التقيت به بغتة فى الردهة المؤدية الى البهو ، ولا أدرى من أين أتى .. وحاولت أن أعترض سبيله ، ولكنه سار بغير مبالاة ، وأمرنى أن أبلغك رجاءه .

فسهمت الغانية الى الجارية هنيهة ، وسألتها باهتمام :

ـ هل هو من ضباط الحرس الفرعونى ؟

ـ كلا يا سيدتى .. انه لا يرتدى زى الضباط .. وقد سألته

أن يعلن لى عن شخصيته ، فهز منكبيه باستخفاف ، فأكدت له انك لا تقابلين أحدا اليوم .. ولكنه استهان بكلامى ، وأمرنى أن آذنك بانتظاره .. أواه يا مولاتى .. انى أحرص على رضاك ، ولكنى لم أجد وسيلة الى دفع هذا الثقيل الجرىء .

وتساءلت أيكون هو رسول الملك ؟ وخفق قلبها لهذه الفكرة خفقة شديدة ارتج لها صدرها .. وجرت الى المرآة ، وألقت على صورتها نظرة فاحصة ، ثم دارت دورة كاملة على أطراف أصابعها ووجهها ثابت فى المرآة ، وسألت الجارية :

ــ ماذا ترين يا شيث ؟

فقالت الجارية ، وهى تدهش لتبدل حال مولاتها :

ــ أرى رادوبيس يا مولاتى !

وغادرت الغانية المخدع ، تاركة جاريتها فى دهشتها وحيرتها . وانتقلت كالحمامة من حجرة الى حجــرة ، ثم هبطت أدراج السلم المفروشة بفاخر السجاد ، وتريثت قليلا عنــد مدخل البهو .. رأت رجلا يوليها ظهره ، ووجهه الى جدار البهو يطالع شعرا لرامون حتب .. ترى من هو ؟ كان فى مثل طول طاهو ولكنه أميــل الى النحافة والدقة ، عريض المنكبين ، جميــل الساقين ، على ظهره وشاح مرصــع بالجواهر يصــل ما بين منكبيه ومنطقة وزرته ، وعلى رأسه قلنسوة جميلة ذات شكل هرمى لا تشبه قلنسوات الكهنة ، ترى من يكون ؟. انه لايشعر بها لأنها تتقدم بخفة على سجاد غليظ .. ولما صارت منه على قيد خطوات قالت بصوت خافت :

ــ سيدى ..

فالتفت الرجل الغريب اليها .

رباه ! .. وجدت نفسها وجها لوجه أمام فرعون ، فرعون نفسه بعزته وجلاله ، مرنرع الثانى دون غيره من الخلق !

رباه لقد زعزعت المفاجأة كيانها ، فأخذت قهرا ، وغلبت على

أمرها . ترى أهى فى حلم من الأحلام ! ولكنها تعرف حق المعرفة هذا الوجه الأسمر ، والأنف الأشم الطويل . انها لا يمكن أن تنساه أبدا ، لقد رأته مرتين ، فنفذ الى ذاكرتها بقوة ، وحفر صفحتها حفرا عميقا لا يزول . ولكنها لم تحسب حساب هذا اللقاء ، ولا أخذت أهبتها له ، ولم ترسم له خطة من خططها البارعة . وهل كانت رادوبيس تلقى فرعون لقاء ارتجاليا ، وهى التى تعد العدة للقاء تجار النوبة ؟!. أخذت على غرة ، فقهرت قهرا ! ومنيت بالهزيمة الساحقة ، وبادرت تنحنى لأول مرة فى حياتها ، وتقول بصوت متهدج : « مولاى » .

وكانت عيناه ترسلان نظرة عميقة ، فتستقر على وجهها الجميل ، وكان يلاحظ ارتباكها واضطرابها بلذة غريبة ، ويشاهد السحر الذى تنفثه قسماتها بنشوة فاتنة ، فلما حيته قال لها بصوته ذى النبرات الواضحة واللهجة العالية :

ــ اتعرفيننى ؟

فقالت بصوتها العذب الموسيقى :

ــ نعم يا مولاى .. هكذا شاء حظى السعيد أمس .

وكان لا يشبع من النظر الى وجهها . وأخذ يحس بتخدير عام يعتور حواسه وعقله ، فلم يعد يأبه لارادته ، واندفع قائلا :

ــ ان الملوك قوامون على الناس ، يسهرون على أرواحهم ، وعلى أموالهم ، ولهذا جئت اليك لأرد لك أمانة ثمينة .

ولم يبال الملك أن يدس يده تحت وشاحه ، فيخرج فردة الصندل ويقدمها لها وهو يقول :

ــ أليس هذا صندلك ؟

وتبعت عيناها يد فرعون ، وشاهدت فردة الصندل تبرز من تحت وشاحه بعينين مرتاعتين لا تكادان تصدقان مما تريان شيئا ، وتمتمت بانفعال شديد :

ــ صندلى !.

فضحك الملك ضحكة عذبة ، وقال وعيناه لا تتحولان عنها :

ــ بعينه يا رادوبيس ، أليس هذا اسمك ؟

فأحنت رأسها ، وتمتمت قائلة « نعم يا مولاى » وكانت مضطربة فلم تزد . أما الملك فاستدرك :

ــ انه لصندل جميل ، واعجب ما فيه هذه الصورة المنقوشة على باطنه . وكنت أحسبها زخرفا جميلا حتى وقعت عليك عيناى ، فعلمت أنها حقيقة رهيبة . وعلمت حقيقة أجل ، وهى أن الجمال كالقضاء يباغت الانسان بما لا يقع له فى حسبان .

فشبكت كفيها ، وقالت :

ــ مولاى . . ما كنت أحلم قط أن تشرف قصرى بذاتك ، أما أن تحمل صندلى . . رباه ماذا أقول ؟. . لقد فقدت جنانى . غفرانك يا مولاى ! ويحى نسيت نفسى يامولاى ، وتركتك واقفا .

وهرعت الى عرشها وأشارت اليه ، ثم انحنت باحترام . ولكنه اختار ديوانا وثيرا ، وجاس عليه ، وقال لها :

ــ ادنى منى يا رادوبيس . اجلسى ها هنا . .

فدنت الغانية حتى سارت على بعد قريب ، ووقفت تغالب اضطرابها وذهولها . فأجلسها بيده ، أمسك بمعصمها ــ وكانت أول لمسة ــ وأجلسها الى جانبه . . وكان قلبها يخفق بشدة ، فوضعت الصندل جانبا ، وخفضت عينيها ، ونسيت أنها رادوبيس المعبودة ، التى تعبث بالقلوب والرجال كيف شاء لها العبث . غلبتها المفاجأة ، وهز نفسها الشخص المعبود ، كأنه ضوء متوهج سلط على عينيها بغتة ، فانكمشت كعذراء تتصدى لرجلها أول مرة . . الا أن جمالها الرائع خاض المعركة ــ بغير علم منها ــ ثابت الجنان ، عظيم الثقة ، وسلط شعاعه السحرى على عينى الملك الداهشتين كما تسلط الشمس شعاعها الفضى على نائم النبت ، فيصحو ويرف رفيفا فاتنا . كان جمال رادوبيس قاهرا نفاذا ،

يحرق من يدنو منه ، ويبعث فى نفسه الجنون ، ويملأ صدره برغبة حارة لا تروى ولا تشبع ..

كانا فى تلك الليلة الخالدة ــ رادوبيس المتعثرة فى ارتباكها والملك التائه فى الحسن ــ أحوج بشرين الى رحمة الآلهة .

وأحب الملك أن يسمع صوتها فسألها :

ــ كيف لا تسألينني عن وقوع صندلك بين يدى ؟

فساورها القلق ، وقالت :

ــ نسيت امورا أجل يا مولاى .

فابتسم وسألها : كيف ضاع منك ؟

وهدأت رقة صوتها من انفعالها ، فقالت :

ــ خطفه النسر ، وأنا أستحم .

وتنهد الملك ورفع رأسه كأنه ينظر الى تهاويل السقف ، وأغمض عينيه يتخيل ذاك المنظر الفاتن ، اذ رادوبيس تلعب فى الماء بجسمها العارى ، والنسر يهوى من عل فيخطف صندلها . وسمعت الغانية رفيف أنفاسه ، وأحست بها تلفح خدها . وعاد الى النظر الى وجهها ، وقال بوجد :

ــ خطفه النسر وطار به الى . يا للقصة الفاتنة !.. ولكنى اتساءل منكرا : أكنت أحرم من رؤيتك لو لم يقيض لى الرب هذا النسر الكريم ؟.. يا له من فرض محزن ! ومع هذا فانى أحس فى أعماقى بأنه كبر على النسر الا أعرفك وأنت على قيد ذراع منى ، فرمانى بالصندل لأنتبه من غفلتى .

فقالت كالداهشة :

ــ هل رمى النسر بالصندل بين يديك يا مولاى ؟

ــ نعم يا رادوبيس .. هذه هى القصة الفاتنة .

ــ يا لها من مصادفة كالسحر !

ــ أتقولين مصادفة يا رادوبيس .. وما المصادفة ؟.. انها قضاء مقنع !.

فتنهدت وقالت :

ــ صدقت يا مولاى .. انها كالعاقل المتغابى .

ــ سأعلن رغبتى على الملأ ألا يتعرض انسان من شعبى لنسر بسوء !.

فابتسمت ابتسامة سعيدة فاتنة ، ومضت فى ثغرها كتعويذة سحرية . وأحس الملك بهيام يملك قلبه ، ولم يكن من عادته أن يقاوم عاطفة فاستسلم فى وجد بين ، وقال وهو يتنهد :

ــ انه هو المخلوق الوحيد الذى أدين له بأثمن ما فى حياتى .. رادوبيس ! كم أنت جميلة ! هذا حسن يزرى بأحلامى جميعا .

وسرت المرأة لقوله ، كأنها تسمعه لأول مرة فىحياتها ، فرنت اليــه بنظرة صافية حلوة زادته هياما ، فقال وكأنه يضرع أو يشكو :

ــ كأن سوطا تشتعل به النيران يلهب قلبى .

ثم أدنى وجهه من وجهها المشرق ، وهمس :

ــ رادوبيس .. أريد أن أنغمر فى أنفاسك .

فبسطت له وجهها ، وأسبلت جفنيها . وجعل يهوى بوجهه حتى مس أنفه أنفها الرقيق ، وداعب أهدابها الطويلة بأنامله ، وسها الى عينيها السوداوين حتى صارت الدنيا ظلاما . وأذهله الهوى ، فاستولى عليه تخدير ساحر ، حتى تنبه على تنهدها العميق ، فاعتدل قليلا ، وهمس فى أذنها قائلا :

ــ رادوبيس ! انى أقرأ أحيانا مصيرى ، سيكون الجنون منذ الساعة شعارى .

واسندت رأسها الى كفها اعياء ، وكان قلبها يخفق ، فجلسا ساعة صامتين يسعد كلاهما بحديث نفسه ، وما يحادث ــ وهو لا يدرى ــ الا صاحبه . وعلى حين فجأة قامت رادوبيس واقفة ، وقالت له :

ــ هل اتبعتنى يا مولاى لتشاهد قصرى ؟

كانت دعوة سعيدة .. ولكنها ذكرته بأمور كاد أن ينساها ، فوجد نفسه مضطرا الى الاعتذار .. وما يضيره لو أجل اللقاء ساعة ، والقصر وما فيه ملك يمينه .. فقال بأسف :

ــ ليس الليلة يا رادوبيس .

ونظرت اليه بانكار ، وسألته :

ــ ولم يا مولاى ؟

ــ هناك قوم ينتظروننى منذ ساعات فى القصر .

ــ أى قوم يا مولاى ؟

فضحك الملك ، وقال باستهانة :

ــ كان ينبغى أن أكون مجتمعا برئيس الوزراء الآن ، والحق يا رادوبيس اننى منذ حادثة النسر فريسة للعمل الشاق ، وكنت أبيت نية زيارة قصرك ، ولكن لا أجد فرصة مؤاتية . ولما رأيت هذا المساء يكاد يلحق بالذى سبقه ، أجلت اجتماعا هاما ريثما أشاهد صاحبة الصندل الذهبى .

واستولت الدهشة على رادوبيس ، وتمتمت قائلة « مولاى » وكانت تعجب من استهتاره الذى دفعه الى تأجيل اجتماع هام من الاجتماعات التى تبرم فيها مصائر المملكة ، لكى يشاهد امرأة شغل قلبه بها ساعة .. ووجدت عمله جميلا ساحرا لا نظير له بين أعمال العشاق ، ولا شعر الشعراء .

أما الملك فقام بدوره وقال لها :

ــ أنا ذاهب الآن يا رادوبيس .. واها .. ان القصر خانق . انه سجن مسور بالتقاليد ، ولكننى أمرق منها مروق السهم .. سأترك الآن وجها حبيبا لألقى وجها بغيضا » فهل رأيت أغرب من هذا ؟.. الى الغد يا رادوبيس الحبيبة . بل الى الأبد .

نطق بهذه الكلمات ثم ذهب بروعته ، وشبابه ، وجنونه .

الحب

ارتد بصرها عن الباب الذى غيبه ، فقالت وهى تتنهد : « ذهب ... » ، ولكنه فى الحقيقة لم يذهب ، لو كان ذهب حقا لما استولى عليها ذاك التخدير الغريب الذى جعلها بين النوم واليقظة ، تذكر وتحلم .. والصــور تمر أمام مخيلتها فى تزاحم وتسابق وجنون .

حق لها أن تسعد ، لأنها بلغت منتهى المجد ، وتسنمت ذروة البهاء وتذوقت من آى العظمة ما لم تحلم به امرأة على الأرض . زارها فرعون بذاته المعبودة ، وسحرته بأنفاسها الزكية ، وصاح بين يديها أن سوطا من اللهب يلهب قلبه الفتى ، فتوجت بهيامه ملكة على عرش المجد الجمال . وحق لها أن تسعد .. على أنها كانت تسعد سعادة المجد !. ومال رأسها قليلا ، فوقع بصرها على فردة الصندل فخفق قلبها وأدنت رأسها حتى مست شفتاها فارسه ...

ولم تنفرد بأحلامها طويلا اذ دخلت شيث . وقالت :

ــ مولاتى .. أتنوين أن تنامى هنا ؟

ولم ترد عليها .. وحملت الصندل . وقامت فى كسل وسارت تتهادى صوب مخدعها . وتشجعت شيث بسكوتها ، فقالت بلهجة حزينة :

ــ وا أسفاه يا مولاتى .. ان هذا البهو الجميل الذى الف الطرب واللهو ، يقفر الليلة لأول مرة من السمار والعشاق .. ولعله يتحير مثلى سائلا : « أين الغناء ؟ أين الرقص ؟ أين الحب .. هى مشيئتك يا مولاتى ... » .

ولم تبالها الغانية ، وصعدت أدراج السلم فى صمت وسكون ، فظنت شيث أن حديثها ظفر باهتمام سيدتها ، فقالت بحماس :

ــ لشد ما وجموا وأسفوا لما آذنتهم باعتذارك .. وتبادلوا نظرات الحسرة والحزن العميق ، وتراجعوا فى ثقل يسحبون وراءهم ذيل اليأس .

ولازمت المرأة الصمت ، ودخلت الى مخدعها الجميل ، وهرعت الى مرآتها وألقت نظرة على صورتها ، ثم ابتسمت بارتياح وغبطة وقالت لنفسها : « اذا كان ما حدث الليلة معجزة ، فهذه الصورة معجزة أيضا » وغمرتها نشوة سعادة ، فالتفتت الى شيث وسألتها :

ــ من حسبت الرجل الذى جاء لمقابلتى ؟.

ــ من هو يا مولاتى ؟. اننى لم أره قبل اليوم . هو شاب غريب ، ولكن لا جدال انه من النبلاء ، مليح رهيب جسور ، يندفع كالريح مجلجلا ، ولقدميه وقع شديد ، ولصوته لهجة الآمر ، ولولا خوفى لقلت : انه لا يخلو من ..

ــ من ماذا ؟.

ــ من جنون ..

ــ حذار ..

ــ مولاتى .. مهما يكن ثراؤه فلا يمكن أن يرجح العشاق جميعا الذين طردتهم اليوم .

ــ حاذرى أن تندمى حيث لا ينفع الندم .

فقالت شيث داهشة :

ــ هل يفوق غناه القائد طاهو أو الحاكم آنى ؟

فقالت بزهو :

ــ انه فرعون يا حمقاء ..

وحملقت المرأة فى وجه مولاتها ، وتدلت شفتها السفلى ، ولم تنطق .

فقالت الغانية ضاحكة :

ـ هو فرعون يا شيث .. فرعون ، فرعون بذاته دون سواه ، اياك والثرثرة .. اذهبى الآن ، اغربى عن وجهى ، فانى أريد أن أخلو بنفسى ..

وأغلقت الباب ودلفت الى النافذة المطلة على الحديقة . وكان الليل جثم فى مجثمه وأرخى على الكون جناحيه ، وبدت طلائع النجوم فى كبد السماء ، وأنوار المصابيح المعلقة بأغصان الأشجار فى الحديقة . وتبدى الليل فاتنا ، فتذوقت جماله وأحست لأول مرة بأن انفرادها فيه عذب ، بل أعذب من اجتماعها بالعشاق جميعا . وأصغت فى سكونه الى ذات نفسها وهمسات قلبها .. وبعثت الذكريات الذكريات ، فرجع خيالها الى عهد منطو بعيد ، خفق فيه قلبها خفقة طائشة ، قبل أن تتوج ملكة للقلوب على عرش بيجة ، وتغدو للأنفس قضاء لا يرد . كانت ريفية حسناء ، برزت من بين أوراق الريف المخضلة ، كما تبرز الوردة اليانعة . وكان نوتيا عذب الصوت نحاسى الساقين ، ولا تذكر أنها سلمت لانسان بداعى قلبها سواه . وشهدت شواطىء بيجة مشهدا لم تسعد بمثله فى الأرض . ودعاها الى سفينته فلبت دعاءه ، وحملتها الأمواج من بيجة الى أقصى الجنوب ، وانقطعت من يومها صلاتها بالريف وأهلها جميعا . واختفى النوتى من حياتها فجأة ، ولم تدر ان كان ضل ، أو فر ، أو مات ، ووجدت نفسها وحيدة . كلا لم تكن وحيدة ، كان معها جمالها فلم تتشرد ، والتقطها كهل ذو لحية طويلة ، وقلب ضعيف . وطابت لها الحياة وأثرت بموته وتوهج نورها فخطف الأبصار ، فأنجذبوا اليها كالفراش المجنون ، وألقوا تحت قدميها الصغيرتين قلوبا فتية . وأموالا لا تعد ، وبايعوها ملكة للقلوب فى قصر بيجة ، فكانت رادوبيس .. يا للذكريات !.

كيف مات قلبها بعد ذلك ؟.. هل أماته الحزن ، أم الغرور ،

أم المجد ؟ .. كانت تصغى الى حديث الحب بأذن صماء ، وقلب مغلق ، فكان منتهى ما يطمع فيه عاشق مدله مثل طاهو أن تهبه جسدها البارد .

استسلمت للذكريات طويلا ، وكأنما استدعتها لتربطها بأعجب أيام حياتها ، وأسعد أيامها !.

ومضى الوقت وهى لا تحس به ان كانت ساعات أم دقائق ، حتى انتبهت على وقع أقدام ، فالتفتت منزعجة ، فرأت بابها يفتح ، ودخلت شيث لاهثة وقالت :

ـ مولاتى .. انه يتبعنى .. ها هو ذا .

ورأته يدخل مطمئنا كأنه يدخل مخدعه الخاص ، فغمرتها دهشة ممزوجة بفرح وصاحت :

ـ مولاى ...

وانسلت شيث خارجا ، وأغلقت الباب ، وألقى الملك نظرة على المخدع الجميل ، وقال ضاحكا :

ـ هل أطلب المغفرة لتهجمى هذا ؟.

فابتسمت ابتسامة سعيدة ، وقالت :

ـ المخدع وصاحبته لك يا مولاى .

فضحك ضحكته الفاتنة . كانت ضحكة رنانة فتية تنبض بالحياة الدافقة ، وأمسك بمرفقها ، وسار بها الى الديوان وأجلسها ، وجلس الى جانبها ، وقال :

ـ كنت أخشى أن يسبقنى النوم اليك .

ـ النوم .. النوم لا يهتدى الى أمثال هذه الليلة ، يحسبها من فرط نور السعادة نهارا .

فتبدى الجد على وجهه وقال :

ـ اذا احترقنا معا ..

لم تحس بهذه السعادة من قبل ، ولم تعهد قلبها فى مثل

هذه اليقظة والحياة ، ولم تشعر بلذة الاستسلام الا أمام هذا الانسان البديع ، فقد صدق ، انها تحترق ، ولكنها لم تقل شيئا ، وقنعت بأن رفعت اليه عينين ناطقتين يجرى فيهما الصفاء والمودة .. ثم قالت :

ـ لم يدر بخلدى أنك تعود هذه الليلة ..

ـ ولا دار لى بخلد ، ولكننى رأيت الاجتماع ثقيلا مرهقا ، وأعيانى تركيز فكرى ، واستخفنى الجزع ، وعرض على الرجل مراسيم كثيرة ، فأمضيت عددا يسيرا ، وأصغيت اليه بعقل مشتت ، ثم ضقت بكل شيء ذرعا ، فقلت له الى الغد ، ولم أكن أفكر فى العـودة ، ولكنى رغبت فى أن أخلو بنفسى للحديث والمناجاة . فلما خلوت الى نفسى وجدت الوحدة ثقيلة ، والليل موحشا لا يحتمل . هنالك لمت نفسى قائلا : لماذا أصبر الى الغد ؟.. وليس من عادتى أن أقاوم عاطفة ، فما عتمت أن وجدتنى ها هنا بين يديك ..

يا لها من عادة سعيدة .. انها تجنى أشهى ثمارها ، وتحس جواره بفرح عجيب ، وكان يضطرب حياة ونشوة ، فقال :

ـ رادوبيس .. ما أجمل هذا الأسم ، فان له وقع الموسيقى فى أذنى ومعنى الحب فى قلبى . وهذا الحب شيء عجب ، كيف يصرع رجلا تعمر لياليه الحسان من كل لون وطعم ؟.. انه حقا عجيب ، ترى ما هو هذا الحب ؟ انه قلق معذب يسكن فى قلبى ، وأنشودة الهية ترتل فى أسمى مكان من روحى . انه حنين موجع . انه أنت . أنت حالة فى كل آية من آيات الدنيا والنفس . انظرى الى هيكلى هذا الشديد ، انه يشعر بالحاجة اليك شعور الغريق بالحاجة الى التنفس والهواء ...

انها تبادله هذا الشعور ، وتحس بصدقه ، فقد تكلم ليصف قلبا ، فوصف قلبين . انها تسمع مثله الانشودة الالهية ، وتشاهد

صورته فى آيات الدنيا والنفس . وكان جفناها يثقلان بالأحلام والنشوة ، فما عتم أن تماست أهدابهما ، فسألها برقة :

ــ لماذا لا تتكلمين يا رادوبيس ؟

وفتحت عينيها الجميلتين ، ونظرت اليه بوجد وحنان ، وقالت :

ــ ما حاجتى الى الكلام يا مولاى ؟. فطالما كان الكلام يتدفق على لسانى ، وقلبى ميت ، أما الآن ، فقلبى يبعث حيا ، ويمتص كلامك كما تمتص الأرض حرارة الشمس ، وتحيا بها .

فابتسم اليها سعيدا ، وقال :

ــ اختطفنى هذا الحب من وسط دنيا عامرة بالنساء .

فقالت وهى تبادله الابتسام :

ــ واختطفنى من وسط دنيا عامرة بالرجال .

ــ كنت أتخبط فى دنياى كالحائر ، وأنت منى على بعد ذراع ، واأسفاه .. كان ينبغى أن أعرفك من أعوام .

ــ كان كلانا ينتظر النسر ليسفر بيننا .

فشد على قبضة يده بحماس ، وقال :

ــ نعم يا رادوبيس . كانت الأقدار تنتظر ظهور النسر بأفقنا لتسطر فى لوحها أجمل قصة حب ، وما أشك فى أنه كبر على النسر أن يؤخر حبنا لأجل بعيد ، وما ينبغى لنا بعد اليوم أن نفترق . فأجمل ما فى الدنيا أن نرى معاً .

فتنهدت من أعماق قلبها ، وقالت :

ــ نعم يا مولاى ، فلا ينبغى أن نفترق بعد اليوم ، وهاك صدرى حقلا ناضراً ارتع فيه أنى شئت .

فبسط كفها بين كفيه ، وضغط عليه بحنو ، وقال :

ــ تعالى الى يا رادوبيس ، ليغلق هذا القصر على الماضى الغادر ، فانى أحس بأن كل يوم ضاع من حياتى قبل أن أعرفك طعنة غادرة صوبت الى سعادتى .

كانت كالمخمورة ، ولكن ساورها القلق ، فسألته :
ـ أيريدنى مولاى على أن أنتقل الى حريمه ؟
فهز رأسه قائلا :
ـ ستنزلين بأعز مكان به ..
فخفضت عينيها ووجمت ، ولم تدر ما تقول فأنكر سكوتها ، ووضع أنامل يمناه تحت ذقنها الصغير ، ورفع وجهها اليه وسألها :
ـ مالك ؟
فسألته بعد تردد :
ـ أأمر هو يا مولاى ؟
فانقبض صدره لذكر الأمر ، وقال :
ـ أمر ؟... كلا يا رادوبيس ، ان لغة الأمر لا تجدى مع الحب ، وانى ما تمنيت قبل اليوم لو أجرد من شخصيتى ! ... وأعود واحداً من البشر يشق طريقه بلا عون ، ويلقى حظه بغير محاباة ، انسى فرعون مليا ، واخبرينى ألا ترغبين فى اللحاق بى ؟
وخشيت أن يسىء فهم وجومها وترددها ، فقالت بلهجة صادقة :
ـ أرغب فيه يا مولاى رغبتى فى الحياة ، بل الحقيقة أجمل من هذا . الحقيقة انى لم أحب الحياة حبا صادقا الا منذ أحببتك ، وان قيمتها فى نظرى أنها تشعرنى بحبك ، وتسعد حواسى بوجودك . أليس للمحبين غريزة تصدقهم القول ؟.. سلها عن قلب رادوبيس يا مولاى تعد على اذنيك ما جرى على لسانى . ولكنى أتساءل حيرى : لماذا أهجر هذا القصر ، ولماذا أغلق أبوابه الى الأبد ؟... انه أنا بالذات يا مولاى ، فينبغى أن تحبه كما تحبنى . لا يوجد فيه موضع يخلو من أثر لى ، اما صورتى أو اسمى أو تمثال لى . كيف لى بهجره وقد هبط فيه النسر الذى طار اليك برسالة الحب الخالدة ؟... كيف لى بهجره وقد خفق قلبى فيه بالحب لأول

مرة ؟.. كيف لى بهجره يا مولاى وقد زرتنى فيه بذاتك العالية ؟ .. حرى بأى مكان تطؤه قدماك أن يصير ــ كقلبى ــ لك وحدك ، ولا يغلق أبوابه أبدا ..

كان يصغى اليها بحواسه المرهفة ، وقلبه المشبوب الجامح ، فتؤمن نفسه بكل كلمة من كلماتها . ثم لمس بحنو جدائل شعرها الفاحم ، واحتواها بوجد بين ذراعيه ، وطبع على شفتيها قبلة رطبت شفتيه برحيق عذب ، وقال لها :

ــ رادوبيس .. أيتها الحب الممتزج بروحى .. لن يغلق هذا القصر أبوابه ولن تظلم حجراته ، سيبقى ما بقينا مهدا للحب ، وجنة للهوى ، وحديقة ناضرة تغرس فيها بذور الذكريات ، سأجعل منه محرابا للحب ، وأصير أرضه وجدرانه ذهبا مصفى.

فأشرق وجهها بابتسامة سعيدة ، وقالت تناجيه :

ــ لتكن مشيئتك يا مولاى ، وانى أقسم بحبى لأذهبن الغداة الى معبد الرب سوتيس ، وأغسل جسدى بالزيت المقدس ، لأرحض نفسى من الماضى الشقى ، وأعود الى المحراب بقلب طاهر جديد ، كزهرة تشق الأكمام وتتصدى لشعاع الشمس .

فوضع يدها على قلبه ، ونظر الى عينيها وقال :

ــ رادوبيس انا اليوم سعيد ، وأشهد الدنيا والآلهة على سعادتى ، حياتى وحسبى بها من حياة .. انظرى الى ، فسواد عينيك أشهى لقلبى من نور الدنيا ..

فى تلك الليلة نامت جزيرة بيجة ، وسهر الحب بقصرها الأبيض ، حتى انحسر فى ظلمة الليل الحالكة عن زرقة الفجر الحالمة . . .

ظل الحب

استيقظت فى الضحى ، وكان الجو حارا ، والشمس ترسل اشعتها المتوهجة ، فتبث فى الدنيا نورا ونارا ، وكان قميصها الرقيق يلتصق بجسدها اللدن ، وشعرها مبعثرا ، منه خصلات نائمة على صدرها ، وخصلات ملقاة على الوسادة .

طوبى ليقظة تهيج فى القلب أجمل الذكريات .. كان قلبها مرتعا للغبطة ، والجو من حولها معطرا بأريج الأزهار ، والدنيا تبسم عن السعادة والأفراح ، فأحست لتجدد مشاعرها كأنما تكتشف عالما جديدا جميلا ، أو كأنها تبعث خلقا جديدا ..

ومالت فى نومتها الى جانبها ، ولاحت منها نظرة الى الوسادة ، فرأت أثر رأسه عليها واضحا ، فاستل من عينيها منتهى العطف والحنان ، وأدنت رأسها منه ولثمته ، وقد تمتمت بفرح : ما اجمل كل شىء .. وما أسعدنى بكل شىء ..

ثم جلست فى فراشها هنيهة وغادرته — كما كانت تغادره كل صباح — نشطة مرحة كملحة بارعة فى نفس عامرة بالفكاهة ، واستحمت بالماء البارد ، وتعطرت بماء الزهر ، وارتدت ثيابها المبخرة ، ثم عادت الى مائدة الطعام ، وتناولت افطارها المكون من بيض وفطير ، وشربت كوبا من اللبن الحليب ، وكأسا من الجعة ..

واستقلت سفينتها الى آبو ، وقصدت الى معبد الرب سوتيس ، وولجت بابه العظيم بقلب خاشع ، ونفس مفعمة بالرجاء والأمل ، وطافت بأرجائه ، وتبركت بجدرانه وعمده ذات النقوش المقدسة ، وأودعت صندوق النذور ما جادت به

يداها . وزارت حجرة الكاهنــة الكبرى ، وسألتها أن تغسلها بالزيت المقدس لتطهرها من شوائب الحياة واحزانها ، وترحض قلبها من الغي والعمى . وقد أحست ، وهي بين يدي الكاهنات المطهرات ، أنهــا تودع بلا رحمة قبر الفناء جســد رادوبيس الغانيــة اللعوب ، التي كانت تعبث بالرجال وتهلك النفوس ، وترقص على أشلاء الضحايا . وذوب القلوب ، وأن دما جديدا يجرى في عروقهــا ، فينبض في قلبها وحواســها الطمأنينة ، والسعادة ، والطهر ، ثم صلت صلاة حارة ، جاثية على ركبتيها مغرورقة العينين ، وضرعت في الختام الى الرب أن يبارك حبها وحياتها الجديدة . وعادت الى قصرها تشعر من فرط سعادتها كأنها طائر يرف بجناحيه في سماء صافية ، واستقبلتها شيث فرحة متهللة ، تكاد تطير من الفرح ، وقالت : مبارك هذا اليوم السعيد يا مولاتى . ألا تعلمين من أتى قصرنا في غيبتك ؟ . . .

فخفق قلبها باضطراب فرح ، وصاحت : من ؟ . .

فقالت الجارية : أتى رجال من أمهر الصناع بمصر مبعوثين من قبل فرعون ، فشاهدوا الحجرات والأرواق والردهات ، وقاسوا ارتفاع النوافذ والجدران تمهيدا لصنع أثاث جديد . .

ــ حقا ؟ . .

ــ نعم يا مولاتى ، وســيغدو هذا القصر عما قليل اعجوبة الزمان ، فيالها من صفقة رابحة . .

وتحيرت رادوبيس فيما تعنيه المرأة ، ثم خطر لها خاطر ، فقطبت جبينها وسألتها : اى صفقة تعنين ياشيث ؟

فغمزت المرأة بعينيها ، وقالت : صفقة الغرام الجديد ، وحق الأرباب ان مولاى ليزن أمة من الأغنياء ، ولن آسف بعد اليوم على ضياع تجار منف وقواد الجنوب . .

وغضــبت رادوبيس حتى تخضب وجههــا بالاحمــرار ، وصاحت بها :

ــ خسئت يا امرأة .. أنا لا أتجر الآن ..
ــ ويل لى .. لو كانت لدى شجاعة يا مولاتى لسألتك عما تفعلين اذا ؟
فتنهدت رادوبيس وقالت :
ــ أمسكى عن هذرك ، الا ترين أنى أجد فى الأمر جدا ؟ .
فحملقت الجارية فى وجه مولاتها الجميل ، وصمتت دقيقة ثم قالت :
ــ باركتك الآلهــة يا مولاتى .. انى حائرة وأسائل نفسى : لماذا تجد مولاتى جدا ؟ ..
فتنهــدت رادوبيس مرة أخرى ، واســتلقت على الديوان الوثير ، وقالت بصوت خافت : أحببت يا شيث ..
فضربت الجارية على صدرها بيديها ، وقالت بفزع ودهشة :
ــ أحببت يا مولاتى !..
ــ نعم أحببت ، مالك تدهشين ؟
ــ معذرة يا مولاتى ، هذا زائر جديد لم أسمع باسمه يجرى لك على لسان من قبل .. فكيف جاء ؟
فابتسمت رادوبيس وقالت كالحالمة : ما الداعى الى العجب ؟ امرأة تحب ، يا لها من حقيقة مبتذلة .
فأشارت المرأة الى قلب مولاتهــا ، وقالت : أما هنــا فلا ، عهدى به حصنا منيعا ، فكيف أخذ ؟.. الا بالله قولى لى ..
وبدت فى عينيها الأحلام ، وبعثت الذكرى فى نفسها شعورا فياضا ، فقالت بصوت كالهمس : أحببت يا شيث ، والحب شىء عجيب . فى أى دقيقة من الزمان طرق الحب قلبى ؟كيف تسلل الى أعماق نفسى ؟ لا علم لى بذلك ، وانه ليحيرنى حيرة شديدة ، ولكنى عرفت الحقيقة بقلبى . لقد خفق بشدة وعنف ، خفق لرؤية وجهــه ، وخفق لسماع صوته ، وما كان عهدى به أن يخفق لشىء من هذا ، فوسوس لى صوت خفى بأن ذلك الرجل

صاحب هذا القلب دون منازع ، فغمرني احساس قوى عنيف عذب أليم ، وشعرت شعوراً وثاباً بأنه ينبغي أن يكون لى كقلبى ، وأن أكون له كنفسه ، ولم أعد أتصور أن تطيب حياة ، أو يلذ وجود بغير هذا الامتزاج ..

فقالت شيث لاهثة : يا للحيرة يا مولاتى ..

ـ نعم يا شيث ، طالما تمتعت بالحرية المطلقة . كنت أتخذ مجلسى على ربوة عالية وأسرح ناظرى فى عالم واسع غريب ، وأسامر عشرات الرجال ، وأتذوق متع الأحاديث ، وأتملى آيات الفن ، وألهو بالمجون والغناء ، ولكن كان يرين على صدرى سأم لا شفاء له ، وتغشى نفسى وحشة لا طمأنينة معها . الآن يا شيث ضاقت آمالى ، وانحصرت فى رجل واحد هو مولاى ، وهو دنياى . ولكن دبت حياة دافقة طردت من طريق حياتى السأم والوحشة ، وأفاضت عليه نورا وبهجة ، فقدت نفسى فى الدنيا الواسعة ، ووجدتها فى رجلى الحبيب .. ارأيت ما هو الحب يا شيث ؟

فهزت الجارية رأسها فى حيرة ، وقالت : يا له من أمر عجيب كما تقولين يا مولاتى .. ولعله أعذب من الحرية نفسها ! وانى أسائل عما أحس به من الحب . ان الحب الى كالجوع ، والرجل كالطعام .. وانى أحب من الرجال قدر ما أحب من الأطعمة دون حيرة .. وحسبى هذا ..

فضحكت رادوبيس ضحكة رقيقة كرنين الوتر ، ثم قامت واقفة ، وذهبت الى شرفة تطل على الحديقة ، وأمرت شيث أن تأتى لها بقيثارة ، فأحست برغبة الى اللعب بالأوتار والغناء ، كيف لا والدنيا جميعا تنشد لحنا بهيجا ..

وغابت شيث برهة ، ثم عادت حاملة القيثارة ، وأسلمتها بين يدى مولاتها ، وهى تقول : هل يزعجك ان تؤجلى اللهو الى حين ؟

فسألتها ببساطة ، وهى تتناول القيثارة :
ـ ولم ؟ ..
ـ طلب الى احد العبيد ان اخبرك بأن انسانا يطلب الاذن بمقابلتك .
فلاح الاستياء على وجهها ، وسألتها بجفاء :
ـ ألا يعرف من هو ؟ ..
ـ يقول انه .. يزعم أنه مرسل من قبل الرسام هنفر .
وتذكرت ما قاله لها الرسام هنفر أول أمس عن تلميذ انابه عن نفسه لزخرفة الحجرة الصيفية ، فقالت لشيث :
ـ ايتى به الى ..
وأحست بمضايقة واستياء ، وامسكت القيثارة بحدة ، ولعبت اناملها بالأوتار فى خفة وغضب ، لعبا لا وحدة بين أجزائه .
وعادت شيث يسير على أثرها شاب حديث العمر ، وقد احنى رأسه فى اجلال ، وقال بصوت رقيق :
ـ أسعد الرب يومك يا سيدتى ..
فوضعت القيثارة جانبا ونظرت اليه من خلال اهدابها الطويلة ؛ كان غلاما معتدل القامة ، نحيف القد ، أسمر الوجه ، حسن القسمات ، واسع العينين الى درجة تلفت النظر ، تلوح فيهما آى الصفاء والسذاجة . فأخذتها حداثة سنه ، وصفاء عينيه ، وتساءلت متعجبة : هل يستطيع حقا أن يتم عمل المثال العظيم هنفر ؟ وقد احست بارتياح الى رؤيته ، أذهب عنها موجة الاستياء التى اجتاحتها ، وسألته :
ـ انت تلميذ المثال هنفر الذى اختارك لزخرفة الحجرة الصيفية ؟ .
فقال الشاب بارتباك ظاهر ، وكان بصره يتردد بين وجه رادوبيس وأرض الشرفة :

ـ نعم يا سيدتي .
ـ حسن ، وما اسمك ؟ ..
ـ بنامون .. بنامون بن يسار .
ـ بنـامون .. كم تبلغ من العمر يا بنامون ، فانى اراك صغيرا ؟ ..
فتورد خداه وقال :
ـ أبلغ الثامنة عشرة فى مسرى القادم .
ـ أراك تبالغ فى التقدير .
فقال الشاب باخلاص :
ـ كلا يا سيدتى ان ما أقول هو الحق .
ـ يالك من طفل يا بنامون ..
واختلجت عيناه الواسعتان العسليتان قلقا ، وكأنه خشى ان تعرض عنه لحداثة سنه . وقرأت مخاوفه ، فقالت مبتسمة :
ـ لا تقلق فانى أعلم أن هبة المثال فى يده لا فى عمره .
فقال بحماس :
ـ لقد شهد لى أستاذى الفنان الكبير هنفر .
ـ هل سبق أن قمت بعمل هام ؟
ـ نعم يا سيدتى ، زخرفت جانبا من الحجرة الصيفية بقصر السيد آنى حاكم بيجة .
فقالت : انت طفل نابغ يا بنامون .
فتورد خداه ، ولمعت عيناه بنور الفرح ، وغمرته سعادة دافقة . ونادت رادوبيس شيث ، وأمرتها أن تذهب به الى الحجرة الصيفية ... وتردد الشاب قليلا قبل أن يتبع الجارية ، وقال :
ـ ينبغى أن تفرغى لى كل يوم ... فى اى وقت تشائين .
فقالت : لقد الفت نفسى امثال هذه الواجبات ... هل تنحته لى صورة كاملة ؟

ـ أو نصفية ، وربما اكتفيت بتصوير الوجه ، وعلى أية حال هذا يتبع الصورة العامة للزخرف .

قال ذلك ، وأحنى رأسه ، وسار على أثر شيث . وذكرت المرأة المثال هنفر ، وقالت لنفسها فى سخرية : هل كان يدور له بخلد ، أن القصر الذى سألها أن تفتحه لتلميذه سيحرم عليه هو دخوله ؟ ...

وأحست بارتياح الى الأثر الذى تركه الشاب الساذج فى نفسها ، ولعله أثار فى قلبها عاطفة جديدة لم تدب بها الحياة من قبل ؛ هى عاطفة الأمومة ... وسرعان ما أشفقت عليه من عينيها وسحرهما الذى لم ينج منه انسـان . ودعت الرب مخلصة أن يحفظ له طمأنينته وصفاءه ، ويجعله بمنجاة من دواعى الألم واليأس ...

بنامون

وبرا بوعدها قصدت لدى ضحى اليوم الثانى الى الحجرة الصيفية بالحديقة ، ووجدت بنامون جالسا الى منضدة ، باسطا على سطحها ورقة من البردى ، يرسم عليها أشكالا مختلفة ويبدو عليه آى الانهماك والتفكير . ولما أحس بوجودها ، وضع قلمه وقام واقفا وأحنى رأسه لها ، فحيته بابتسامة وقالت : سأجعل لك هذه الساعة من الصباح ، فهى التى أملكها من يومى الطويل ..

فقال الشاب بصوته الخافت الخجول : شكراً لك يا سيدتى ، ولكننا لن نبدأ اليوم ، لأننى ماأزال أضع الفكرة العامة للزخرف.

فقالت : آه لقد غررت بى يا غلام ..

ــ حاشاى يا سيدتى .. بل عنت لى فكرة رائعة .

فنظرت الى عينيه الواسعتين الصافيتين بسخرية ، وقالت :

ــ ترى هل يستطيع حقا هذا الرأس الصغير ، أن يبدع فكرة رائعة ؟ ..

فتخضب وجهه بالاحمرار ، وقال بارتباك وهو يشير الى الجدار الأيمن : سأملأ هذا الفراغ بصورة وجهك وعنقك .

ــ يا للهول .. أخشى أن يأتى بشعاً مخيفاً ..

ــ سيبدو جميلا كما هو .

نطق الشاب بهذه العبارة ببساطة وسذاجة . فحدجته بنظرة فاحصة ، فسارع الارتباك اليه ، وتحيرت عيناه الصافيتان . وأشفقت عليه فنظرت الى الأمام حتى استقر بصرها على البركة خلل الباب الشرقى للحجرة .. يا له من شاب رقيق كالعذراء

الساذجة ، انه يهيج فى صدرها حنانا غريبا ، ويوقظ الأمومة النائمة فى سراديب نفسها ، والتفتت اليه ، فرأته منكبا على عمله ، ولكنه لم يكن متفرغا له ، وآية ذلك أنه كان ظاهر الارتباك مورد الخدين . أليس ينبغى أن تتركه وتذهب الى حال سبيلها ؟ ولكنها أحست برغبة فى التحدث معه ، فأطاعت رغبتها وسألته :

ــ أمن أهل الجنوب أنت ؟

فرفع الشاب رأسه ، وقد اكتسى وجهه بنور فرح بهيج وقال : أنا من أمبوس يا سيدتى .

ــ أمبوس ؟.. أنت من شمال الجنوب اذاً ، ولكن ما الذى جمع بينك وبين المثال هنفر ، وهو من أهل بلاق ؟

ــ كان والدى من أصدقاء المثال هنفر ، ولما رأى تعلقى بالفن أرسلنى اليه ووصاه بى .

ــ وهل والدك من طائفة الفنانين ؟

فصمت الشاب هنيهة ، ثم قال : كلا .. كان والدى كبير أطباء أمبوس ، وكان نابغة فى الكيمياء والتحنيط ، وقد تعددت اكتشافاته فى طرائق التحنيط وتركيبات السموم ..

ففهمت المرأة من سياق حديثه أن والده مات ، ولكنها عجبت لاكتشافه تركيبات السموم ، وسألت الشاب :

ــ ولماذا كان يصنع السموم ؟..

فقال الشاب بلهجة حزينة : كان يستعملها كأدوية ناجعة ، ويأخذها الأطباء عنه ، ولكنها واأسفاه كانت السبب فى القضاء على حياته .

فسألته باهتمام شديد : كيف كان ذلك يا بنامون ؟

ــ اذكر يا سيدتى أن والدى ركب سما عجيبا ، وكان يفاخر دائما بقوله : « انه أفتك السموم جميعاً ، وانه يقضى على ضحيته فى ثوان معدودة » وسماه لذلك السم السعيد ، وفى ليلة أسيفة

قضى الليل كله فى معمله يشتغل بلا انقطاع ، وفى الصباح وجد ممدداً على مقعده فاقد الروح ، والى جانبه قارورة سم من ذاك السم الفاتك مفضوضة السداد ...

— يا للغرابة ... هل انتحر ؟.

— من المحقق أنه تناول جرعة من السم الفاتك ، ولكن ماالذى دفعه الى الهلاك ؟... لقد دفن سره معه ، واعتقدنا جميعا أن روحا شيطانيا تلبسه ، فأضلته الحكمة فأتى فعلته فى حالة اعياء وذهول وفجع أسرتنا جميعا ...

واكتسى وجهه بحزن عميق وانحنت رأسه على صدره . فأسفت رادوبيس على اثارتها هذا الموضوع الأليم وسألته :

— وهل أمك على قيد الحياة ؟

— نعم يا سيدتى ، وهى تعيش بقصرنا فى أمبوس ؛ أما معمل والدى فلم يلج بابه انسان منذ تلك الليلة ...

وعادت المرأة ، وهى تفكر فى موت الطبيب بسار الغريب ، وفى سمومه المودعة المعمل المغلق ...

وكان بنامون الانسان الوحيد الغريب الذى يلوح فى أفقها الهادىء المنطوى على الحب والطمأنينة ؛ وكان الوحيد كذلك الذى ينتهب من وقتها الموهوب للحب ساعة كل صباح . على أنه لم يضايقها قط لأنه كان أرق من الطيف . ومضت الأيام وهى مغرقة فى الهوى وهو منكب على عمله ، وحياة الفن العالية تدب فى جدران الحجرة الصيفية . وكان يسرها أن ترقب يده وهى تبث فى الحجر روحا من جمالها الرائع . وقد اقتنعت بمقدرته الفائقة . ووقر فى نفسها أنه سيخلف المثال هنفر فى مستقبل قريب . وقد سألته يوما وهى تهم بمغادرة الغرفة بعد جلسة ساعة :

— الا يلحقك التعب أو السأم ؟

فابتسم الغلام بفخار وقال : هيهات ...

ـ كأنك تندفع بقوة شيطان ...

فأشرق وجهه الأسمر بابتسامة وامضة ، وقال بهدوء وسذاجة :

ـ بل بقوة الحب ...

وارتجف قلبها لوقع هذه الكلمة التى توقظ فى قلبها أشهى الذكريات ، وتنادى الى مخيلتها صورة حبيبة محاطة بالبهاء والجلال ، ولم يكن يدرك شيئا مما يقوم فى نفسها فاستدرك قائلا :

ـ ألا تعلمين يا سيدتى أن الفن هوى ؟

ـ حقاً ؟ ! .

فأشار الى أعلى جبينها الذى وضح رسمه على الجدران ، وقال :

ـ هاك نفسى خالصة ...

وكانت قد ملكت عواطفها ، فقالت بسخرية :

ـ يا لها من حجر أصم .

ـ كانت حجراً قبل أن تلمسها يداى ، أما اليوم فهى نفسى .

فضحكت قائلة : يا لك من مغرق فى حب نفسه ...

هكذا قالت وهى توليه ظهرها : ولكن وضح على أثر ذاك اليوم أن نفسه ليست الشىء الوحيد الذى يحبه ، وكانت تسير فى الحديقة على غير هدى كخاطر حائر فى دماغ حالم سعيد ، فأشرفت بغتة على الحجرة الصيفية ، وساقها ميل الى التسلية الى اعتلاء ربوة فى غابة الجميز ، وارسال النظر خلل نافذة الحجرة وكان وجهها الآخذ فى الاستواء والاكتمال يواجهها على الجدار المقابل ، ورأت الفنان الشاب فى أسفل الجدار ، وكانت تظنه ينهمك فى عمله كعادته ، ولكنها وجدته يجثو على ركبتيه ، ويداه مشتبكتان على صدره ، ورأسه متجه الى أعلى كأنه مستغرق فى صلاة ، الا ان رأسه كان متجها الى ما تم نحته من رأسها وجبينها ...

ودفعتها غريزتها الى الاختفاء وراء فرع شجرة ، ومضت ترقبه خلسة دهشة مذعورة . ورأته يقوم واقفا كأنه ينفتل من صلاته ، ورأته يمسح عينيه بطرف كمه الواسع .. فخفق قلبها. ولبثت برهة لا تبدى حراكا ، والسكون مطبق من حولها ، لا يسمع بين آونة وأخرى سوى رفرفة البط السابح على سطح الماء أو طنينه ، ثم التفتت الى الوراء وانحدرت مسرعة فى طريقها الى القصر ..

وقع ما طالما أشفقت من وقوعه رحمة به ، وكانت تطالع معناه فى عينيه الصافيتين كلما رنا بهما اليها ، وما كانت تستطيع دفع الشر ، فهل تباعد بينه وبينها ؟. هل تغلق باب القصر فى وجهه بأية علة تعتل بها عليه ؟.. لكنها أشفقت من تعذيب نفسه الرقيقة وباتت فى حيرة من أمرها .

على أن حيرتها لم تطل بها . ولم يكن شىء فى الوجود بقادر على أن يستبد بوجدانها أكثر من ساعة عابرة ، لأن عواطفها واحساساتها جميعا كانت نهب الحب ، وملك يدى حبيب طموح لا يقنع من الحب بشىء .. كان يطير الى قصرها الحالم هاجرا قصره ودنياه ، غير آسف ولا متردد ، فكانا يفران معا من الوجود ويلوذان بنفسيهما العامرتين بالحب ، ويستسلمان لسحر الهوى وفتونه ، ويصليان ناره ، ويشهدان الحجرات والحديقة والأطيار على روعته وجبروته . وكان أقصى ما يلقيان من أسباب الهموم فى أيامهما تلك أن تكتشف رادوبيس فى الضحى بعد توديعه لها ، أنها لم تسأله أعينيها يؤثر بالشوق أم شفتيها ، أو أن يذكر وهو فى طريقه الى قصره أنه لم يقبل ساقها اليمنى مثلما قبل اليسرى ، وربما حمله أسفه على أن يكر راجعا لينفى عن حياته أتفه أسباب الهموم .

كانت أياما لا نظير لها فى الأيام .

كأنما اشتقت مادتها من الصفاء والسعادة .

وكان الزمان الذى يمنح قوما الصفاء والسعادة ، يتجهم لوجه رئيس الوزراء وكبير الكهنة خنوم حتب . كان الرجل يقبع فى دار الحكومة يرقب الأمور بعينين متشائمتين ، ويستمع الى مايقال بآذان مرهفة وقلب حزين ، ثم يستوصى بالصبر ماأمكن الصبر .

وكان الأمر الذى أصدره الملك بنزع أراضى المعابد ينغص عليه صفو حياته ، ويضع فى سبيل حكمه عراقيل من الأزمات النفسية ، لأن جمهور الكهنة قابلوه بفزع وألم ، ونشط اكثرهم الى كتابة العرائض والالتماسات وتوجيهها الى رئيس الوزراء وكبير الحجاب ...

ولاحظ الرئيس أن الملك لا يمنحه من وقته عشر معشار ما كان يمنحه من قبل ، وأنه نادرا ما يحظى بمقابلته والتحدث اليه فى أمور المملكة . وذاع على أثر ذلك أن فرعون يهوى غانية القصر الأبيض بيجة ، وأنه يبيت لياليه فى قصرها . ثم شوهد الصناع يساقون الى قصرها جماعات جماعات ، ورئيت زرافات العبيد حاملة فاخر الأثاث وثمين الجواهر . وتهامس الكبراء بأن قصر رادوبيس يتحول الى مثوى من الذهب والفضة والمرجان ، وأن أركانه تشهد هوى جامحا يتقاضى مصر أموالا لا تعد ولا تحصى .

وكان خنوم حتب رأسا كبيرا وعينين عميقتين ، وقد نفد صبره ، وضاق بجموده . ففكر فى الأمر طويلا ، وعزم على أن يبذل مافى وسعه ليحول الأمور عن السبيل التى تندفع فيه ؛ فأرسل رسولا من قبله برسالة الى كبير الحجاب سوفخاتب رجاه فيها

الى موافاته بدار الحكومة . وسارع كبير الحجاب الى مقابلته ، وصافحه الوزير ، وقال له :
ـ انى أشكرك أيها المبجل سوفخانب على تلبيتك لرجائى .
فأحنى كبير الحجاب راسه ، وقال :
ـ انى لا أتوانى عن القيام بواجبى المقدس فى خدمة مولاى .
وجلس الرجلان وجها لوجه . وكان خنوم حتب صلب الارادة حديدى الأعصاب ، فظل وجهه هادئا رغم ما يجيش بصدره من الأحزان . وقد استمع الى قول كبير الحجاب فى سكون ، ثم قال
ـ أيها المبجل سوفخاتب ، كلنا نخدم فرعون ومصر باخلاص.
ـ هذا حق يا صاحب القداسة .
ورأى خنوم حتب أن يطرق موضوعه الخطير . فقال :
ـ ولكن ضميرى لا يرتاح الى سير الأمور فى هذه الأيام ، وبت أتعثر بالمتاعب والمشكلات . وقد رأيت ـ وأحسبنى فى رايى من الصادقين ـ أن مقابلة بينى وبينك لاشك تأتى بخير كثير .
فقال سوفخاتب . انه ليسعدنى وحق الأرباب أن تصدق فى فراستك يا صاحب القداسة :
فهز الرجل رأسه الكبير دلالة على الرضا ، وقال بلهجة تنم على الحكمة :
ـ يجدر بنا أن نستوصى بالصراحة ؛ فالصراحة كما يقول فيلسوفنا قاقمنا آية الصدق والاخلاص .
فأمن سوفخاتب على قوله قائلا :
ـ صدق فيلسوفنا قاقمنا .
فصمت خنوم حتب دقيقة يجمع أفكاره . ثم قال بصوت نم على الحزن :
ـ يندر أن أحظى بمقابلة جلالة الملك فى هذه الأيام .
وانتظر الوزير أن يعقب الرجل على كلامه ، ولكنه لازم الصمت ، فاستطرد قائلا :

ــ وأنت تعلم أيها المبجل أنى كثيرا ما أطلب تحديد وقت لمقابلته . فيقال لى ان ذاته المعبودة خارج القصر .

فبادره سوفخاتب قائلا :

ــ ليس لانسان أن يحسب على فرعون حركاته وسكناته .

فقال الوزير :

ــ ما قصدت الى هذا قط أيها المبجل ، ولكنى أعتقد أن حقى كوزير يخول لى المثول بين يدى جلالته بين آونة وأخرى ، لأقوم بواجباتى على الوجه الكامل .

ــ معذرة يا صاحب القداسة ، ولكنك تحظى بالمثول بين يدى فرعون .

ــ نادرا ما تتاح لى الفرصة . وتجدنى لا أدرى ما الحيلة لأعرض على ذاته العليا التماسات تزدحم بها حجرات الحكومة .

فحدجه الحاجب بنظرة فاحصة ، وقال :

ــ لعلها تمس موضوع أراضى المعابد .

فالتمعت عينا الوزير بنور خاطف ، وقال :

ــ هو ذلك يا سيدى .

فقال سوفخاتب بسرعة :

ــ ان فرعون لا يريد أن يسمع جديدا حول هذا الموضوع . لأن جلالته قال فيه كلمته الأخيرة .

ــ ان السياسة لا تعرف كلمة أخيرة .

فقال سوفخاتب بلهجة لم تخل من حدة :

ــ هذا رأيك يا صاحب القداسة وعسى ألا أشاركك فيه .

ــ أليست أملاك المعابد تراثا تقليديا ؟

واستاء سوفخاتب لأنه شعر بأن الوزير يستدرجه الى حديث يأباه ، بعد أن أعلن له اباءه ، فقال بلهجة لا تدع له أى احتمال للشك :

ــ سأقف عند كلمة مولاى لا أتعداها .

ــ ان اخلص الناس لمولاه من يصدقه النصيحة .

واشتد استياء الحاجب الأكبر لجفاء القول ، وثارت كرامته ثورة مكتومة ، فقال بشدة :

ــ اني أعرف واجبي يا صاحب القداسة ، ولكني لا أسأل عنه الا أمام ضميري .

فتنهد خنوم حتب يائسا ، ثم قال في هدوء وتسليم :

ــ أن ضميرك فوق الشبهات أيها المبجل ، وما داخلني شك قط في اخلاصك أو حكمتك ، ولعل هذا ما دعاني الى الاسترشاد برأيك . أما وانك ترى أن هذا لا يتفق واخلاصك ، فلا يسعني الا العدول عنه آسفا ، وليس لدى الآن الا رجاء واحد .

فقال سوفخاتب :

ــ تفضل يا صاحب القداسة .

ــ انى أرجو أن ترفع الى مسامع حضرة صاحبة الجلالة الملكة ، رجائي بالتشرف بين يديها اليوم .

وأخذ سوفخاتب ، ونظر الى محدثه نظرة دالة على الدهشة ، لأنه وان كان الوزير لم يجاوز حدوده بهذا الرجاء الا أنه لم يكن متوقعه ، فاستولى الارتباك على الحاجب ، أما خنوم حتب فقال بلهجة دلت على العزم :

ــ انى اقدم هذا الرجاء بصفتي رئيس وزراء المملكة المصرية .

فقال سوفخاتب بقلق :

ــ ألا انتظرت الى الغد لأحيط الملك علما برغبتك ؟

ــ كلا أيها المبجل ، انى أرجو أن أستعين بجلالة الملكة على تذليل العقباب التى تعترض سبيلي ، فلا تضيع فرصة ذهبية ، عسى أن أخدم بها مليكي ووطني .

فلم يسع سوفخاتب الا أن يقول :

ــ سأرفع رجاءك الى جلالتها في الحال .

وقال خنوم حتب ، وهو يمد له يده للمصافحة :

ـ سأنتظر رسولك .

فقال الحاجب الأكبر وهو يودعه :

ـ كما تشاء يا صاحب القداسة .

ولما خلا خنوم حتب بنفسه قطب جبينه ، وأصر على أسنانه بشدة ، فبدت ذقنه العريضة كقبضة من الجرانيت ، ومضى يذرع الحجرة ويعمل فكره . وكان لا يشك فى اخلاص سوفخاتب ، ولكنه كان قليل الثقة فى شجاعته وعزيمته . وقد دعاه وهو يائس منه ، ولكنه لم يرد أن يترك وسيلة بلا تجربة ، ثم تساءل قلقا : هل تقبل الملكة رجاءه وتدعوه لمقابلتها ! وما عساه يصنع لو رفضت مقابلته ؟. ان الملكة لا يستهان بها . وعسى أن تحل العقدة المستحكمة بذكائها ، فتنقذ ما بين الملك والكهنة من الانهيار والتفكك . ولا شك أن الملكة تدرك سوء تصرف الملك الشاب ، وتألم له أشد الألم ، فهى ملكة مشهود لها بالفطنة ، وهى زوجة تشارك الزوجات أفراحهن وأحزانهن . أليس من المحزن أن تنزع أملاك المعابد ليبذل ريعها رخيصا تحت أقدام راقصة ؟

ان الذهب يتدفق الى قصر بيجة من أبوابه ونوافذه ، ومهرة الصناع يتقاطرون عليه ويعملون ليل نهار فى صنع أثاثه وحلى ربته وأثوابها . وأين .. أين فرعون .. هجر زوجه وحريمه ووزراءه وقنع من الدنيا بقصر الراقصة الساحرة !

وتنهد الرجل فى حزن عميق ، وتمتم قائلا : ما ينبغى لمن يجلس على عرش مصر أن يلهو ..

وراح فى تفكيره العميق ، ولكن لم يطل به الانتظار ، اذ دخل عليه حاجبه ، واستأذن لرسول آت من القصر فأذن . وانتظر الرجل فى لهفة ، وقد اضطربت شفتاه فى تلك اللحظة الفاصلة على قوة ارادته وصلابة أعصابه ، ودخل الرسول ، وأحنى راسه محييا . وقال باقتضاب :

— ان حضرة صاحبة الجلالة تنتظركم يا صاحب القداسة .

وحمل من فوره أضمامة الالتماسات ، وذهب الى عجلته التى طارت به الى القصر ، وما دار له بخلد ان يأتيه الرسول بهذه السرعة ، فلا شك أن الملكة تكابد حزنا وقلقا ، وتعانى من الآلام فى وحدتها الموحشة ، ولا شك أنها تتصبر على الاهانة والحرمان قابعة فى سياج قاس من الكبرياء والصمت ، انه يحس أنها من رأيه ، وأنها ترى الأمور بالعين التى يراها الكهنة والعقلاء جميعا . وعلى أية حال فسيؤدى واجبه ، ولتقض الآلهة أمرا كان مفعولا .

وبلغ القصر ، وقصد توا الى جناح الملكة ، ولم يلبث ان دعى الى مقابلة جلالتها فى بهو استقبالها الرسمى . وادخل البهو فاتجه نحو العرش ، وأحنى هامته حتى مست جبهته حاشية ثوبها الملكى ، وقال باجلال عميق :

— السلام على مولاتى الملكة نور الشمس وبهاء القمر .

فقالت الملكة بصوت هادىء :

— السلام عليك أيها الرئيس خنوم حتب .

واستقامت قامة الوزير ، وان ظل رأسه منكسا ، وقال بخشوع :

— ان عبدك المطيع يعجز لسانه عن اداء الشكر لذاتك العالية ، على تفضلك الكريم باستقباله .

فقالت الملكة بصوتها المتزن النبرات :

— انى أعتقد أنك لا ترجو مقابلتى الا لأمر خطير ، فلم أتوان عن استقبالك .

— تعالت حكمة مولاتى ، فالأمر جد خطير ، وما هو الا صميم السياسة العليا .

وانتظرت الملكة صامتة ، فاستجمع الرجل قواه الذاتية ،

وقال : انى يا صاحبة الجلالة أصطدم بعقبات شديدة ، حتى بت أخشى الا أقوم بواجبى بما يرضى ضميرى ومولاى فرعون .

وسكت لحظة ، واختطف من وجه الملكة الهادىء نظرة سريعة كأنه يمتحن أثر كلامه فيها ، أو ينتظر كلمة تشجعه على الاسترسال . وأدركت الملكة معنى تردده ، فقالت :

ـ تكلم أيها الوزير فانى مصغية اليك .

فقال خنوم حتب :

ـ اصطدمت بهذه العقبات على أثر صدور الأمر الملكى بنزع أكثر أملاك المعابد . فقد اضطرب الكهنة وفزعوا الى الالتماسات يرفعونها الى أعتاب فرعون ، فهم يعلمون أن أراضى المعابد منح وهبتها الفراعنة عطفا ، فأشفقوا من أن يكون استردادها سخطا .

ولاذ الوزير بالصمت هنيهة ، ثم استدرك قائلا :

ـ الكهنة يا مولاتى جنود الملك فى وقت السلم ، والسلم ينشد رجالا اصلب عودا من رجال الحرب ، فمنهم المعلمون والحكماء والوعاظ ، ومنهم حكام ووزراء . وما كانوا ليتوانوا عن التنازل عن أملاكهم حبا وكرامة لو دعت الى ذلك شدة حرب أو قحط ، ولكنهم . . .

وتردد الرجل عن الكلام لحظة ، ثم استطرد بصوت أشد خفوقا :

ـ ولكن يحزنهم أن يروا هذه الأموال تنفق فى غير هذه الوجوه . .

ولم يرد أن يجاوز هذا الحد من التلميح ، ولم يداخله شك فى أنها تفهم كل شىء وتعلم كل شىء . ولكنها لم تعقب على كلامه بكلمة . فلم ير بدا من أن يتقدم اليها بالالتماسات ، ثم قال :

ـ هذه الالتماسات يا صاحبة الجلالة تعبر عن احساس

رؤساء المعابد ، وقد رفض مولاى الملك أن ينظر فيها ، فهل لمولاتى أن تطلع عليها ، فالشاكون طائفة من شعبكم المخلص تستحق الرعاية . .

وقبلت الملكة الالتماسات ، فوضعها الوزير على منضدة كبيرة ، ووقف فى سكون منكس الرأس . ولم تعده الملكة بشىء ، وما طمع فى هذا قط ، ولكنه تفاءل خيرا بقبول الالتماسات . ثم أذنت له بالانصراف ، فتراجع ويداه على عينيه .

وفى طريق العودة حادث الوزير نفسه قائلا : ان الملكة شديدة الحزن ، وعسى أن ينفع حزنها قضيتنا العادلة .

نيتوقريس

غيب الباب الوزير ، ووجدت الملكة نفسها وحيدة فى البهو الكبير ، فأسندت رأسها المتوج الى ظهر العرش ، وأغلقت جفنيها ، وتنهدت تنهدا عميقا ، صعد أنفاسا حارة مكتوية بحرقة الحزن والألم ، فلشد ما تتصبر وتتجلد ، حتى ان أدنى الناس اليها لا يدرى بألسنة اللهيب التى تحترق بها أحشاؤها بغير رحمة .. وقد ظلت تطالع الناس بوجه هادىء يكتنفه الصمت كأبى الهول .

وما كانت تجهل من الأمر شيئا ، فقد شاهدت المأساة من بدء فصولها ، ورأت الملك يتردى فى الهاوية ، ويذهب فريسة لهواه الجامح ، ويهرع الى تلك المرأة ــ التى شاد بحسنها كل لسان ــ لا يلوى على شىء . وأصابها سهم سام فى عزة نفسها وسويداء عواطفها ، ولكنها لم تبد حراكا . ونشب فى صدرها صراع عنيف بين المرأة ذات القلب ، والملكة ذات التاج ، وأثبتت التجربة أنها كأبيها قوية الشكيمة ، فصهر التاج القلب ، وخنقت الكبرياء الحب ، فانطوت على نفسها الحزينة سجينة خلف الستائر . وهكذا خسرت المعركة ، وخرجت منها مهيضة الجناح ، وما رمت عن قوسها سهما واحدا .

وكان الذى يدعو الى السخرية ، أنهما ما زالا يعدان عروسين . على أن تلك الفترة القصيرة كانت كافية لاظهار ما انطوت عليه نفسه من الجموح العنيف والهوى الطائش ، فما عتم أن ملأ الحريم بعدد لا يحصى من الجوارى والمحظيات من مصر والنوبة وبلاد الشمال . ولم تكن تأبه لهن ، لأنهن جميعا لم يصرفنه عنها ،

ولبثت ملكته وملكة فؤاده ، الى أن ظهرت فى أفقه هذه المرأة الساحرة فجذبته اليها بعنف ، وملكت عواطفه وعقله جميعا ، واستأثرت به دون زوجه وحريمه ورجاله المخلصين . ولعب بها الأمل الخادع حينا ، ثم أسلمها اليأس ، يأس مكفن بكبرياء فأحست بقلبها يتجرع سكرات الموت .

وكانت تأتى عليها أحايين يثب الجنون فى دمائها ، وتشع عيناها نورا خاطفا ، فتهم بالوثب والبطش والمنافحة عن قلبها الكسير ، ثم سرعان ما تقول لنفسها باحتقار شديد : كيف يصح لنيتوقريس أن تنازل امرأة تبيع جسدها بقطع الذهب ؟ فتبرد دماؤها ، ويتجمد الحزن فى قلبها كالسم الفاتك فى المعدة .

ولكن ثبت لها اليوم أن هناك قلوبا غير قلبها تعانى الآلام بسبب تهور الملك ، وها هو ذا خنوم حتب يشكو اليها بثه ويقول لها بعبارة بينة : انه لا يجوز أن تنتزع أملاك المعابد لتلهو بها رادوبيس الراقصة ، ويؤمن بقوله المئون من صفوة الحكماء .. أفلا ينبغى أن تخرج عن صمتها ؟ واذا لم تتكلم الآن فمتى ينبغى الكلام ؟ وقالت لنفسها : ان الملك يتهور تهور المجانين ، وانه ينبغى لها أن تعالج جنونه بحكمتها . وقد آلمها أن يرتقى الهمس الى العرش المكين ، وأحست بأن واجبها يقضى عليها بازالة الهواجس واعادة الطمأنينة ، وهان عليها أن تدوس على كبريائها ، وتوطد العزم على أن تتقدم بخطى ثابتة فى سبيلها السوى مستعينة بالأرباب .

وارتاحت الملكة لتفكيرها الذى أملته عليها الحكمة والدواعى الباطنة ، وانهار عنادها الأول بعد أن ثابر مثابرة المستميت ، وصدقت عزيمتها على مواجهة الملك بقوة واخلاص .

وغادرت البهو الى مخدعها الملكى ، وقطعت بقية نهارها فى التفكير والتأمل ، ونامت ليلها نوما متقطعا شديد العذاب ، وانتظرت الضحى على لهفة ، وهو الوقت الذى يصحو فيه الملك

بعد سهر الليل .. ولم يداخلها التردد ، فانتقلت بخطى ثابتة الى جناح الملك ، وقد أحدث انتقالها الغريب حركة بين الحراس ، فأدوا لها التحية . وسألت واحدا منهم قائلة :

ــ أين جلالة الملك ؟

فأجابها الرجل باجلال قائلا :

ــ فى مثواه الخاص يا صاحبة الجلالة .

وسارت بتؤدة الى حجرة الملك التى يخلو فيها بنفسه ، واجتازت بابها الكبير . وكان فرعون يجلس فى الصدر يفصله عن الباب أربعون ذراعا ، حملت من آى البلهنية والفن ما لا تصدقه العيون . ولم يكن الملك يتوقع رؤيتها ، وكانت مضت أيام عديدة على آخر لقاء ، فقام واقفا دهشا . واستقبلها بابتسامة دلت على الارتباك ، وقال وهو يشير اليها بالجلوس :

ــ أسعدتك الآلهة يا نيتوقريس .. لو علمت برغبتك فى مقابلتى لبادرت اليك !

فجلست الملكة فى هدوء وهى تخاطب نفسها قائلة .. من أدراه أنى لم أرغب فى لقائه طوال هذه الفترة ! ثم وجهت اليه الخطاب قائلة :

ــ لا داعى لازعاجك أيها الأخ ، فانى لا أجد غضاضة فى الانتقال اليك ما دام الذى يحركنى واجب .

ولم يلق الملك الى كلامها بالا ، لأنه كان يحس بحرج شديد ، وقد تأثر لمجيئها وجمود وجهها ، فقال :

ــ انى خجل يا نيتوقريس .

وعجبت لطرقه هذا الموضوع ، وكان آلمها ألما خفيا أن تراه فى منتهى السعادة والصحة ، كالزهرة الناضرة ، فقالت بانفعال رغم ضبط عواطفها :

ــ يهون لدى كل شىء الا أن تخجل !

وكان أرق اللمس يهيجه ، ويرده من حال الى حال ، فعض على شفلته وقال :

ــ أيتها الأخت ، ان الانسان هدف لأهواء طاغية ، وقد يهوى لاحداها فريسة .

وطعنها اعترافه بقسوة فى كبريائها وعواطفها ، فنسيت حلمها وقالت بصراحة :

ــ يحزننى وحق الرب ، وأنت فرعون أن تشكو الأهواء الطاغية .

وأحس الملك المغضوب بوخز كلامها ، فأهاجه الغضب ، واندفع الدم الى رأسه ، فانتفض واقفا ينذر وجهه بالشر . وخشيت الملكة أن يفسد غضبه عليها الغرض الذى جاءت من أجله ، فندمت على قولها ، وقالت له برجاء :

ــ أنت الذى سقتنى الى هذا الحديث أيها الأخ . وما لهذا جئت ، وعسى أن يفرخ غضبك ، أن تعلم أنى قصدت اليك لأحدثك فى شئون هامة تمس سياسة المملكة التى نجلس على عرشها سويا .

فكظم حنقه ، وسألها بلهجة كالهادئة :

ــ ما حديثك أيتها الملكة ؟

وأسفت الملكة على أن مساق الحديث لم يؤد الى جو صالح لغرضها ولكنها لم تر بد من الكلام ، فقالت باقتضاب :

ــ أراضى المعابد .

فعبس وجه الملك ، وقال بامتعاض شديد :

ــ أتقولين أراضى المعابد ؟ . . انى أسميها أراضى الكهنة !

ــ لتكن مشيئتك يا مولاى ، فان تغيير الاسم لا يغير من الأمر شيئا .

ــ الا تعلمين انى أكره أن يعاد على هذا الحديث ؟

ـ انى احاول ما لا يستطيعه غيرى ، وهدفى الخير والاصلاح .

فهز الملك منكبيه بامتعاض وقال :

ـ وما الذى تريدين قوله أيتها الملكة ؟

فقالت بهدوء :

ـ لقـد دعوت خنوم حتب الى مقـابلتى اجابة لرجائه واستمعت ..

ولكنه لم يدعها تتم حديثها ، وقال بغضب :

ـ أهكذا فعل الرجل ؟

فقالت بارتياع :

ـ نعم .. هل تجد فى سلوكه ما يستأهل غضبك ؟

فقال وكأنه يزأر :

ـ بغير شك .. بغير شك .. انه رجل عنيد ، ويأبى أن ينزل عند ارادتى . وأنا أعلم أنه نفذ أمرى كارها ، وأنه يتربص به لعله ينجح فى الغائه مستعينا تارة بالرجاء ، وقد رفضت أن أصغى اليه ، وتارة بدفع الكهنة الى تقديم الالتماسات كما دفعهم من قبل الى الهتاف باسمه الحقير .. ان الرجل الماكر يندفع كالأعمى فى طريق خصامى .

فهالها ظنه وقالت :

ـ أنت تسىء الظن بالرجل ، أما أنا فأعتقد انه من أعظم الرجال اخلاصا للعرش ، وأنه حكيم يتوخى الوئام .. أليس من الطبيعى أن يحزن الرجل لفقدان امتيازات كسبتها طائفته فى ظل عطف اجدادنا ؟.

واحتدم الغيظ فى قلب الملك ، لأنه لم يكن يجد عذرا لانسان لا يصدع بأمره فى السر والعلانية ، ولا يحتمل بأية حال أن يرى انسان غير ما يرى .

فقال ممتعضا بلهجة تشف عن السخرية المريرة :

ـ أرى أن هذا الداهية استطاع أن يغير رأيك أيتها الملكة .
فقالت باستياء :
ـ لم يتجه رأيى قط الى نزع أملاك المعابد ، ولا أجد ضرورة لذلك .
فعاود الغضب الملك وقال لها بعنف :
ـ ايسيئك أن تزداد ثروتنا ؟
كيف يقول هذا ، وهو يعلم أين تنفق هذه الأموال ؟.
وأثار قوله غيظها الدفين وحنقها المختنق ، فانتفضت غضبا وتغلبت عليها مشاعرها فقالت بانفعال :
ـ يسيء كل عاقل أن تنزع أراضى قوم حكماء لينفق ريعها فى اللهو العابث .
فاشتد هياج الملك ، وقال وهو يشير بيده مهددا :
ـ ويل للرجل الماكر .. انه يغرى بالشقاق بيننا ؟
فقالت بتألم وحزن :
ـ انك تصورنى لنفسك كطفلة غريرة .
ـ ويل له .. لقد طاب مقابلة الملكة ليحادث المرأة المستترة فى ثوبها الملكى .
فصاحت به حزينة متألمة قائلة :
ـ مولاى !.
ولكنه استطرد يقول مدفوعا بغضبه الشيطانى :
ـ لقد جئت يا نيتوقريس مسوقة بالغيرة لا بالرغبة فى الوئام .
وأحست بطعنة نجلاء تصيب كبريائها . فأظلمت عيناها ، ودوى النبض فى أذنيها ، وارتجفت أطرافها ، ولبثت هنيهة لا تستطيع قولا . ثم قالت :
ـ أيها الملك ! لا يعرف خنوم حتب عنك شيئا أجهله فيسعى

به الى . وما دمت تظن هذا . فاعلم بأنى ، أعلم ، كما يعلم الجميع ، انك غارق فى أحضان راقصة بجزيرة بيجة منذ أشهر . فهل رأيتنى طوال هذه الفترة طاردتك . أو ضيقت عليك . أو توسلت اليك ؟.. واعلم أن الذى يريد أن يخاطب فى المرأة يرتد خائبا ، ولا يلقى أمامه سوى الملكة نيتوقريس ...

فاحتد قائلا بعناد :

ـ ما تزالين تقذفين بحمم الغيرة .

فضربت الملكة بقدمها الصغيرة ، وقامت واقفة يائسة ، وقالت بحنق شديد :

ـ أيها الملك .. ليس مما تعير به ملكة أن تغار على زوجها ، ولكن مما يعير به ملك حقا أن يبذل ذهب بلاده تحت قدمى راقصة ، ويعرض عرشه الطاهر لخوض الخائضين .

قالت الملكة ذلك ، وذهبت لا تلوى على شيء .

***

واستبد الغضب بالملك ، وأخرجه عن طوره وكان يعد خنوم حتب مسئولا عن جميع متاعبه ، فاستدعى سوفخاتب وأمره دون أن يمهله بأن يبلغ رئيس الوزراء بأنه ينتظره . وخرج الحاجب الأكبر ينفذ أمر مولاه حائرا . وجاء الوزير الأكبر موزع النفس بين اليأس والأمل . وادخل على الملك الغاضبِ الحانق ، ونطق الرجل بالتحية ـ التقليدية ، ولكن فرعون لم يكن يصغى اليه ، وقد قاطعه بصوت خشن شديد قائلا :

ـ ألم آمرك أيها الوزير بألا تعود الى مناقشة مسألة أراضى المعابد ؟.

واخذ الرجل باللهجة الشديدة التى يسمعها لأول مرة ، وأحس بآماله تنهار دفعة واحدة ، فقال يائسا :

ــ مولاى .. رأيت من واجبى أن أرفع الى مسامعكم العالية شكاوى طائفة من شعبكم الأمين .

فقال الملك بلهجة قاسية :

ــ بل أحببت أن تثير غبارا فيما بينى وبين الملكة ، لتصيب تحت ستاره غرضك .

فرفع الرجل يديه بتوسل ، وأراد أن يتكلم فارتج عليه القول سوى هاتين الكلمتين :

ــ مولاى .. مولاى .

فقال الملك الغاضب المهتاج :

ــ يا خنوم حتب .. أنت تأبى الانصياع لأمرى ، فأن أمنحك نفتى بعد اليوم .

ووجم الكاهن ، واستولى عليه الجمود ، ثم مالت رأسه على صدره فى حزن ، وقال باستسلام :

ــ مولاى ، يحزننى وحق الأرباب جميعا أن أنسحب من ميدان خدمتكم المجيد ، وسأعود كما كنت من قبل عبدا صغيرا من عبيدكم المخلصين ..

***

وأحس الملك بارتياح بعد أن أرضى غضبه الكاسر ، وأرسل فى طلب سوفخاتب وطاهو ، وجاء الرجلان على عجل يتساءلان ، فقال لهما الملك فى هدوء :

ــ انتهيت من خنوم حتب .

وساد السكون العميق ، وبدت الدهشة على وجه سوفخاتب ، أما طاهو فبقى جامداً .. وكان الملك يقلب ناظريه فى وجهيهما فسألهما :

ــ مالكما لا تتكلمان ؟

فقال سوفخاتب : انه لأمر خطير يامولاى .

ــ اتراه خطيرا يا سوفخاتب ! .. وأنت يا طاهو ؟

وكان طاهو جامــدا ميت الاحساس ، لا رجع للحوادث فى قلبه ، ولكنه قال :

ــ انه عمل يا مولاى من وحى القوة المعبودة .

فابتسم الملك ، وكان ســوفخاتب يقلب الأمر على جميــع وجوهه ، فقال :

ــ سيجد خنوم حتب نفسه منذ اليوم أكثر حرية .

فهز فرعون كتفيه باستهانة ، وقال :

ــ لا أظن أنه يلقى بنفسه الى التهلكة .

واستدرك وقد غير لهجته :

ــ والآن بماذا تشيران على فيمن يخلفه ؟

وساد الصمت مدة ، ومضى الرجلان يفكران .

وابتسم الملك قائلا : انى أختار سوفخاتب فما رأيكما ؟

فقال طاهو بصدق :

ــ ان من اخترت يا مولاى لهو القوى الأمين .

أما سوفخاتب ، فبدا على وجهه الانزعاج وهم بالكلام ، ولكن سبقه فرعون قائلا :

ــ هل تتخلى عن مولاك وقت الحاجة اليك ؟

فقال سوفخاتب وهو يتنهد :

ــ ستجدنى يا مولاى من المخلصين .

الرئيس الجديد

وأحس فرعون فى العهد الجديد بطمأنينة ، فسكن غضبه ، وترك الأمور بين يدى الرجل الذى يثق به ، وولى وجهه نحو المرأة التى استولت على نفسه وقلبه وحواسه ، ففى جوارها كان يشعر بطيب الحياة وبهجة الدنيا وأفراح النفس .

أما سوفخاتب فكان ينوء بالتبعة على عاتقه ، ويعلم علم اليقين أن مصر تستقبل توليته بحذر وتجهم ، وسخط مكتوم . وقد أحس بالوحشة منذ اللحظة الأولى التى وطئت فيها قدماه دار الحكومة ، فالملك يرضى من الدنيا بالحب ، ويولى كشحه الهموم والواجبات جميعا ، وحكام الأقاليم يوالونه بوجوههم ، وقلوبهم تتبع كهنتهم المنبثين فى كل مكان . وتلفت الوزير حوله ، فلم يجد سوى القائد طاهو عونا ومشيرا ، وهما رجلان يختلفان فى أمور كثيرة ، ولكنهما يأتلفان على حب فرعون والاخلاص له . فلبى القائد نداءه ، ومد يده اليه ، وشاركه وحشته وجل متاعبه ،

وكافحا معا لانقاذ سفينة يطوف بها موج صاخب ، وتتجمع فى أفقها السحب والزوابع . على أن سوفخاتب كانت تنقصه مزايا القبطان المحنك ، كان مخلصا ينضح قلبه بالأمانة والوفاء ، حكيما تتجلى له حقائق الأمور ، ولكن كانت تعوزه صفات الشجاعة والحزم ، فرأى الخطأ منذ البدء ، ولكنه لم يحاول اصلاحه بقدر ما مضى فى مداراته وتهوين عقباه ، خشية اغضاب مولاه أو ايلامه ، وهكذا اطردت الأمور فى السبيل الذى شقه الغضب ...

وجاءت عيون طاهو الساهرة بخبر هام . قالوا ان خنوم حتب

ارتحل بغتة الى منف ، العاصمة الدينية ، فأحدث الحبر دهشة لدى الوزير والقائد ، واحتارا فى السبب الذى من اجله رضي الرجل بمشقة الانتقال من الجنوب الى الشمال . وتوقع سوفخاتب شرا ، ولم يشك فى أن خنوم حتب سيتصل بكبار رجال الكهنوت ، وجميعهم ساخطون لما حل بهم من ضنك ، ولعلمهم بأن الأموال التى ضن بها عليهم تبعثر تحت قدمى راقصة بيجة بغير حساب ، فما من أحد منهم يجهل هذه الحقيقة الآن ، ومن يجهلها سيعلم بها بغير ريب ، وسيلقى الكاهن فيهم تربة صالحة لبذر تعاليمه وترديد شكواه ..

وظهرت النذر الأولى لسخط الكهنة . فقد عاد الرسل الذين أذاعوا نبأ اختيار سوفخاتب وزيرا فى أنحاء القطر ، بالتهانى الرسمية من الأقاليم ، أما الكهنة فقد انطووا على صمت رهيب ، حتى قال طاهو : « لقد بدأونا بالتحدى » .

ثم حملت الرسائل تترى من جميع المعابد ، وعليها توقيع جميع الكهنة من جميع الطبقات تلتمس من فرعون اعادة النظر فى مسألة أراضى المعابد . فكان اجماعا خطير الشأن ، زاد من متاعب سوفخاتب .

وفى يوم من الأيام دعا سوفخاتب طاهو الى دار الحكومة ، وجاءه القائد يسعى ، فأشار الوزير الى كرسى الوزارة ، وهو يتنهد ، وقال :

ــ يكاد هذا الكرسى أن يميد بى .

فقال طاهو :

ــ ان رأسك أكبر من أن يميد به هذا الكرسى .

فتنهد الرجل حزنا ، وقال :

ــ أغرقونى بسيل من الالتماسات .

فسأله القائد باهتمام :

هل عرضتها على فرعون ؟

ــ كلا أيهــا القائد . ان فرعون لا يأذن لانسان بمفاتحته فى هذا الموضوع ، وأنا لا أحظى بالمثول بين يديه إلا فى فترات متباعدة جدا .. أنى أشعر بالارتباك والوحدة .

وصمت الرجلان برهة ، فخلا كل منهما الى أفكاره ، ثم هز سوفخاتب رأسه متعجبا ، وقال وكأنه يحدث نفسه :

ــ انه للسحر بعينه .

ونظر طاهو الى الوزير نظرة غريبة ، وبغته المعنى الذى يقصده الرجل ، فسرت فى جسده قشعريرة وأمتقع لونه ، ولكنه كبح جماح نفسه ، وكان تعود ذلك فى المدة الجافة الأخيرة من حياته ، وسأل ببساطة كلفته جهدا جهيدا :

ــ أى سحر تعنى يا صاحب القداسة ؟

فقال سوفخاتب :

ــ رادوبيس ، أليست تنفث فى فرعون سحرا ؟ بلى وحق الأرباب ، ان ما بجلالته لسحرا مبينا ...

واهتزت نفس طاهو لذكر هذا الاسم ، وخال أنه يسمع شيئا عجبا يلمس بوقعه السحرى جميع الحواس والعواطف ، وكاد يزيل الصمام الذى أحكمه بقسوة على فوهة وجدانه ، فأصر على أسنانه بشدة وقال :

ــ يقول الناس ان الحب سحر ، والسحرة يقولون أن السحر حب .

فقال الوزير الحزين :

ــ بت أعتقد أن جمال رادوبيس سحر ملعون .

فحدجه طاهو بنظرة قاسية وقال :

ــ ألم تتل الرقية التى مكنت لهذا السحر ؟

فأحس الرجل بلوم القائد وامتقع لونه ، وقال بسرعة كأنما يدفع تهمة :

ـ لم تكن أول امرأة ..

ـ ولكنها كانت رادوبيس !

ـ رجوت لمولاى سعادة .

ـ فقدمت له سحرا وا أسفاه !

ـ نعم أيها القائد ، انى أشعر بأنى أخطأت خطأ بليغا ... ولكن ينبغى عمل شيء .

فقال طاهو وكان ما يزال يحس بمرارة :

ـ هذا واجبك يا صاحب القداسة .

ـ انى أطلب مشورتك .

ـ ان الاخلاص يبلغ غايته فى النصيحة الصادقة .

ـ ان فرعون لا يقبل ان يطرق انسان بين يديه مسألة الكهنة :

ـ الا تفضى برايك الى جلالة الملكة ؟

ـ هذا سبيل أودى بخنوم حتب الى التعرض الى غضب جلالة الملك .

فلم يجد طاهو ما يقوله ، وخطر لسوفخاتب خاطر فقال بصوت خافت :

ـ الا يمكن أن ترجى فائدة من تدبير اجتماع بينك وبين رادوبيس ؟

فسرت القشعريرة الى جسده مرة أخرى ، وانخلع قلبه فى صدره ، وكادت العواطف التى يبالغ فى كتمانها تنفجر ، وقال لنفسه : أن الشيخ لا يدرى ماذا يقول ، ويظن ان مولاه هو المسحور وحده .. ثم قال له :

ـ لماذا لا تجتمع بها أنت ؟

فقال سوفخاتب :

ـ لعلك أقدر منى على التفاهم معها .

فقال طاهو ببرود :

ـ اخشى أن تجد على رادوبيس ، وتسىء بى الظن فتشوه مسعاى لدى فرعون .. كلا يا صاحب القداسة ..

وتهيب سوفخاتب مواجهة فرعون بالحقيقة .

ولم يستطـع طاهو ملازمة مكانه ، لأن أعصـابه ثارت ، وزعزعت أركان نفسه عاطفة هوجاء شديدة الاغبرار ، فاستأذن من الوزير وانطلق لا يلوى على شىء ، تاركا وراءه سوفخاتب غارقا فى لجة عميقة من الأفكار والأحزان .

الملكتان

ولم يكن سوفخاتب وحده الذى تثقل رأسه الهموم .

كانت الملكة تقبع فى جناحها ، تنطوى على حزن دفين ، وألم بارح ، ويأس محروم من الشكوى ، تراجع مأساة حياتها بقلب كسير ، وتشاهد الأمور التى تقع فى الوادى بعينين حزينتين ، ولم تكن سوى امرأة خسرت قلبها ، أو ملكة يتقلقل بها عرشها . وقد انتهت العلائق بينها وبين الملك الى انقطاع لا يرجى له اتصال ، ما دام الملك يغرق فى هواه ، وما دمت هى تلوذ بصمت الكبرياء .

وساءها أن تعلم أن الملك يزهد فى النظر فى واجباته العليا ، وأن الحب أنساه كل شىء حتى تركزت السلطة فى يد سوفخاتب. ولم يكن يداخلها شك فى اخلاص الوزير للعرش ، ولكنها غضبت من استهتار الملك وذهوله ، وصدقت عزيمتها على العمل مهما كلفها الأمر ، ولم تتردد عن غايتها ، فدعت يوما سوفخاتب وطلبت اليه أن يرجع اليها فى الشئون التى تحتاج الى رأى الملك . وقد أرضت بذلك غضبها بعض الشىء ، وأرضت معه الوزير وهى لا تدرى ، الذى تنفس الصعداء ، وأحس بأن حملا ثقيلا رفع عن صدره الضعيف ...

وعلى أثر اتصال الوزير بها ، علمت بالالتماسات التى بعثت بها الكهنة من جميع أنحاء الوادى ، وقرأتها بصبر وجلد ، فقرات الكلمة التى أجمع عليها رأى الصفوة من أفذاذ المملكة ، وأحست بالخطورة المستترة خلف أسطرها المتزنة الحازمة ... وتساءلت فى حيرة وألم ، ما عسى أن يكون الحال لو أيقن الكهنة

أن فرعون يضرب برجواتهم عرض الحائط ؟.. فالكهنة قوة عظيمة ، وهم يتسلطون على عقول الشعب وقلوبه ، وهو يستمع اليهم فى المعابد والمدارس والجامعات ، ويطمئن الى أخلاقهم وتعاليمهم اطمئنانه الى مثله العليا ... فكيف تطرد الأمور اذا يئس هؤلاء القوم من عطف فرعون ؟ .. وقنطوا من اصلاح الأمور التى يروها قط تسير فى طريقها التى تسير فيه أى عهد من العهود المجيدة الفخور التى طواها الماضى الخالد ؟

وما من شك فى أن الأمور تتعقد تعقدا خطيراً ، ويندفع نهر الشقاق ، فيفرق بين الملك النائم الحالم بجزيرة بيجة ، وبين شعبه المخلص الأمين ، ويقف سوفخاتب منه موقف الحائر لا يغنى عنه اخلاصه ولا حكمته شيئا ..

وأحست الملكة بأنه ينبغى عمل شىء . وأن ترك الأمور تسير الى غايتها ينذر بمتاعب ، فينبغى أن تمحو عن وجه مصر الهادىء الجميل التقلص الذى يعتوره ، وأن تعيد اليه هدوءه وجماله .. فما عسى أن تصنع ؟.. كانت بالأمس ترجو أن تفوز باقناع زوجها بالحق . ولكنها اليوم لا يعاودها اليه أمل ، ولم تنس بعد ما وجه الى كبريائها من طعنة نجلاء ، فنفضت على الأثر منه يديها يائسة حزينة ... وفتشت عن سبيل جديد تصل منه الى غرضها . لكن ما غرضها ؟.. لقد فكرت فى ذلك ملياً ، ثم قالت لنفسها : « غاية ما آمل أن أفوز به ، أن يرد فرعون الى الكهنة الأراضى التى انتزعها منهم .. » . ولكن ما السبيل الى ذلك ؟ .. ان الملك غضوب ذو كبرياء عنيف ، ولا يمكن أن يتقهقر أمام انسان . ولقد أمر بنزع الأراضى فى ساعة غضب خطير ، ولكن ما من شك فى أن اشياء غير الغضب تدعوه الى الاحتفاظ بالأراضى فى حوزته ، ومن يعرف قصر بيجة وما ينفق الملك عليه من ذهب يدرك ماهية هذه الأشياء ، لقد سموه

بحق قصر بيجة الذهبى ، لكثرة ما به من التحف الذهبية والأثاث المصنوع من خالص الذهب . فلو سدت هذه الفوهة التى تبتلع أموال الملك ، لربما هان عليه أن يفكر فى رد أراضى المعابد الى الكهنة . ولم تكن تطمع فى صرف الملك عن غانية بيجة ، ولا فكرت فى ذلك ، ولكنها كانت ترجو لاسرافه حداً . وتنهدت عند ذلك وقالت لنفسها : الآن وضح غرضى ، فينبغى أن نجد وسيلة لاقناع الملك ، بالتحول عن الاسراف الشديد ، ثم نقنعه بعد ذلك برد الأراضى الى أصحابها ، ولكن كيف نقنع الملك ؟.. لقد أسقطته من حسابها ، ولكنها تجده وراء كل حساب . لقد فشلت فى اقناعه ، ولن يكون سوفخاتب ولا طاهو بأسعد منها حظا ، فالملك يحكمه الهوى ولا سبيل اليه. وقد أفلت منها هذا السؤال « من القادر على اقناع الملك ؟ » فسرت فى جسدها قشعريرة أليمة ، اذ حضرها الجواب سريعا ، ولكنه كان مروعا أليما ، ولم تكن تجهله . ولكنه كان من الحقائق التى يتجدد الألم بها كلما عاودتها الذاكرة ، فقد قضت الأقدار أن يكون هذا الانسان المتحكم فى الملك ، المسير له ، غريمتها راقصة بيجة ، التى حكمت عليها بالعزلة الى الأبد ... هذه هى الحقيقة المؤلمة التى تسأم التسليم بها كما يسلم الانسان بحقائق الموت والشيخوخة والمرض العضال ...

وكانت الملكة امرأة حزينة ، ولكنها كانت كذلك ملكة عظيمة بعيدة الآفاق . وكانت تتناسى أنها امرأة ، وان لم تستطع أن تنسى ذلك ، فظل قلبها يحوم حول زوجها الملك ، والمرأة التى خطفته من بين يديها . ولكنها لم تتناس قط انها الملكة ، ولم تغفل لحظة عن واجباتها ، وصدقت عزيمتها على انقاذ العرش والاحتفاظ به فى مرتقاه فوق منال الهمس والتذمر . ترى هل انتهت الى هذا العزم بدافع واجبها فحسب ؟.. أم كانت هنالك دوافع أخرى ؟. ان أفكارنا مسوقة دائماً للطواف بمن

نحب ومن نكره ، فنجذب اليهم بقوة خفية كما تجذب الفراشة الى نور المصباح . ولقد أحست من بادىء الأمر برغبة فى رؤية رادوبيس التى ترامت اليها أخبارها . ولكن ما معنى هذا ؟ .. أتذهب اليها لتحدثها فى شئون مصر ؟. أتذهب الملكة نيتوقريس الى الراقصة التى تعرض نفسها فى سوق الهوى ، وتخاطبها باسم حبها المزعوم للملك ، أن ترده عن الاسراف وتعيده الى واجبه ؟.. يا لها من صورة بشعة !..

وكانت الملكة ضاقت بانزوائها ، وضغطت عليها عواطفها الخفية وواجبها المبين ، لتخرج من صمتها وسجنها الطويل ... فلم تعد تستطيع صبراً ، واقنعت نفسها بأن واجبها يدعوها الى عمل شيء ما ، والى بذل محاولة أخرى ... وتساءلت فى حيرتها : « أأذهب حقا الى هذا المراة ، والفتها الى واجبها ، وأطلب اليها أن تنقذ الملك من الهاوية التى يندفع اليها ؟ .. » وأسلمها تساؤلها هذا الى حيرة طويلة ، وارتباك محزن ، هويا بها الى الهوس والهذيان ، ولكنها لم ترجع عن فكرتها . وما كانت تزداد الا تصميما ، كانت كسيل يندفع فى منحدر لا يستطيع عنه حولا ، ولكنه يندفع مضطربا مزبداً كاسراً .. فقالت فى نهاية المعركة الناشبة « سأذهب ... » .

***

وفى صباح اليوم الثانى لبثت تنتظر عودة الملك ، واستقبلت الضحى فى سفينة ملكية ، ابحرت بها قاصدة الى قصر بيجة الأبيض الذهبى . وكانت تشملها حالة ذهول محزن ، ولم تكن ارتدت ثوبا ملكيا ، فاحست لذلك بسخط واستياء . ورست السفينة على سلم القصر ، فهبطت اليه واستقبلها عبد من الرقيق ، فقالت له : انها زائرة تطلب مقابلة ربة القصر ، فتقدمها الى بهو الاستقبال ، وكان الجو بارداً ، وريح الشتاء ترسل

هبات قارسة خلل أغصان تعرت كأذرع محنطة .. وجلست فى البهو تنتظر وحدها ، وكانت تشعر بغرابة وحيرة ، وتحاول تعزية نفسها بقولها انه يصح أن تخفض الملكة من كبريائها فى سبيل واجبها الأسمى ، ولكنها أحست بالانتظار يطول وتساءلت قلقة : « هل تدعها تنتظر طويلا كما تفعل مع الرجال » . ولحقها جزع مؤلم . وندمت على تسرعها بالحضور الى قصر غريمتها ...

وفاتت دقائق قبلما سمعت حفيف ثوب ، فرفعت رأسها المثقل ، فوقعت عيناها لأول مرة على وجه رادوبيس . كانت رادوبيس بغير ريب . وقد أحست بلذعة ألم ويأس ، ونسيت لحظة همومها وما جاءت من أجله أمام الحسن الهلوك . وبغتت رادوبيس نفسها أمام جمال الملكة الرزين وجلالها المجيد .

وسلمتا باليد وجلست رادوبيس الى جانب ضيفتها الجليلة المجهولة ، ولما وجدتها تلوذ بالصمت قالت بصوتها الموسيقى :

ـ نزلت قصرك ...

فردت الضيفة بصوت بالغ فى جلاله قائلة باقتضاب :

ـ شكراً ...

فابتسمت الغانية وقالت :

ـ ليت ضيفتنا تؤذننا بشخصها الجليل .

وكان السؤال طبيعياً ولكن الملكة ضاقت به كأنها لم تكن تتوقعه ، ولم تجد بدآ من اعلان نفسها ، فقالت بهدوء :

ـ أنا الملكة ...

ونظرت الى المرأة لترى تأثير تصريحها فى نفسها ، فشاهدت ابتسامتها تغيض ، وعينيها تلمعان دهشة ، وصدرها يمتلىء ويتصلب كالأفعى اذا هوجمت .. ولم تكن الملكة هادئة كما تبدو ، فقد تغير قلبها لدى رؤية غريمتها ، وأحست بدمائها تلتهب وتحرق عروقها جميعاً ، وشعرت بالكراهية والبغضاء ، وتواجهتا كغريمتين تتحفزان للقتال ... واستولت عليها حالة مريرة ملوثة

بالغضب والحقد . ونسيت الملكة الى حين كل شيء الا أنها بازاء المرأة التى سلبتها سعادتها ، ونسيت رادوبيس كل شيء الا أنها أمام المرأة التى تقاسم حبيبها اسمه وعرشه ...

وتبودل الحديث بينهما بادىء الأمر فى ذلك الجو المشبع بالغضب والحقد فجرى مجرى عنيفاً محزنا ، وكانت الملكة مستاءة لعدم اكترات غريمتها ، فقالت باستياء :

ــ ألا تدرين أيتها السيدة كيف تحيين الملكة ؟...

فجمدت رادوبيس فى مكانها ولفحت قلبها هبة من انفعال شديد ، وكادت تنفجر لتنفس عن صدرها الكظيم . ولكنها ملكت أعصابها ، وكانت تعرف طريقة أخرى للانتقام فرسمت ابتسامة على وجهها وأحنت راسها وهى جالسة ، وقد أسندت ظهرها الى المقعد فى تراخ واستهانة ، وقالت بلهجة لم تخل من سخرية :

ــ انه ليوم عظيم يا صاحبة الجلالة سيذكر لقصرى فى التاريخ ...

والتهب وجه الملكة غضباً ، فقالت بانفعال :

ــ لم تعدى الحقيقة ، فسيذكر قصرك هذه المرة ذكراً جميلا لا كما تعود أن يذكره الناس .

فنظرت اليها بسخرية تستر غيظا وحنقاً ، وقالت :

ــ ألا سحقا للناس ... أيذكرون بالسوء قصرا يجعله مولاهم مرتعا لقلبه وهواه !! ...

وتلقت الملكة هذه الطعنة بجلد ، ونظرت الى الغانية نظرة ذات معنى ، وقالت :

ــ ليست الملكات كغيرهن من النساء يشغلن قلوبهن بالحب ..

ــ أحقا يا مولاتى ... كنت أحسب الملكة امرأة بعد كل شيء ...

فقالت الملكة بلهجة مغيظة :

ـ هذا لأنك لم تكوني ملكة فى يوم من الأيام . . .
فامتلأ صدر المرأة وتصلب ، وقالت :
ـ عفوا يا مولاتى ، انى ملكة حقا .
فحدجتها بنظرة غريبة ، وقالت بسخرية :
ـ يا للعجب ، وعلى أى مملكة . . !
فقالت بزهو كبير :
ـ على أوسع الممالك طراً . . قلب فرعون . .
وأحست الملكة بوهن والم ، وخجل ، وأيقنت أنها انحدرت الى مساجلة الراقصة القتال ، وأنها خلعت ثوب الجلال والوقار . وتبدت عارية فى جلد المرأة الغيور التى تنافح لاسترداد رجلها ، وتمسك بتلابيب غريمتها وتكيد لها كيداً . ونظرت لموقفها وموقف غريمتها ، وهى تجلس منها جلسة متعجرفة ، وترد سهمها الى نحرها ، وتتيه عليها بحب زوجها وسلطانه ، فشعرت بغرابة وذهول وحيرة ، وتمنت لو تكون فى حلم ثقيل سخيف .
وأماتت عواطفها جميعا ، ودفنتها فى أعماق نفسها ، وارتدت سريعا الى طبيعتها المتعالية ، وجرى فى عروقها مكان الغضب والحقد دم أزرق لا يدين بغير الكبرياء . فذكرت الغرض الذى جاءت من أجله ، وصدقت عزيمتها على أن تكفر عما بدر منها .
وطالعت المرأة بوجه هادىء ظاهراً وباطنا ، وقالت لها :
ـ أيتها السيدة ، انك لم تحسنى لقاء الملكة ، ولعلك أسأت فهم الغرض من زيارتى فثرت وغضبت ، ولكن اعلمى علم اليقين أنى ما قصدت الى قصرك لشأن يخصنى أنا . . .
فسكتت رادوبيس وحدجتها بنظرة مليئة بالارتياب ، ولم يسكت عنها الحقد او الغضب . وتناستها الملكة ، وقالت فى هدوء :
ـ لقد جئتك أيتها السيدة من أجل أمور أجل ، أمور تتعلق بالعرش المجيد ، والسلام الذى ينبغى أن يسود العلائق بين صاحب العرش ورعاياه .

فقالت رادوبيس بانفعال وسخرية :

ــ يا للأمور الجليلة ! وماذا أستطيع حيالها يا مولاتى ؟.. ما أنا الا امرأة يلذ الحب أن يجعلها شغله الشاغل ...

فتنهدت الملكة ، وأغضت عن لهجتها ، وقالت :

ــ أنت تنظرين الى أسفل ، وأنا انظر الى أعلى ... لقد حسبت أنك تغارين على مجد مولاك وسعادته ، واذا صدق حسبانى ، فينبغى أن تهديه سواء السبيل . انه يفنى فى قصرك تلالا من الذهب ، وينتزع من صفوة رجاله أراضيهم حتى ضج الناس بالألم ، وجأروا بالشكوى . وقالوا ان مولانا يبخل علينا بمال يبعثره على امرأة يحبها بغير حساب . فواجبك ان كنت تغارين على مجده حقا ، بين كالشمس فى يوم صاف ... أن تصديه عن الاسراف ، وتقنعيه برد المال الى أصحابه ...

ولكن رادوبيس لم يدعها الغضب تفهم ما تقوله الملكة حق الفهم ، وكان وجدانها ثائراً وحقدها شديدا ، فقالت بقسوة :

ــ ان الذى يحزنك حقا هو أنك ترين الذهب يتحول مع عطف فرعون الى قصرى ...

فانتفض جسمها ، وسرت فيه قشعريرة ، وصاحت بها :

ــ يا للبشاعة ..

فقالت رادوبيس بغضب وخيلاء :

ــ لن يفرق شىء بينى وبين مولاى .

فغلب الصمت لسان الملكة ، وأحست بيأس شديد وجرح عميق فى كبريائها ، ولم تطمع فى فائدة من الانتظار ، فقامت واقفة وولت المرأة ظهرها ، وسارت فى طريقها متألمة حزينة غاضبة ، لا تكاد ترى طريقها من شدة الغضب .

وصعدت رادوبيس انفاساً مضطربة ، وأسندت رأسها الساخن الى كفها ، وراحت فى تفكير قلق حزين ...

قبس من النور

وتنهدت رادوبيس من قلب مقروح ، وقالت لنفسها :
« وأسفاه انى أتناسى العالم ، ولكنه يأبى أن ينسانى أو أن يدعنى فى طمأنينة بعد أن تطهرت من الماضى وأوشابه .. رباه .. أحقا ان الكهنة يتهمون قصرها بابتلاع أموالهم المغتصبة ؟.. أحقا انهم يساقون حبها بألسنة من لهب ؟. لقد انكمشت فى قصرها راضية ، وانقطعت صلاتها بالناس جميعا ، وغاب عنها وجه الدنيا ، فلم يدر لها بحسبان أن يجرى اسمها بالسخط على ألسنة قوم أشداء ، وأن يتخذوا منها سلما يرتقون عليه الى لمز حبيبها المعبود . وهى ما تظن أن الملكة تبالغ ، وان تنوعت الدوافع التى تسوقها الى الكلام ، فقد ترامى اليها فى زمن مضى أن الكهنة يشفقون من استرداد فرعون لأراضيهم ، وقد سمعت بأذنيها فى عيد النيل قوما من أولئك المشفقين يهتفون باسم خنوم حتب ، فلا شك أن وراء العالم الهادىء الجميل الذى تعيش فيه عالما صاخبا تعلى مراجله بالآحزان والأحقاد ..
وتكدرت نفسها بعد صفاء دام أشهرا طوالا لم تذق مثلها فى حياتها جميعا ، وأحست بأضلعها تحنو على حبيبها وتدر عطفا وحبا ، وذكرت فى غمرات حزنها الطارىء ما قال آنى يوما من أن الحرس الفرعونى هو القوة الوحيدة التى يعتد بها الملك ، فتساءلت فى هلع : لماذا لا تجند الجنود ؟ لماذا لا يعبىء معبودها جيشا عرمرما ؟..

وقضت سحابة نهارها فى مخدعها كئيبة ، ولم تذهب كعادتها الى الحجرة الصيفية لتجلس أمام المثال بنامون ، لأنها لم تكن

تطيق الاجتماع بانسان ، ولا القعود بلا حراك أمام عيني الشاب المنهومتين .. فلبثت وحدها حتى الأصيل ، ولم تذق للراحة طعما حتى رأت حبيبها المعبود يلج باب مخدعها ، يرفل فى ثيابه الفضفاضة فتنهدت من أعماق قلبها ، وفتحت له ذراعيها وضمها الى صدره العريض كما يفعل كل مساء ، وطبع على وجهها قبلة اللقاء السعيد ، ثم جلس الى جانبها على الديوان الوثير ، وكانت نفسه تفيض بذكريات جميلة أثارها فى قلبه مشهد النيل الذى حمل سفينته منذ حين قليل : فقال لها :

ـ أين الصيف الجميل ؟.. أين لياليه الساهرة ، اذ تشق بنا السفينة جبهته المتجمدة الدكناء ، واذ نسلم فى المقصورة أنفسنا للنسيم والهوى ، ونستمع لعزف العازفات ، ونشاهد بأعين حالمة رقص الراقصات ؟

ولم تكن تستطيع أن تجاريه فى تذكره ، ولكنها لم ترض أن يحس بالعزلة فى عاطفة أو فكر ، فقالت :

ـ مهلا يا حبيبى ، ليس الجمال فى الصيف ولا فى الشتاء ، ولكنه فى حبنا ، وستجد الشتاء دفئا حنونا ما دام وقوده .

فضحك ضحكته العظيمة التى يضطرب لها وجهه وجسمه ، وقال :

ـ ما أجمل حديثك .. انه اشهى الى قلبى من مجد الدنيا جميعا .. ولكن ماذا تقولين فى الصيد والقنص ؟.. سنذهب مع الغد الى سفح الجبل ، ونعدو فى أعقاب الغزلان ، ونلهو حتى نشبع نفوسنا المنهومة ..

فقالت وقد غلبها الشرود :

ـ لتكن مشيئتك يا حبيبى ..

فحدجها بنظرة فاحصة ، وأدرك لتوه أن لسانها يحادثه وقلبها يتيه بعيدا . فقال :

ـ رادوبيس .. أقسم بالنسر الذى ألف بين قلبينا أن فكرا يسلبنى اليوم عقلك ..

فنظرت اليه بعينين حزينتين وأعياها القول ، فقال وقد بدا عليه الاهتمام :

ـ صدق حدسى فعيناك لا تكذبانى ، ولكن ماذا تمسكين عنى ؟.

فتنهدت من أعماق قلبها ، وعبثت يمناها بعباءته وهى لا تدرى ، ثم قالت بصوت خافت :

ـ انى أعجب لحياتنا ، فلشد ما ننسى ما حولنا كأننا نعيش فى عالم قفر غير معمور .

ـ نعم ما نصنع يا حبيبتى ، فماذا أفدنا من العالم غير الضجيج الفارغ والمجد الكاذب ، ولبثنا ضالين حتى هدانا الحب ، فمالك تتذمرين ؟.

فتنهدت مرة أخرى وقالت بحزن :

ـ ماذا ينفعنا النوم اذا كان من حولنا أيقاظا لا يغمض لهم جفن ؟.

وقطب جبينه ، والتمعت عيناه بنور خاطف . وأدرك بقلبه وساوسها ، فسألها بقلق :

ـ ما الذى يحزنك يا رادوبيس ؟.. صارحينى بأفكارك ، فحسبنا ما أضعنا فى غير حديث الحب .

فقالت : لست اليوم كأمس ، فقد نقل الى بعض عبيدى الذين يمشون فى الأسواق حديث قوم غاضبين يحز فى نفوسهم أن مولاهم حرمهم من أراضيهم ، ويضاعف من آلامهم أن أموالهم تنفق على قصرى هذا ..

فتبدى الغضب على وجه فرعون ، ولاح له شبح خنوم حتب يطل على جنته المطمئنة ، فيكدر صفوها ، ويزعج أمنها . واشتد

به الغضب ، فصبغ وجهه بلون النيل فى ابان فيضانه ، وقال لها بصوت متهدج :

ــ أهذا الذى يحزنك يا رادوبيس ؟... الويل لأولئك المتمردين لا يسكون عن غيهم ؛ ولكن لا تكدرى صفونا ، ولا تبالى تباكيهم .. دعيهم لشأنهم ، وافرغى لى ..

فأحاطت يده بكفيها ، وضغطت عليها بحنو ، ونظرت اليه بعينين ضارعتين ، وقالت :

ــ أنا حزينة قلقة ، ويؤلمنى أن أكون سببا لشكوى قوم منك .. وكأنى أحس بخوف غامض لا أدرى ما كنهه .. والحب يا مولاى شديد المخاوف .

فقال باستياء وغضب :

ــ كيف تخافين ، وأنت بين يدى ؟.

فقالت بتوسل :

ــ مولاى .. انهم يرمقون حبنا بعين الحسد ، وينفسون على هذا القصر الحب والطمأنينة والنعيم . ولقد قلت لنفسى فى حزنى وقلقى : ما للحب وهذا الذهب الذى ينثره مولاى على ؟ ولا أنكر عليك أنى كرهت الذهب الذى يؤلب قوما علينا . ألا ترى أن هذا القصر سيظل جنتنا ولو تعرت أرضه ومسخت حوائطه ؟.. اذا كان بريق الذهب يا مولاى يخطف أبصارهم فاملأ به أيديهم يعموا ويزدردوا ألسنتهم ..

ــ واأسفاه يارادوبيس ، انك تذكريننى بحديث أكره سماعه.

فقالت بتوسل :

ــ مولاى انه غشاوة فى سماء سعادتنا ، فامحها بكلمة .

ــ وما الكلمة هذه ؟.

فقالت بفرح ، وقد ظنت انه يلين ويرضخ :

ــ أن ترد اليهم أراضيهم .

فهز رأسه بعنف ، وقال بلهجة شديدة :

ـ انت لا تدرين من الأمر شيئا يا رادوبيس ، لقد قلت كلمتى فلم تحترم ، ونفذت على كره ، ولم يسكتوا عن الاحتجاج ، وما انفكوا يتحدوننى ، فالتسليم لهم هزيمة لا أرضاها ، وأتمنى دونها الموت . أنت لا تدرين معنى الهزيمة فى نفسى ، انه الموت . ولو فازوا على بنيل بغيتهم لوجدتنى رجلا غريبا حزينا أسيفا لا قدرة له على الحياة ولا الحب .

ونفذت كلماته الى قلبها ، فشدت على يديه بقوة ، وأحست برجفة تسرى فى أوصالها . وقد هان عليها كل شىء الا أن يصبح لا قدرة له على الحياة والحب . ونبذت رغبتها ، وأسفت على توسلاتها ، وصاحت بصوت متهدج :

ـ لن تذل أبدا .. لن تذل أبدا .

فابتسم اليها بحنو ، وقال :

ـ نعم لن أذل .. ولن تكونى القضاء الذى يسومنى الذل أبدا ..

فقالت وهى تلهث ، وقد ارتعش جفناها فوق دمعة حارة :

ـ لن تذل .. ولن تهزم .

وأسندت رأسها الى صدره ، واستنامت الى خفقان قلبه . واحست فى غيبوبتها بأنامله تعبث بخصلات شعرها وخديها ، ولكنها لم تطمئن طويلا ، فقد أزعجها خاطر من الخواطر التى كدرت يومها ، فرفعت اليه رأسها ، ونظرت اليه بعينين قلقتين ، فقال لها :

ـ مالك ..

فقالت بعد تردد :

ـ يقولون انهم فئة قوية ، ذات سلطان على قلوب الناس وعقولهم .

فابتسم قائلا :

ـ ولكنى الأقوى ..

فترددت هنيهة ثم قالت :

ـ لماذا لا تعبىء جيشا قويا يأتمر بأمرك ؟

فابتسم الملك ، وسألها :

ـ أرى الوساوس تعاودك .

فتنهدت فى غيظ ، وقالت :

ـ ألم يبلغ أذنى أن الناس تهمس فيما بينها بأن فرعون يأخذ أموال الآلهة وينفقها على راقصة ؟. همس الناس اذا تجمع صار صراخا .. انه كالشرر يندلع لهيبا .

ـ يا لك من متطيرة متشائمة ..

فعادت تسأله بالحاف :

ـ لماذا لا تدعو الجنود ؟.

فنظر اليها نظرة طويلة ، وقد بدا عليه التفكير ، ثم قال :

ـ ان الجنود لا تدعى بغير سبب .

وبدا على وجههالغضب ، فاستدرك :

ـ انهم يضللون الأفكار ، ويشعرون بغضبى عليهم . فاذا أمرت بالتجنيد لحقهم الذعر ، وربما هبوا يائسين للدفاع عن انفسهم ..

ففكرت مليا ، ثم قالت بصوت حالم ، وكأنها تحدث نفسها :

ـ اخلق العلل وادع الجنود .

ـ ان العلل تخلق نفسها بنفسها .

فأحست بيأس ، وأحنت رأسها الحزين ، وأغمضت عينيها . ولم تكن ترجو أملا ، ولكن لاح لها فى الظلام الدامس خاطر سعيد كلمح البصر ، فبهتت وذهلت ، وفتحتعينيها ، فاذا الفرح يتألق

فيهما . ودهش الملك ، ولكنها لم تباله ، وقالت وهى لا تملك عواطفها :

ـ وجدت سببا !.

فنظر اليها متسائلا ، فاستطردت :

ـ قبائل المعصايو .

فأدرك قصدها ، وهز رأسه يائسا ، وتمتم قائلا :

ـ لقد عقد رئيسهم معنا معاهدة سلام .

ولكنها لم تيأس ، وقالت :

ـ من يدرى بما يجرى وراء الحدود ؟ ان لنا هنالك أميرا حاكما من رجالنا . فلنبعث اليه برسالة سرية مع رسول أمين أن يزعم وجود ثورة وقتال ، ويرسل فى طلب النجدة ، فتسمع صوته الملأ ، وتدعو الجنود فتأتيك من الشمال والجنوب ، حتى اذا اجتمع لواؤها اليك ، وصلت بها جناحك ، وأشهرتها سيفا فى يدك تعلى به كلمتك وتفرض طاعتك .

واستمع لها فرعون فى ذهول ودهشة ، وقد عجب أيضا لأنها لم تخطر له ببال . على أنه لم يكن يفكر كثيرا فى تكوين جيش قوى لا تدعو اليه الحالة الحربية ، واعتقد ــ وما زال يعتقد ــ أن تذمر الكهنة لا يمكن أن يبلغ من الخطورة حدا يستدعى معه جيشا كبيرا لقمعه . ولكنه بات يعتقد أن عدم وجود هذا الجيش هو ما يطمع القوم فيه ويغريهم برفع الالتماسات واعلان الشكوى ، ووجد فكرة رادوبيس السهلة فرصة سعيدة ، ومال اليها بجامع قلبه . وكان اذا مال الى شىء تعلقه ، وانشغل به واندفع فى سبيله برغبة جنونية لا يلوى على شىء . لهذا نظر الى عينى رادوبيس بفرح وابتهاج ، وصاح بصوت قوى : نعم الفكرة يا رادوبيس ! نعم الفكرة !.

فقالت بفرح غريب :

ــ هذا ما يحدثنى به قلبى .. وانها لسهلة التحقيق سهولة تناولى هذه القبلة من فيك الحبيب .. وما علينا الا الكتمان .

ــ نعم يا حبيبتى .. ألا ترين أن عقلك كقلبك كنز ثمين ؟. وحقا ما علينا الا الكتمان ، واختيار رسول أمين . فدعى هذا لى.

فسألته : من عسى أن يكون رسولك الى الأمير كارفنرو ؟

فأجابها ببساطة : سأختار حاجبا من رجالى المخلصين .

وكانت لا تطمئن الى قصره العظيم ، لغير ما سبب معقول ، ولكن بدافع من نفور قلبها من مكان تقيم فيه الملكة . ولم تستطع قط أن تعبر عن هواجسها ، وتحيرت فيمن عسى أن يكون الرسول اذا لم يكن من رجال القصر .. وزاد من حيرتها أنها أدركت أن افتضاح السر معناه شديد الخطر ، حتى ليكبر ذكره على الخاطر . وهمت فى لحظة يأس بالعدول عن مشروع حرج شديد الخطورة كهذا ، ولكنها ذكرت بغتة الشاب الطفل ذا العينين الصافيتين الذى يعمل بالحجرة الصيفية ، وأحست الى ذكره بطمأنينة غريبة ، فهو الصفاء وهو السذاجة والطهارة ، وقلبه معبد تقدم لها فيه طقوس العبادة صباح مساء .. فهو هو رسولها .. وهو هو الأمين . ولم تتردد فقالت له بثقة :

ــ دعنى أختار الرسول بنفسى .

فاستضحك الملك وقال :

ــ يا لك من رعديد اليوم .. لست كعهدى بك .. ومن عسى أن تختارى يا ترى ؟.

فقالت بخشوع :

ــ مولاى .. المحب شديد المخاوف ، ورسولى فنان يزخرف الحجرة الصيفية ، له سن شاب ونفس طفل وقلب عذراء طاهرة ، ويخلص لى اخلاصا لا مزيد عليه . ومزيته الظاهرة أنه لا يثير الشبهات ولا علم له بشىء ، وأنه لخير لنا أن يحمل رسالتنا من

لا يدرى بأمرها الشديد الخطر .. فلو جهلنا الخوف لاقتحمنا المهالك آمنين .

فهز الملك رأسه راضيا ، وكان يكره أن يقول لها لا . وظنت رادوبيس أن السحابة انقشعت واذا كان انقشاعها على وجه غير الوجه الذى قصدت اليه بادىء الأمر . ففرحت وأطلقت لفرحها العنان ، وايقنت أنها ستستطيع عما قريب ان تذهل عن الدنيا فى قصر الحب هذا ، تاركة أمر حمايتها لجيش عرمرم لا يهاض له جناح .

واحنت راسها الأحلام ، فراق الملك جمال شعرها . وكان يحبه ، فعبث بأنامله فى عقدته فانحلت وسال على كتفيها ، فتنشقه وجمعه بين يديه . وغمر به رأسه ووجهه فى دعابة حتى لم يبد منهما شىء .

الرســـول

وأشرق صباح اليوم الثانى ، وكان الجو باردا والسماء متلفعة بأردية السحب ، تبيض وتتوهج فوق منبع الشمس كوجه برىء يعلن ظاهره عن باطنه ، وتظلم الآفاق البعيدة كأنها ذيول ليل نسيها وراءه بعد أدباره ..

وكان ينتظرها عمل عظيم لا يرتاح اليه قلبها ، ولا يرضى عنه تطهرها يوم تطهرت فى المعبد . وأقسمت ليزولن الماضى بشوائبه. كان الذى ينتظرها أن تخدع بناموس ، وتعبث بعواطفه ليخدم حبها ويحقق غرضها . على أنها لم تتردد قط لأنه كان ينبغى أن تسبق الزمن ، وكانت تحنو على حبها حنوا كبيرا فلم تبال أن تقسو فى سبيلهما قساوة مرة ... وغادرت مخدعها الى الحجرة الصيفية عظيمة الثقة لأن التغرير ببناموس كان أمرا سهلا لا يكلف مكرا .. وسارت على أطراف أصابعها ، فوجدت الشاب يتطلع الى صورتها ، ويترنم مغنيا أغنية كانت تغنيها فى الأماسى الخوالى مطلعها :

اذا كان حسنك يصنع المعجزات
فلمـــاذا لا يقـــدر على شـــفائى

وأخذت بغنائه ، ولكنها انتهزت الفرصة ، وغنت تتم أغنيته.

هـــل أعبث بما لا علـــم لى به
والأفق مســــتتر خلف ســـحاب
وعسى أن تكون المدخـــر لقلبى

فتحول الشاب اليها فزعا مسحورا ، فتلقته بضحكة عذبة ، وقالت له :

ـ ان لك لصوتا عذبا ، فكيف أخفيته عنى طوال هذه الأيام ؟
فتصاعد الدم الى وجنتيه قانيا ، وارتجفت شفتاه أرتباكا ، وقابل تلطفها بدهشة .
وأدركت المرأة ما يدور بخلده ، فقالت تستدرجه :
ـ أراك تلهو بالغناء ، وتترك العمل ..
فبدا عليه الانكار ، وأشار الى صورتها المحفورة ، وتمتم : « انظرى » .
وكانت الصورة قد استوت وجها جميلا لا تنقصه الحياة ، فقالت بأعجاب :
ـ انك لقادر يا بنامون .
فتنهد الشاب ارتياحا ، وقال لها بامتنان :
ـ شكرا لك يا سيدتى .
فقالت تعطف الحديث الى غايتها :
ـ ولكنك قسوت على يا بنامون .
ـ أنا .. كيف يا مولاتى ؟
فقالت : خلقت لى نظرة جبارة ، وأنا أشتهى أن أكون كالحمامة .
فلزمه الصمت ولم يبن ، ففسرت صمته علىهواها ، وقالت :
ـ ألم أقل انك تقســو على .. فكيف ترانى يا بنامون .. اجبارة قاسية جميلة كهــذه الصورة ؟ يا لها من صورة ! انى أعجب كيف ينطق الحجر . ولكنك تحسب أن قلبى لا يشــعر كهذا الحجر ، أليس كذلك ؟ لا تهم بالفرار فهذا هو اعتقادك . ولكن لماذا يا بنامون ؟.
ولم يدر ما يقول ، فغلبه الصــمت ، وكانت توحى اليه بأفكارها ، فيصدقها وينساق اليها ويشتد ارتباكه ، واستدركت المرأة :

ـ لماذا يا بنامون تحسبنى قاسية ؟. انك تؤمن بالظواهر ، لأنك لا تقدر بطبعك على اخفاء ما يضطرب به صدرك ، وقد قرأت وجهك كصفحة من كتاب مفتوح . أما نحن فلنا طبيعة أخرى ، والصراحة تضـيع علينا لذة الفوز ، وتفسـد أجمل ما خلقت الآلهة لنا .

وساءل الشاب نفسـه حائرا : ماذا تعنى يا ترى ، وهل يستطيع أن يفهم من حديثها ما تدل عليه كلماتها . . أما كانت تجلس أمامه تائهة القلب والعينين ، لا تحس بالنار الملتهبة فى كيانه ؟ فما الذى غيرها ؟ لماذا تحدثه هذا الحديث الحلو ؟ لماذا تلج الى الأسرار الحلوة التى تحرق قلبه ؟! هل تعنى حقا ماتقول ! وهل تعنى حقا ما افهمه ؟ !

وخطت المرأة خطوة أخرى فقالت :

ـ آه يا بنامون انك تقسو على بدورك ، وآية ذلك الصمت الذى ترد به على .

فحدجها بنظرة والهة ، وكاد من الفرح تفر الدموع من عينيه ، وقد أيقن صدق ظنونه ، فقال بصوت متهدج :

ـ الدنيا لا تسعنى كلاما . .

فتنهدت ارتياحا أن حلت عقدة لسانه ، وقالت بصوت حالم :

ـ وما حاجتك الى الكلام ؟. فلن تقول شيئا أجهله . . أيتها الحجرة لقد شاهدتنا أشهرا ، وتركنا فى جسمك أثرا من قلوبنا خالدا . . نعم هاهنا عرفت سرا رهيبا . .

وتفرست فى وجهه زمنا قصيرا ، ثم قالت :

ـ الا تعرف يا بنامون كيف عرفت سر قلبى ؟. على حين بغتة عجيبة كانت لدى رسالة خاصة أريد أن أبعث بها الى انسان فى مكان قصى ، وأن أبعث بها مع رسول ترتاح اليه نفسى ، ويثق فيه قلبى . وكنت جالسة وحدى أستعرض أمام ناظرى أقواما

من الرجال والنساء ، ومن العبيد والأحرار ، وما أحس فى كل مرة الا بالجفاء والقلق . ثم لا أدرى ألا وخيالى يتسلل الى هذه الحجرة ، ووجدتنى فجأة أذكرك يا بنامون ، فترتاح نفسى ويطمئن قلبى ، بل أحسست بما هو أعمق من هذا ، وهكذا عرفت سر قلبى .

فغمر الفرح وجه الشاب ، وأحس بالسعادة الى حد الذهول ، فجثا على ركبتيه أمامها ، وهتف من أعماق قلبه :

ــ مولاتى !

فوضعت كفها على رأسه ، وقالت بحنان :

ــ هكذا عرفت سر قلبى ، وانى لأعجب كيف لم أعرف هذا من منذ أجل طويل .

فقال بنامون ، وكان يتيه فى غمرات الذهول :

ــ مولاتى ، أقسم لقد شهدنى الليل وأنا ذوب عذاب . وهاك الصبح يلقانى نسمة من سعادة معطرة . لقد أخرجتنى كلمة نطقت بها من الظلمات الى النور ، ونقلتنى من دياجير اليأس الى سحر السعادة . لقد أحييت نفسى بعد أن أشفيت على الفناء .. أنت سعادتى وحلمى وأملى .

وكانت تصغى اليه فى صمت حزين ، وقد شعرت بأنه يصلى صلاة حارة ، وأنه يهيم فى جهالة الأحلام الساذجة المقدسة ، فوجمت وعاودها شىء من الألم والندم . ولكنها لم تستسلم طويلا لعواطفها التى أثارها فى قلبها بهيامه ، فقالت فى دهاء :

ــ انى اعجب كيف لم أعرف قلبى منذ أجل طويل ، بل انى أعجب للمصادفات التى لم توفقنى الى سره الا حين حاجتى الى ارسالك الى مهمة بعيدة ، فكأنها دلتنى عليك ، وحرمتنى منك فى لحظة واحدة .

فقال الشاب بلهجة العبادة :

ــ سأفعل ما تريدين بروحى وقلبى .

فسألته بعد تردد :

ـ وان كان ما آريد سفرا الى بلد لا تبلغه الا بشق الأنفس ؟!

ـ لن يشق على منه الا انى لا اراك كل صباح .

ـ فليكن غيابا الى حين . سأعطيك رسالة تودعها صدرك ، وتذهب الى حاكم الجزيرة بكلمة منى ، فيـدلك على الطريق ، ويذلل لك الصعاب . وستسافر مع قافلة لا ينبغى لأحد منها أن يطلع على ما فى صدرك حتى تبلغ حاكم النوبة ، فتسلمها له يدا بيد ، ثم تعود الى .

وأحس بنامون بسـعادة جديدة يمازجها شـعور بالنخوة والخيـلاء ، وكانت يدها على كثب منه ، فهوى بفمه عليهـا ولثمها بشوق ووجد ، ورأته يرتجف بقوة حين لمست شفتاه يدها .

وفى طريق العـودة عاودها احسـاس حزين ، حتى قالت لنفسهـا : أما كان أدنى الى الرحمـة أن أترك مولاى يختـار رسوله ، من أن اعبث بقلب هذا الشاب ؟. على أنه كان سعيدا . أسعدته كلمة كاذبة ، بل كان فى حالة يحسد عليها السـعداء حقا ، وليس لها أن تحزن ما دام لا يعرف الحقيقة ، حتى تيأس من لياذها بالكذب ! ! .

الرسالة

وفى مساء اليوم نفسه جاء فرعون يهز فى يده رسالة مطوية ، يشرق وجهه بنور السعادة ، فحدجتها بنظرة غريبة وتساءلت : ترى هل يكتب لفكرتها بالنجاح والتوفيق ، وتسير الأمور وفق أحلامها ! وبسط الملك الرسالة ، وقرأتها بعينين مبتهجتين ، وكانت موجهة الى الأمير كارفنرو حاكم النوبة من ابن عمه فرعون مصر . وقد صارحه فيها بمتاعبه ، وبرغبته فى تعبئة جيش جرار دون أن يثير مخاوف الكهنة أو يوقظ حذرهم ، وطلب اليه أن يبعث الى مصر برسالة استغاثة مع رسول أمين ذى صفة رسمية ، يطلب فيها نجدة سريعة للدفاع عن حدود الأملاك الجنوبية ، ولقمع ثورة وهمية يزعم أن قبائل المعصايو أشعلت نيرانها ، واجتاحت بها البلدان والقرى .

وطوتها رادوبيس مرة أخرى ، ثم قالت :

ـ ان الرسول على أهبة الاستعداد .

فقال الملك مبتسما :

ـ والرسالة جاهزة .

وبدا على وجهها التأمل والأحلام ، ثم سألت :

ـ ترى كيف يقابلون رسالة كارفنرو ؟

فقال الملك بلهجة اليقين :

ـ ستهز القلوب جميعا ، وقلوب الكهنة أنفسهم ، وسوف يدعو الحكام الى تجنيد الرجال من جميع أطراف البلاد ، فلا يلبث الجيش الذى يناط به آملنا أن يأتينا بعدده وعدده .

واستخفها الفرح وسألته بلهفة :

ــ وهل تنتظر طويلا ؟

ــ أمامنا شهر انتظار يقطعه الرسول فى الذهاب والاياب .

ففكرت هنيهة ، ثم عدت على أصابعها ، وقالت :

ــ اذا صدق حدسك تصادف عودته عيد النيل .

فضحك الملك وقال :

ــ هذا فال حسن يا رادوبيس ، فعيد النيل هو عيد حبنا ، وسيكون عيد الفوز والطمأنينة .

وتفاءلت هى خيرا ، وكانت تؤمن بأنه لا يمكن أن تفقد أملا عزيزا فى ذلك اليوم الذى تعده بحق مولدا لسعادتها وحبها . وأيقنت أن اقتران عودة الرســول به ليس محض مصادفة ، ولكنه تدبير حكيم من يد آلهة تبارك حبها وتعطف على آمالها .

ورمقها الملك بنظرة اعجاب واكبار ، ثم قبل رأسها وقال :

ــ لله هذا الرأس التمين .. لشد ما أعجب به سوفخاتب ، ولشد ما أعجب بالفكرة التىأبدعها ، فلم يملكنفسه أن قال لى : ياله من حل يسير لمشكل عسير ، كأنه زهرة مونقة تخرج من ساق ملتوية ، وأغصان شديدة التعقيد .

وكانت تظن أنه كتم الخبر ولم يبح به لانسان ، حتى ذلك الوزير المخلص سوفخاتب . فسألته :

ــ هل علم الوزير بسرنا ؟

فقال ببساطة :

ــ نعم . ان ســوفخاتب وطاهو بمثــابة عقلى وقلبى ، فلا أكتمهما شيئا .

ودوى اسم طاهو فى أذنيها دويا شديدا ، فتجهم وجهها ، وبدا القلق فى عينيها ، وسألته :

ــ وهل علم به الآخر ؟

فقال الملك ضاحكا :

– لشد ما تحاذرين يا رادوبيس . ولكن اعلمى انى لا آمن نفسى على شىء لا آمنهما عليه .

فقالت : ان حذرى يا مولاى لا يرتقى لانسان تثق فيه هذه الثقة .

ولكنها ذكرت بالرغم منها طاهو فى ساعة وداعه الأخير ، ودوى فى أذنيها صوته الأجش ، وهو يهدر غاضبا حانقا يائسا . وتساءلت ترى هل ما يزال يعلق بنفسه شىء ؟!.

ولكن الوساوس لم تجد فرصة للعبث بقلبها ، لأنها كانت تنسى نفسها بين يدى حبيبها .

***

وجاء فى الصباح الرسول بنامون بن بسار متلفعا بعباءته ، غارقا فى القلنسوة حتى الأذنين ، وكان خداه متوردين ، وعيناه لامعتين بنور فرح سماوى .. فسجد بين يديها فى صمت وخشوع ، وقبل حاشية ثوبها فى عبادة ، فداعبت راسه بأناملها ، وقالت له بحنو :

– لن انسى يا بنامون أنك لأجلى هجرت الراحة والسكينة .

فرفع اليها وجهه الجميل البرىء ، وقال بصوت متهدج :

– فى سبيلك يهون كل شاق ، فلتعنى الآلهة على تحمل ألم الفراق .

فقالت له مبتسمة :

– ستعود سعيدا ناضرا ، وستنسى فى أفراح المستقبل احزان الماضى جميعا .

فتنهد قائلا :

ــ طوبى لمن يحمــل فى قلبه حلما ســعيدا يؤنس وحدته ، ويرطب جفاف طريقه .

فابتسمت له ابتسامة مشرقة ، وأمسكت بيــدها الرسالة المطوية وسلمتها اليه وقالت :

ــ لا أوصيك بالحذر .. أين تودعها ؟

فقال : على قلبى يا مولاتى تحت منطقتى .

فسلمت اليه رسالة اخرى صغيرة ، وهى تقول :

ــ هاك رسالة اخرى ادفع بهــا الى الحاكم آنى يمهــد لك السبيل ، ويدلك على أول قافلة تقوم .

ثم حم الوداع ، فازدرد ريقه واضطرب ، وبدا عليه الارتباك والهيام ، فمدت له يدها ، فتردد لحظة ، ثم وضعها بين يديه ، وكفاه يرتعشان كأنما يلمس نارا موقدة ، ثم ضمها الى صدره حتى سرت اليهــا حرارته وخفقاته . ثم مضى راجعــا فغيبه الباب ، وقد شيعته بنظرة حائرة ، ولسان يلهج بالدعاء الحار .

كيف لا ، وقد ربط على قلبه أملا تتعلق به حياتها .

وكان الانتظار مرا من أول عهدها به ، لأنه كان لا يفتأ يهتف بها هاتف رجاء يقول بحسرة ، ليت الملك لم يفش سر الرسالة لانسان . كانت تتمنى هذا بحرقة لم يخفف من لوعتها ما أبدى الملك من ثقة عظيمة برجليه المقربين . ولم تكن وساوسها ريبة صريحة . ولكن ثمة قلق دفعها الى التساؤل : ترى ماذا يحدث لو سعى ساع بفحوى الرسالة الى رجال الكهنوت ؟ هل يترددون فى الدفاع عن أنفسهم ازاء هذا الشر المبيت ؟.. رباه .. ان افشاء سر الرسالة أمر خطير ... لا يجرؤ على ادراك كنه خطورته عقل وطنى . وأحست بقشعريرة تسرى فى جسمها الرقيق ، وهزت رأسها بعنف تطرد عن مخيلتها أوهام الوساوس ، وهمست لضميرها تسكته قائلة : ان كل شىء يسير وفق الخطة التى رسمناها ، وليس من داع الى اثارة هذه المخاوف ؛ وما هذه الأوهام المرتعبة الا وساوس قلب مغرم لا يهدأ ولا ينام .

على انها كانت لا تكاد تطمئن حتى يحوم خيالها مرة أخرى حول هاتيك المخاوف ، وتخال انها ترى وجه طاهو الغاضب المتقلص من الألم ، وأنها تسمع صوته الأجش ذا النبرات المتألمة المجروحة . وقد عانت من مخاوفها الآلام ، ولكنها لم تجسر على تفسيرها أو ازالة الغموض الذى يكتنفها .

ترى هل يحق لها أن تخشى طاهو أو أن تسىء به الظن ؟.. ان كل الدلائل تدل على أنه نسى . ولكن هل كان بوسعه أن يفعل شيئا وامتنع عنه طواعية ؟. فما كان يستطيع أن يطرق بابها

بعـد أن أصـبح حرما محرما ، وما كان بوسـعه الا الاذعان والتسليم ، ولا يعنى هذا أنه نسى أو برأ .

ترى هل يبقى شيء من زوايا الماضي عالقا بقلبه ؟.. ان طاهو جبار عنيد ، وقد يستحيل الحب فى قلبه حقدا موريا ، فيتحفز عند سنوح الفرصة للانتقام .. على أنها لم تنس فى أحزانها أن تنصف طاهو ، وأن تذكر له اخلاصـه وتفانيه فى حب مولاه ، وأنه رجل الواجب الذى لا يحيد به عن سبيله نزوع ولا مطمع .

كان كل شيء يدعو الى الطمأنينة ، ولكن وساوسها لم تدعها فى طمأنينتها قط ، وكان الرسول برح قصرها منذ ساعات قلائل فقط ، فكيف لها بالانتظار شهرا أو يزيد ؟.. لقد لحقها الفزع ، وخطر لها خاطر غريب أن تدعو طاهو الى مقابلتها . وكان خاطرا لا يخطر لها على بال قبل يوم ، أما اليوم فقد وجدت به راحة واليه رغبة . وكان يدفعها اليه ما يدفع الانسان الى احتضان خطر يتقيه ولا يجد سبيلا الى دفعه أو الافلات منه . وفكرت فى ذلك تفكيرا مضطربا ، وقالت لنفسها : فلأدعه ولأحادثه لاستبطان ذاته ، وعسى أن أفوز بدفع شره — ان كان هنالك شر يدفع — فأنقذه من نفسه ، وأنقذ مولاى من شره . وما لبثت رغبتها أن تحولت الى عزيمة لا تقبل التردد ، فاستمسكت بها بكل ما أوتيت من قوة وقلق .. ودعت فى فورها شيث وأمرتها بالذهاب الى قصر القائد واستدعائه . وذهبت شيث وانتظرت هى فى بهو استقبالها على قلق ؛ ولم يكن يداخلها ريب فى تلبيته لدعوتها ، وذكرت فى انتظارها اضطرابها ، وقرنت به ما كانت عليه من القوة والبرود فى الأيام الخوالى ، فأدركت أنها منـذ الساعة التى نزل فيها الحب بقلبها ، انقلبت امرأة ضعيفة قلقة ، يطرد النوم عن عينيها وهم ساخر ، أو قلق كاذب ..

وجاء طاهو كما توقعت ، وكان مرتديا لباسـه الرسمى ،

فوجدت فى ذلك معنى مطمئنا ، فكأنه يقول لها انه نسى رادوبيس غانية القصر الأبيض ، وانه يحظى الآن بمقابلة صديقة مولاه فرعون .

وأحنى القائد رأسه باحترام واجلال ، وقال بهدوء وبلا أدنى تأثر :

ــ أسعد الرب أيامك أيتها السيدة الجليلة .

فقالت وهى تتفرس فى وجهه :

ــ وأيامك أيها القائد الجليل ، وانى أشكرك على قبول دعوتى .

فقال طاهو وهو يحنى رأسه :

ــ انى رهن اشارتك يا سيدتى .

رأته كما كان قوياً متين الأسر ، دموى البشرة ، ولكن لم يخف عن عينيها الفاحصتين أن ترى تغيراً طارئا لا يمكن لغير عينيها أن تراه . وجدت حول وجهه هالة من ذبول أفقدت نظرة العينين بريقها ، وأطفأت روحا شاملا كان يشع من وجه الرجل .. وأشفقت من أن يكون ذلك بسبب ما حدث فى تلك الليلة الغريبة التى فصلت بينهما منذ قريب من عام . وأأسفاه كان طاهو كجو عاصف ، فأمسى كجو راكد ... وقالت له :

ــ انى دعوتك أيها القائد لأهنئك على الثقة العظيمة التى يوليك اياها الملك .

فبدت الغرابة على وجه القائد وقال :

ــ شكراً لك يا سيدتى ، هذه نعمة قديمة منت بها على الأرباب .

فابتسمت ابتسامة متكلفة وقالت بدهاء :

ــ ولأشكرك على ما أسديت الى فكرتى من جميل الثناء .

وتفكر الرجل لحظة ، ثم تذكر فقال :

ــ لعلك يا سيدتى تعنين الفكرة النيرة التى أوحى بها عقلك الراجح ؟.

فهزت رأسها أن نعم ، فاستطرد :

ــ انها فكرة رائعة ، جديرة بذكائك اللامع .

فقالت وهى لا تبدى السرور :

ــ أن تحقيقها يكفل لمولانا القوة والسيادة ، وللوطن السلام والطمأنينة .

فقال القائد :

ــ هذا حق لا ريب فيه ، وهو ما جعلنا نهلل لها ونكبر .

فنظرت اليه نظرة عميقة وقالت :

ــ سيأتى يوم قريب تحتاج فكرتى الى قوتك لتحقيقها ، وتتويجها بالنجاح والفوز .

فأحنى الرجل رأسه وقال :

ــ شكراً لك يا سيدتى على ثقتك الغالية .

وصمتت المرأة قليلا . كان طاهو وقوراً رزينا جاداً ، لا كما عهدته قديما ، ولم تكن تنتظر منه غير ذلك ، واستشعرت نحوه بطمأنينة وثقة . وكانت تلح عليها رغبة قوية فى أن تفاتحه فى الموضوع القديم ، وأن تسأله العفو والنسيان ، ولكن خانها البيان ولم تدر ما تقول ، وغلبتها الحيرة فأشفقت من الزلل ، وتركت هذا الحديث كارهة حائرة . ورأت فى اللحظة الأخيرة أن تعان له عواطفها الطيبة بطريقة أخرى ، فمدت يدها وقالت وهى تبتسم اليه :

ــ أيها القائد الجليل ، انى أمد لك يد التقدير والصداقة .

فوضع الرجل يده الغليظة فى يدها الرخصة الرقيقة ، وبدا عليه التأثر فلم يحر جوابا ، وانتهت عند ذلك المقابلة القصيرة الفاصلة .

وفى طريق العودة الى السفينة تساءل محموماً : « لماذا دعتنى هذه المرأة ؟ » . وترك العنان لعواطفه التى كبح جماحها فى حضرتها فاختل توازنه ، وانكفأ لونه ، وارتجفت اوصاله ،

ومضى يفقد عقله ورشده بسرعة فائقة . وضربت المجاذيف جانب الماء وهو يترنح كالثمل ، كأنه عائد من معركة خاسرة . أفقدته حكمته وشرفه . وخال النخيل المنطلق على الشاطىء يرقص رقصاً جنونياً . والجو يعفره غبار ثائر خانق . وكان الدم يتدفق فى عروقه ساخناً هائجا مجنونا مسموماً ، ووجد ابريقا من الخمر على خوان المقصورة ، فصبه فى فمه حتى أتى عليه فى استهتار جنونى ، وارتمى على الديوان فى حالة يأس قاتل .

وفى الحقيقة لم يكن نسيها ، ولكنها كانت تكمن فى سرداب خفى من نفسه ما فتىء يسده بالعزاء والصبر وشعوره القوى بالواجب ، فلما وقع نظره عليها بعد غياب عام ، انفجر المستودع المختفى فى نفسه ، وتصاعد لهيبه حتى حرق روحه جميعاً . واحس بالعذاب والهوان واليأس والكبرياء الذبيح ، فذاق الهزيمة والعذاب مرتين فى معركة واحدة منتهية . واحس بدوار فى راسه المختل ، وجعل يحدث نفسه فى غضب كاسر ، انه يعلم لماذا عنيت باستدعائه . دعته لتستوثق من اخلاصه . ليطمئن قلبها على سيدها ومولاها الحبيب ، وفى سبيل ذلك تكلفت مودته وتملقه ، يا للغرابة ان رادوبيس العابثة القاسية تجد وتحنو وتتعلم ما الحب وما مخاوفه وآلامه . وتشفق من خيانة طاهو ، طاهو الذى كان يوماً يلتصق بنعلها كالتراب ، ثم نفضته فى حالة تقزز وملل . الويل للسماء والأرض ، والويل للدنيا جميعاً . انه يشعر باليأس المميت والغضب القاتل ، وبغيظ خانق يطحن نفسه الجبارة . انه يغضب غضباً جنونيا جارفا ، ويشتعل دمه نارا موقدة ، يضغط على سمعه فلا يكاد يسمع شيئا ، ويخضب عينيه فيرى الدنيا شعلة حمراء .

وما ان رست السفينة الى سلم القصر الفرعونى ، حتى غادرها مسرعا ، وسار يترنح فى الحديقة لا يلتفت الى تحيات الجنود ، متجها الى حجرة قائد الحرس بالثكنات ، وفى أثناء سيره اعترض

طريقه رئيس الوزراء سوفخاتب ، وكان عائدا من جناح الملك .
وقابله الوزير بابتسامة تحية ، ولكنه وقف حياله جامداً كأنه لا يعرفه . وعجب سوفخاتب لجموده ، وقال له :
ــ كيف حالك أيها القائد طاهو ؟
فقال طاهو بسرعة غريبة :
ــ أنا .. كأسد واقع فى شراك .. أو كسلحفاة راقدة على ظهر فرن موقدة !
فبدا الانكار على وجه سوفخاتب وقال :
ــ ما هذا الكلام ؟.. اى شبه بين الأسد والسلحفاة ، أو بين الشراك والفرن ؟
فقال طاهو فى ذهوله :
ــ أما السلحفاة فتعمر طويلا ، وتتحرك فى بطء وتنوء بحمل ثقيل ، وأما الأسد فينكمش ويزأر ويثب فى عنف فيقضى على فريسته .
فتفرس الرجل فى وجهه دهشا وقال :
ــ ألغاضب أنت ؟. لست كعهدى بك !
ــ أنا غاضب .. كيف تنكرنى أيها الجليل . انا طاهو ربيب الحرب والقتال .. آه كيف يصبر العالم على هذا السلام الثقيل .. ان آلهة الموت عطشى ولا بد يوما أن أروى غلتها .
فهز سوفخاتب رأسه متوهما أنه عرف ما هنالك ، ثم قال :
ــ آه ... الآن فهمت أيها القائد ، انها خمر مريوط المعتقة .
فقال طاهو بحدة :
ــ كلا .. كلا .. الحق انى شربت كأسا من الدم ، ثم تبين انه دم انسان شرير ، فتسمم دمى . وزاد الأمر خطورة أنى صادفت فى طريقى الى هنا رب الخير نائما فى المرج ، فأغمدت سيفى فى قلبه .. هيا الى القتال .. فالدم شراب الجندى الباسل .

فقال سوفخاتب ذاهلا :

ـ انها الخمر ولاشك ، ويحسن بك أن تعود الى قصرك فى الحال .

ولكن طاهو هز كتفيه استهانة وقال :

ـ الحذر الحذر أيها الرئيس ، اياك والدم الفاسد ، فهو السم بعينه ، لقد انتهى صبر السلحفاة وسينقض الأسد .

قال ذلك ثم سار فى طريقه لا يلوى على شىء . تاركا سوفخاتب فى ذهول وغرابة .

فترة الانتظار

وكان القصر الفرعونى ، وقصر بيجة ، ودار الحكومة ، تنتظر أوبة الرسول بفارغ الصبر ، ولكن فى طمأنينة وثقة بالمستقبل ، وكان كل يوم يدنو يدنيها من الفوز ، ويدفىء صدرها بحرارة الأمل . وما كان لينقطع هذا الشعور الطيب الجميل ، لولا أن وصلت الى رئيس الوزراء رسالة خطيرة من رجال الكهنوت ، وكان سوفخاتب يهمل أمثال هذه الرسالة ، أو يقنع مضطراً بعرضها على الملكة ، ولكنه وجد فيها معنى جديداً خطيراً ، لم يشأ أن يتحمل تبعة اخفائه عن مولاه ، ولو لاقى فى سبيل ذلك بعض غضبه ، فقابل فرعون وتلا عليه الرسالة . وكانت التماساً خطيراً موقعاً عليه من جميع رجال الكهنوت ، وعلى رأسهم كهنة رع وأمون وبتاح وأبيس ، يرجون مولاهم أن يرد أراضى المعابد الى أصحابها الآلهة المعبودة التى توليه عنايتها ، ويؤكدون أنهم ما كانوا يتقدمون بالتماسهم لو وجدوا من الأسباب ما يدعو الى وجوب نزع الأراضى .

كان الخطاب قوياً حازماً . فغضب الملك ، ومزقه ارباً ، ورمى به على أرض الحجرة وصاح :

ــ سوف أجيبهم بعد حين قليل .

فقال سوفخاتب :

ــ انهم يلتمسون جماعة ، وكانوا يلتمسون فرادى .

فقال الملك الغاضب :

ــ وسأضربهم جميعاً ، فليحتجوا كيف شاء لهم الجهل .

على أن الحوادث جاوزت هذا الحد ، فقد أرسل حاكم طيبة

الى رئيس الوزراء يقول ان خنوم حتب زار مقاطعته ، وانه استقبل استقبالا شعبياً رائعاً اشترك فيه كهنة آمون وكاهناته وجموع غفيرة من الأهالى ، وان الهتافات تصاعدت باسمه ، وهتف القوم أيضاً لحقوق الآلهة التى ينبغى أن تصان وتخدم ، وجاوز هذا القدر قوم ، فصاحوا باكين : « واحسرتاه ! ان أموال آمون تنفق على راقصة » .

ووجم الرئيس أسفاً وحزنا ، وغلب اخلاصه تردده هذه المرة أيضاً ، فأحاط مولاه بهذه الأخبار بلباقة ، وغضب الملك كعادته. وقال آسفا :

— ان حاكم طيبة يسمع ويرى ولا يستطيع شيئاً .

فقال سوفخاتب فى حزن :

— ليس لديه يا مولاى الا قوة الشرطة ، وهى لا تجدى فى مقاومة جموع غفيرة .

فقال الملك بغضب :

— وليس لدى الا الانتظار على مضض ، لقد أدميت وحق الرب كبريائى !

وخيمت سحابة من الحزن على آبو المجيدة ، شملت قصورها الشامخة ودور الحكم فيها . وكانت الملكة نيتوقريس تقبع فى جناحها رهينة حبس ووحشـــة ، تعانى آلام قلبها المنفطر وكبريائها الجريحة ، وترقب الحادثات بعينين حزينتين أسيفتين . وكان سوفخاتب يتلقى الأخبار بقلب حزين ، ويقول آسفاً لطاهو الصامت الكئيب : « هل شهدت مصر قبل اليوم مثل هذا الغضب المتمرد ؟! واحزناه » .

واستحالت سعادة الملك غضباً وغيظا ، وكان لا يذوق الراحة الا حين يرتمى بين يدى المرأة التى أسلمها نفسه ، وكانت تدرك ما به ، فكانت تداعبه وتحنو عليه وتهمس فى أذنه : « صبراً » فيتنهد ويقول حانقا « نعم .. حتى أقبض على ناصية القوة » .

ولكن اشتد الحرج ، فتعددت زيارات خنوم حتب للمقاطعات، واستقبل بالمظاهرات فى كل مكان . وتعالى الهتاف باسمه فى البلدان ، وضاق بذلك كثير من الحكام ؛ ورأوا فيه معنى لم يرتح اليه اخلاصهم لفرعون . فاجتمع حكام أمبوس ، وفرمونتس ، ولاتولس ، وطيبة ، وتشاوروا فيما بينهم ، وقر رايهم على مقابلة الملك . وقصدوا الى آبو وطلبوا المقابلة ، فاستقبلهم فرعون استقبالا رسميا حضره سوفخاتب . وتقدم حاكم طيبة بين يديه وحياه تحية العبودية والاخلاص ثم قال :

ـ مولاى ، الاخلاص الحق لا يقنع بأن يكون عاطفة فى القلب ، ولا بد أن يقرن باسداء النصح والعمل الصالح والاقتداء اذا حزب الأمر ، ونحن حيال أمر قد يعرضنا الصدق فيه الى موجدة ، ولكنا لا نأمن مع السكوت عليه من وخز ضمائرنا ، فلابد من قولة الحق .

فصمت فرعون هنيهة تم قال للحاكم :

ـ تكلم أيها الحاكم فانى مصغ اليك .

فقال الرجل بشجاعة :

ـ مولاى . الكهنة غاضبون ، وقد انتقلت عدوى غضبهم الى نفوس الشعب المنصت الى حديثهم فى الصباح والمساء ، وكان من جراء ذلك أن اتفقت كلمة الجميع على وجوب رد الأراضى الى أصحابها ..

فبدا الغضب على وجه الملك وقال بحنق :

ـ هل يصح أن يذعن فرعون لارادة الناس ؟

فقال الرجل بصراحة وجسارة :

ـ مولاى . ان سعادة الشعب أمانة عهدت بها الآلهة الى ذات فرعون . فلا اذعان ، لكن تعطف من مولى قادر على عباده .

فضرب الملك الأرض بصولجانه وقال :

ـ لا أرى فى التراجع سوى الخنوع .

فقال الرجل : معاذ الرب أن أشير الى مولاى بالخنوع ، ولكن السياسة بحر لجى ، والحاكم كالربان يتفادى الريح العاصفة ، وينتهز الفرصة السعيدة .

ولكن الملك لم يعجبه قوله ، وهز رأسه باحتقار وعناد ، واستأذن سوفخاتب طالبا الكلام ، وسأل حاكم طيبة قائلا :

ــ هل لديك دليل على أن الشعب يشاطر الكهنة عواطفهم ؟

فقال الحاكم بثبات ويقين :

ــ نعم يا صاحب القداسة ، لقد بثثت عيونى فى الاقليم ، فشهدوا غضب الشعب عن كثب ، وسمعوه يخوض فيما لا يجوز الخوض فيه .

وقال حاكم فرمونتس :

ــ وهذا ما فعلته ، فجاءتنى أنباء مؤسفة .

وأدلى كل حاكم بدلوه ، ودلت أقوالهم على خطورة الحال ، وانتهت بذلك أول مقابلة من نوعها تشهدها قصور الفراعنة .

واجتمع الملك على الأثر بوزيره وقائد حرسه فى جناحه الخاص ، وكان غاضبا مهتاجا يتهدد ويتوعد ، وقد قال للرجلين :

ــ ان هؤلاء الحكام مخلصون أمناء ، ولكنهم ضعاف ، ولو أخذت بنصائحهم لعرضت عرشى للهوان ..

وسرعان ما أمن طاهو على رأى مولاه وقال :

ــ ان التراجع هزيمة يا مولاى !

كان سوفخاتب يفكر فى احتمالات أخرى فقال :

ــ ينبغى أن نحسب حساب عيد النيل ، وهو لا يفصل بيننا وبينه سوى أيام معدودات ، والحق ان قلبى لا يرتاح الى حشد الآلاف من الشعب الغاضب فى آبو .

فبادر طاهو قائلا : اننا نسيطر على آبو .

ــ لا ريب فى هذا ، ولكن لا يجوز أن ننسى أنه فى العيد الماضى

تصاعدت بضعة هتافات خائنة ، ولم يكن مولانا الملك قد حقق ارادته ، فينبغى أن نتوقع هتافات أخرى أشد صراخا .

فقال الملك : ان الأمل معقود بعودة الرسول قبل العيد .

ولكن لم ينفك سوفخاتب يزن الأمور من وجهة نظره ، فقال وكان يؤمن فى قلبه باقتراح الحكام :

ــ سيأتى الرسول فى القريب . وسيتلو مولانا رسالته على الملأ . ولا شك أن الكهنة الحائزين على عطف مولاهم ، المتمتعين بما يعتقدون أنه حقهم ، يكونون أعظم اطمئنانا الى التعبئة وأشد حماسة : حتى اذا قبض مولاى على ناصية القوة ، أملى ارادته ، ولا راد لمشيئته .

وضاق الملك ذرعا برأى سوفخاتب ، وأحس بوحشة فى جناحه الخاص ، فهرع الى قصر بيجة الذى لا تلاحقه الوحشة اليه قط . وكانت رادوبيس تجهل مادار فى الاجتماع الأخير ، فكانت أدنى الى الطمأنينة منه . ولكنها لم تلق صعوبة فى قراءة صفحة وجهه الحساس . والشعور بما يضطرم فى قلبه من الغضب والسخط ، واعتورها القلق ونظرت اليه متسائلة والكلام يضطرب خلف شفتيها مشفقا من الظهور ، فقال متذمرا :

ــ أما علمت يا رادوبيس ؟ ان الحكام والوزراء يشيرون على برد الأراضى الى الكهنة ، والرضاء بالهزيمة ؟

فتساءلت بانزعاج : ما الذى حثهم على ابداء هذه المشورة ؟

فروى الملك ما قال الحكام وما نصحوه به ، وكانت تزداد انزعاجا وحزنا ، وما تمالكت نفسها أن قالت :

ــ ان الجو يغبر ويظلم ، وما حمل الحكام على المكاشفة بآرائهم الا خطر فادح .

فقال الملك متهكما بازدراء :

ــ ان شعبى غاضب .

ـ مولاى ، ان الناس كالسفينة الضالة بلا سكان ، تحملها الرياح كيفما تشاء .

فقال بوعيد مخيف :

ـ سأذهب ريحهم .

وعاودتها المخاوف والشكوك ، وخانها صبرها فى تلك اللحظة. فقالت : ينبغى أن نستوصى بالحكمة ، وأن نتراجع زمنا قصيرا مختارين ، وان يوم النصر لقريب .

فنظر اليها بغرابة وقال :

ـ أتشيرين على بالخضوع يا رادوبيس ؟

فضمته الى صدرها وقد آلمتها لهجته ، ثم قالت وقد فاضت عيناها بدمع سخين :

ـ أحرى بمن يتحفز للوثبة الكبرى أن ينكمش أقداما ، والنصر رهين بالنهاية .

فتأوه الملك قائلا :

ـ آه يا رادوبيس . . اذا كنت أنت تتجاهلين نفسى ، فمنذا الذى يمكن أن يعرفها ؟ أنا من اذا نزل مرغما على ارادة انسان ذبل كمدا كوردة يانعة سفتها الرياح .

فبدا التأثر فى عينيها السوداوين ، وقالت فى حزن عميق :

ـ فداؤك نفسى يا حبيبى ، لن تذبل قط وصدرى يرويك حبا صافيا .

ـ سأعيش منتصرا فى كل لحظة فى حياتى ، ولن أمكن خنوم حتب من أن يقول يوما انه أذلنى ساعة !

فابتسمت اليه ابتسامة حزينة وتساءلت :

ـ أتريد أن تسوس شعبا بغير التجاء الى الحيلة أحيانا ؟

ـ التسليم حيلة العاجز ، سأظل ما حييت مستقيما كالسيف تتحطم على أسنانه قوى الخائنين .

فتنهدت حزينة آسفة ولم تحاول معاودته ، ورضيت

بالهزيمة أمام غضبه وكبريائه ، ومنذ تلك اللحظة وهى تتساءل جزعة متى يعود الرسول ؟ .. متى يعود الرسول ؟ ..

ما أشق الانتظار .. لو يعلم المتمنون ما عذاب الانتظار لآثروا الزهد فى الدنيا .. كم عدت الدقائق والساعات وترقبت شروق الشمس وانتظرت مغيبها ، وذابت عيناها من طول النظر الى مجرى النيل الآتى من الجنوب . وكم حسبت الزمن بتردد أنفاسها وخفقان قلبها ، وكم صاحت وقد نال منها القلق كل منال : أين أنت يا بنامون ! ؟ حتى الحب نفسه ذاقته ذوق الشارد الحالم ، فلا طمأنينة ولا سلام حتى يعود الرسول برسالته !؟

وتقضت الأيام تجر ثقلها جرا بطيئا ، حتى كان يوم تجلس فيه مستغرقة فى أفكارها ، واذا بشيث تدخل عليها مهرولة ، فرفعت رأسها وسألتها :

ــ ما وراءك ياشيث ؟

فقالت الجارية بلهفة تلهث :

ــ مولاتى ، جاء بنامون .

وغمرها الفرح ، فانتفضت واقفة كطير فزع ، وهى تصيح : « بنامون » .

فقالت الجارية :

ــ نعم يا مولاتى ، انه ينتظر فى البهو ، وطلب الى أن أوذنك بقدومه . كم لوحة السفر .

وجرت تتخطى أدراج السلم الى البهو . فألفته واقفا ينتظر مقدمها وفى عينيه شوق صارخ ، وكانت تبدو كشعلة من الفرح والأمل . فوقر فى نفسه أن فرحها به ، وله ، غمرته سعادة الهية وارتمى على قدميها كالعابد ، ولف ذراعيه حول ساقيها بحنان ووجد ، وهوى بفمه الى قدميها .. وقال :

ــ معبودتى ، حلمت مائة مرة أنى أقبل هاتين القدمين ، وهأنذا أحقق أحلامى .

فداعبت شعره بأناملها وقالت برقة :

ــ بنامون العزيز .. بنامون .. أحقا عدت الى ؟

فلمعت عيناه بنور الحب ، ودس يده فى صدره فأخرج حقا من العاج صغيرا وفتحه ، واذا ما فيه تراب .. ثم قال :

ــ هذا تراب مما كانت تطأ قدماك فى الحديقة ، جمعته بيدى واحتفظت به فى هذا الحق ، وحملته معى فى سفرى ، وكنت أقبله كل مساء قبل استلامى للكرى ، ثم أحفظه على قلبى ..

وأصغت اليه على جزع وتململ . وكان شعورها منصرفا عن حديثه ، ونفد صبرها ، فسألته برقة تدارى بها جزعها :

ــ الا تحمل شيئا ؟

فدس يده فى صدره مرة أخرى ، وأخرج كتابا مطويا ومد لها يده به ، فتسلمته بيد مرتجفة وقد غمرها شعور سعيد ، وأحست بتخدير فى أعصابها وخور فى قواها ، وألقت على الرسالة نظرة طويلة ، وشدت عليها بيدها . وكادت أن تنسى بنامون ووجده لولا أن وقع عليه بصرها فتذكرت أمرا هاما وسألته : ألم يأت معك رسول من قبل الأمير كارفنرو ؟

فقال الشاب :

ــ بلى يا مولاتى ، وهو الذى حمل الرسالة فى أثناء العودة ، وانه لينتظر الآن فى الحجرة الصيفية .

ولم تستطع أن تبقى فى مكانها طويلا ، لأن الفرح الذى غمر حواسها عدو للسكون والجمود فقالت :

ــ أستودعك الرب الى حين ، وان حجرة الصيف تنتظرك وستصفو لنا الأيام .

وجرت حاملة الرسالة ، وكان قلبها ينادى حبيبها ومولاها من أعماقها ، ولولا التحرج لطارت اليه فى قصره كما فعل النسر من قبل ، تزف اليه البشرى السعيدة ..

الاجتماع

وجاء يوم عيد النيل ، واستقبلت آبو جموع المحتفلين من أقاصى الجنوب والشمال ، وتعالت فى جوها الأناشيد ، وازينت دورها بالأعلام والأزهار وأغصان الزيتون . واستقبل الرجال من الكهنة والحكام شروق الشمس فى طريقهم الى القصر الفرعونى ، لينتظموا فى الموكب الملكى العظيم الذى يغادر القصر حين الضحى .

وبينما كان السادة ينتظرون نزول الملك فى احدى الحجرات ، دخل عليهم أحد الحجاب ، وحياهم باسم الملك ، وقال بصـوت جهورى :

ـ أيها السادة الأجلاء . ان فرعون يريد أن يجتمع بكم فى الحال ، فتفضلوا بالذهاب الى البهو الفرعونى .

وتلقى الجمع تصريح الحاجب بدهشة غير خافية ، لأن العادة جرت بأن يستقبل الملك رجال مملكته بعد الاحتفال بالعيد لا قبل ذلك ، فبدت الحيرة على الوجوه وتساءل القوم : ترى أى أمر خطير دعا الى هذا الاجتماع الخارق للتقاليد ؟!.

ولكنهم لبوا الدعوة طائعين ، وذهبوا الى بهو الاستقبال ذى الجلال والروعة . واحتل الكهنة مقاعد الجانب الأيمن ، وجلس الحكام قبالتهم ، وكان يتصدر المكان العرش الفرعونى . وسط جناحين من الكراسى أعدت للأمراء والوزراء .

وما لبثوا قليلا حتى دخل الوزراء يتقدمهم سوفخاتب . وتبعهم بعد حين أمراء البيت المالك ، فجلسوا الى يمين العرش وهم يردون تحيات الرجال الذين وقفوا تحية لهم .

وساد الصمت وبدا الجد والاهتمام على الوجوه ، وخلا كل الى أفكاره يسائلها عن الأسباب التى دعت الى هذا الاجتماع الهام ، حتى قطع عليهم أفكارهم دخول حامل الأختام ، فتطلعوا اليه فى انتباه شامل ، وقد صاح الرجل بصوت جهورى يعلن مجىء الملك :

ـ فرعون مصر نور الشمس ، وظل رع على الأرض ، صاحب الجلالة مرنرع الثانى ..

فهب الجميع وقوفا وأحنوا الهامات ، حتى كادت تمس الأرض الجباه . وجاء الملك يسير فى جلال ومهابة ، يتبعه على الأثر قائد الحرس طاهو ، وحامل الأختام ، وكبير حجاب الأمير كارفنرو حاكم النوبة . وجلس على العرش . ثم قال بصوت مهيب :

ـ أحييكم أيها الكهنة والحكام وآذن لكم بالجلوس .

فاعتدلت القامات المنحنية فى رفق ، وجلس الرجال وسط صمت شامل عميق يجعل من التنفس مجازفة خطيرة ، واتجهت الأنظار الى صاحب العرش تواقة الى استماع كلمته . واعتدل الملك فى جلسته ، ثم قال وهو يقلب عينيه فى وجوه القوم دون أن تستقرا على أحد :

ـ أيها الأمراء والوزراء والكهنة والحكام ، من صفوة رجال مصر العليا والسفلى ، لقد دعوتكم لأشاوركم فى أمر خطير يتعلق بسلامة المملكة ومجد الآباء والأجداد . أيها السادة : لقد جاء رسول من الجنوب هو هامانا كبير حجاب الأمير كارفنرو يحمل رسالة خطيرة من مولاه ، فرأيت أن واجبى يقضى على بأن أدعوكم دون امهال ، للاطلاع عليها ، والمشاورة فى محتوياتها الخطيرة .

والتفت فرعون الى الرسول وأشار اليه بصولجانه ، فتقدم الرجل خطوتين فصار فى حذاء العرش ، وقال له فرعون : « اتل عليهم الرسالة » .

فبسط الرجل رسالة مطوية بين يديه ، وقرأ بصوت جهورى مؤثر :

« من الأمير كارفنرو حاكم بلاد النـوبة الى حضرة صاحب الجلالة فرعون مصر ، نور الشمس المشرقة ، وظل الرب رع ، حامى النيل ، وصاحب النوبة ، وطور سيناء ، وسيد الصحراء الشرقية ، والصحراء الغربية .

مولاى .. يؤسفنى أن أرفع الى مسامع ذاتكم المقدسة أنباء محزنة ، عن حوادث غدر شائنة ، وقعت فى أملاك التاج المتاخمة لحدود النوبة الجنوبيـة . وكنت يا مولاى — اطمئنانا منى الى المعاهدة التى عقدت بين مصر وقبائل المصايو ، وما أعقب عقدها مباشرة من شمول الطمأنينة وتوطيد الأمن — كنت أمرت بسحب كثير من الحاميات الموزعة فى الصحراء الى قواعدها الأصلية . وجاءنى اليوم ضابط من رجال الحاميـات وأخبرنى بأن زعمـاء القبائل شقوا عصا الطاعة وحنثوا بيمينهم ، وانقضوا خلسة بليل على ثكنات الحاميات ، وأعملوا فيها التقتيل الوحشى . وقد قاوم الجنود مقاومة اليأس . قوات تفوقهم مائة مرة أو يزيد ، حتى سقطوا عن آخرهم فى ميدان الاستبسال . واجتاحت القبائل البلاد جميعا ، واتجهت نحو الشمال الى بلاد النوبة ، فرأيت من الحكمة الا أفرط فيما لدى من قوات محدودة ، وأن أوجه همى الى تحصين الاسـتحكامات والقلاع ، للتمكن من صـد العدو الزاحف . ولن تصـل مولاى رسالتى حتى تكون جنودنا قد اشتبكت مع طلائع المهاجمين ، وانى فى انتظار أمر مولاى سأظل على رأس جنودى أقاتل كمـا تعلمت أن أقاتل فى سبيل مولاى فرعون ، ووطنى مصر » .

وانتهى الرسول من تلاوة الرسالة ، وظل صوته يدوى فى كثير من القلوب ، أما الحكام فقد اتقدت أعينهم ، وتطاير منها الشرر ،

وسرت فى صفوفهم حركة اضطراب عنيف ، وأما الكهنة فقد تقطبت جباههم وجمدت نظراتهم ، وانقلبوا كتماثيل جامدة فى معبد صامت .

وصمت فرعون هنيهة حتى بلغ التأثر أشده ، ثم قال :

ــ هذه هى الرسالة التى دعوتكم للمشاورة فيها .

وكان حاكم طيبة على رأس المتحمسين . فقام واقفا وأحنى رأسه تحية ، وقال :

ــ مولاى .. انها رسالة خطيرة حقا ، والجواب الواحد عليها هو الدعوة الى التعبئة .

ولاقت كلمته ارتياحا عاما فى نفوس الحكام . فقام حاكم أمبوس وقال :

ــ نعم الرأى يا مولاى ؛ فالجواب الأوحد هو التعبئة السريعة. كيف لا ووراء الحدود الجنوبية اخوان لنا بواسل أوقعهم العدو فى ضيق .. وانهم لثابتون ، فلا ينبغى أن نخذلهم . أو نبطىء عليهم ..

وكان آنى يفكر فى العواقب التى تمس واجباته ، فقال :

ــ اذا اجتاح أولئك الهمج بلاد النوبة هددوا الحدود بلا شك.

وكان حاكم طيبة على رأس المتحمسين ، وقد ذكر رأيا قديما له طالما تمنى تحقيقه يوما . فقال :

ــ كان رأيى دائما يا مولاى أن تحتفظ المملكة بجيش دائم كبير ، يكفل لفرعون القيام بتبعاته فى الدفاع عن سلامة الوطن وممتلكاته فيما وراء الحدود .

واشتد الحماس فى جناح جميع القواد ، ونادى كثير منهم بالتعبئة ، وهتف آخرون للأمير كارفنرو وحامية بلاد النوبة . واشتد التأثر ببعض الحكام . فقالوا للملك : « مولانا .. لن يطيب لنا الاحتفال بالعيد ، ووراءنا اخوان بواسل يتهددهم الموت .

ايذن لنا فى الرحيل لنحشد الجنود » . وكان فرعون ملازما الصمت ليسمع ما عسى أن يقول الكهنة ، وكان هؤلاء لائذين بالصمت ريثما تهدأ النفوس ، فلما أن سكت الحكام ، قام كاهن بتاح الأكبر وقال بهدوء غريب :

— هل يأذن لى مولاى فى أن أوجه الى رسول سمو الأمير كارفنرو سؤالا ؟.

فقال الملك بغرابة :

— لك ما تريد أيها الكاهن الأكبر .

فالتفت كاهن بتاح الى الرسول وقال :

— متى غادرت بلاد النوبة ؟.

فقال الرجل :

— منذ أسبوعين .

— ومتى بلغت آبو ؟

— مساء أمس .

فاتجه الكاهن نحو فرعون وقال :

— أيها الملك المعبود ، ان الأمر يدعو الى الحيرة الشديدة ، فبالأمس جاء هذا الرسول المبجل من الجنوب بأنباء تمرد زعماء المعصايو ، وبالأمس نفسه جاء وفد من زعماء المعصايو من أقصى الجنوب ليقدموا فروض الطاعة لمولاهم فرعون . ويرفعون الى أعتابه المقدسة آى الشكر على ما أولاهم من نعمة وسلام . فما أشد حاجتنا الى من يميط اللثام عن هذه المعميات .

فكان تصريحا غريبا لم يتوقعه انسان ، فأحدث دهشة كبرى وعجبا ، فشملت الرءوس حركة عنيفة ، وتبادل الحكام والكهنة نظرات التساؤل والحيرة ، وتهامس الأمراء . أما سوفخاتب فقد انخلع صدره ونظر الى مولاه فى ارتياع ، فرآه يقبض بيده على الصولجان بشدة ، وتشد عليه بقسوة حتى انتفخت عروق ساعده

واكفأ لونه ، فخشى الرجل من تسلط الغضب على الملك ، فسأل الكاهن قائلا :

ـ ومن أنبأك بهذا يا صاحب القداسة ؟

فقال الرجل بهدوء :

ـ رأيتهم بعينى رأسى يا سيدى الرئيس ، فقد زرت أمس معبد سوتيس ، وقدم كاهنه الى وفدا من السود قالوا انهم من زعماء المعصايو ، وانهم جاءوا يقدمون فروض الطاعة لفرعون ، وقد باتوا ليلتهم ضيوفا على رئيسه .

فقال سوفخاتب :

ـ ألا يصح أن يكونوا من النوبة ؟

ولكن الرجل قال بيقين :

ـ قالوا انهم من المعصايو ، وعلى أية حال فها هنا رجل ـ هو القائد طاهو ـ اشتبك مع المعصايو فى حروب كثيرة ، وعرف جميع زعمائهم . فهل يتفضل جلالة الملك ويأمر بدعوة هؤلاء الزعماء الى ساحته المقدسة ، وعسى أن تزيل أقوالهم عن أعيننا غشاوة الحيرة ؟.

وكان الملك فى حالة شديدة من القهر والغضب ، ولكنه لم يدر كيف يمكن أن يرفض ما يقترحه الكاهن ، وأحس الوجوه تتطلع اليه فى لهفة ورغبة ورجاء ، فقال لأحد الحجاب :

ـ اذهب الى معبد سوتيس ، وادع زعماء السود .

وصدع الحاجب بالأمر ، ولبث الجميع ينتظرون وكان على رءوسهم الطير . وكان الذهول باديا على وجوه الجميع ، وكانوا يكظمون ما بنفوسهم وان ود كل منهم لو يسأل رفيقه ويستمع اليه . ولبث سوفخاتب قلقا مهموما دائم التفكير ، يختلس من مولاه نظرات حائرة مشفقا عليه من هول الساعة . ومرت عليهم الدقائق ثقيلة ومؤلمة ، كأنما تنتزع من جلودهم ، والملك على عرشه

يشاهد الحكام القلقين والكهنة المطرقين ، لا تكاد تخفى عيناه ما يعترك فى نفسه من العواطف . ثم خال الجمع انهم يسمعون ضوضاء يحملها الهواء من بعيد ، فخلصوا من نفوسهم ، وأرهفوا السمع ، فاذا بالضوضاء تقترب من ميدان القصر ، واذا بها أصوات تتصاعد بالهتاف ، ومضت بالقرب تشتد وتقوى شيئا فشيئا حتى طبقت الآفاق ، وكانت مختلطة غير متمايزة ، ويفصل بينها وبين المجتمعين فناء القصر الطويل ، فأمر الملك حاجبا بالذهاب الى الشرفة ليرى ما هناك ، فغاب الرجل برهة ثم عاد مسرعا ، ومال على أذن فرعون وقال :

ــ ان جموع الشعب تملأ الميدان . تحيط بالعربات التى تحمل زعماء السود .

ــ وما هتافهم ؟

ــ يهتفون لأصدقاء الجنوب المخلصين ، ومعاهدة السلام .

ثم تردد الرجل لحظة واستدرك هامسا :

ــ ويهتفون يا مولاى لصاحب المعاهدة خنوم حتب !

وأصفر وجه الملك من الغضب ، وأحس بالحقد والقهر ، وتساءل كيف يدعو الشعب الذى يحيى زعماء المعصايو ويهتف للسلام الى محاربة المعصايو !! ولبث ينتظر القادمين غاضبا حزينا كئيبا .

وأعلن ضابط من الحرس قدوم الزعماء ، وفتح الباب على مصراعيه ، ودخل الوفد يتقدمه رئيسه وكانوا عشرة ، ضخام الأجسام ، عرايا الا من وزرة تستر الوسط ، وعلى رءوسهم هالات من أوراق الشجر ، وقد سجدوا جميعا على الأرض ، وتقدموا زحفا حتى بلغوا عتبة العرش ، فقبلوا الأرض بين يدى فرعون ، ومد لهم الملك صولجانه فلثموه فى خشوع ، وأذن لهم بالوقوف فوقفوا فى تهيب ، وقال رئيسهم باللهجة المصرية :

ـ أيها الرب المعبود ، فرعون مصر ، وسيد الوادى ، ومعبود القبائل . جئنا الى رحابك لنقدم لك آى الخضوع والذل والحمد على ما أوليتنا من آلاء ونعم ، فبفضل رحمتك تناولنا الطعام شهيا ، وشربنا الماء حلوا سائغا .

فباركهم الملك برفع يده .

وكانت الوجوه متجهة اليه كأنها تضرع اليه أن يسألهم عما يقال عن بلادهم . فقال الملك المقهور :

ـ من أى العشائر أنتم ؟

فقال الرجل :

ـ أيها البهاء المعبود ، نحن زعماء قبائل المعصايو الداعية لبهائك بالمجد .

وصمت الملك قليلا ، وأبى أن يسألهم عن اتباعهم شيئا . وضاق بالمكان ومن فيه ، فقال :

ـ ان فرعون يشكركم أيها العبيد المخلصون ويبارككم .

وقدم صولجانه فلثموه مرة أخرى ، وكروا راجعين ، تكاد تمس الأرض جباههم .

والتهب الغضب فى قلب الملك . وأحس احساسا باطنيا أليما بأن الكهنة الماثلين أمامه . وجهوا اليه ضربة قاتلة فى معركة خفية، لا يعلم بها سواه وسواهم ؛ فاشتد عليه الحنق ، وفاض به الغيظ. وثار على هزيمته وقال بصوت شديد النبرات :

ـ لدى رسالة لا يرتقى الشك اليها ، وسواء أكانت القبائل الثائرة تتبع هؤلاء الزعماء أم لا تتبعهم ، فالأمر الذى لا شك فيه هو أنه توجد ثورة ويوجد متمردون ، وأن جنودنا الآن محاصرون !

فعاودت الحماسة الحكام ، وقال حاكم طيبة :

ـ مولاى .. لقد جرت الحكمة الالهية على لسانك ، ان

اخواننا ينتظرون النجدة ، فلا يجوز أن نضيع الوقت فى مناقشات ، والحق أبلج واضح .

فقال الملك بعنف :

ـ أيها الحكام ، انى أعفيكم من الاشتراك اليوم فى الاحتفال بعيد النيل ، فأمامكم واجب أسمى . ارجعوا الى أقاليمكم واحشدوا الجند ، فرب دقيقة تضيع تكلفنا غاليا .

قال الملك ذلك ثم قام واقفا ، معلنا انتهاء الاجتماع ، فقام القوم من فورهم وأحنوا الهامات اجلالا .

الهتاف

وقصد فرعون الى جناحه الخاص ، ودعا اليه رجليه المخلصين سوفخاتب وطاهو . فلبى الرجلان دعوته سريعا ، وكانا شديدى التأثر ، يقدران حرج الموقف حق قدره . ووجدا الملك كما توقعا مهتاجا غاضبا ، يذرع حجرته من جانب الى جانب ، ويهدر بوحشية جنونية ، فلما انتبه اليهما حدجهما بنظرة زائغة ، وقال والشرر يتطاير من عينيه :

— خيانة .. انى أشم رائحة خيانة خبيثة فى هذا الجو الخانق.

فانكفأ طاهو وقال :

— مولاى . لا أنفى عن نفسى التشاؤم وسوء الظن ، ولكن لا يذهب بى الحدس الى هذا الفرض الكبير .

فضرب الملك الأرض بقدمه وقال وهو يتميز من الغيظ والحنق :

— لماذا جاء هذا الوفد اللعين ؟.. بل كيف جاء اليوم ؟.. واليوم بالذات ؟.

فقال سوفخاتب ، وكان غارقا فى التفكير والأحزان :

— ترى هل هى مصادفة حزينة غريبة ؟

فقال الملك فى دهشة مروعة :

— مصادفة .. كلا .. كلا . هى الخيانة اللئيمة . أكاد ألمح وجهها يستتر بالاطراق والدهاء . كلا أيها الوزير لم يجىء القوم مصادفة لكنهم دفعوا الى هنا عمدا ليقولوا سلاما اذا ما قلت انا حربا ، وهكذا وجه الى عدوى ضربة شديدة ، وهو ماثل بين يدى يعلن الولاء ..

فامتقع وجه طاهو ولاح في وجهه الحزن ، ولم يكابر سوفخاتب فأطرق يائسا وتمتم وكأنه يحادث نفسه :

ــ اذا كانت خيانة فمن الخائن ؟

فقال الملك وهو يلوح بقبضته في الهواء :

ــ نعم .. من الخائن .. هل هنالك معضلة لا تحل .. كلا .. انا لا أخون نفسي ، ولا يخون عهدي سوفخاتب ولا طاهو ، ولا تخونني رادوبيس ، فلم يبق الا هـذا الرسـول الشقي .. وا أسفاه لقد خدعت رادوبيس .

فبرقت عينا طاهو وقال :

ــ سأسوقه الى هنا وأنتزع من فمه كلمة الحق .

فهز الملك رأسه وقال :

ــ رويدك يا طاهو رويدك .. ان المجـرم لا ينتظـرك حتى تذهب للقبض عليه ، ولعله الآن ينعم بتمن خيانته في مكان آمن لا يعلم به الا الـكهنة . كيف تمت المكيدة ؟. لا أدرى كيف . ولكنى أستطيع أن أقسم بالرب سوتيس أنهم علموا بالرسالة قبل تحرك الرسول فلم يتوانوا ، وبعثوا برسـول من لدنهم فجاء رسولى بالرسالة ، وجاء رسولهم بالوفد .. خيانة .. نذالة ، انى أعيش وسـط شعبى كالأسير .. ألا لعنـة الآلهة جميعا على الدنيا وعلى الناس .

ولاذ الرجلان بالصمت ، حزنا واشفاقا ، وكان طاهو يختلس من مولاه نظرات حزينة ، وأراد ان يحاول اعادة الأمل الى ذلك الجو القاتم فقال :

ــ ليكن عزاؤنا اننا سنضرب الضربة القاضية .

فاحتد الملك قائلا :

ــ كيف لنا بتسديد هذه الضربة ؟!.

ـ ان الحكام فى طريقهم الى الأقاليم لحشد الجنود .

ـ وهل تظن أن الكهنة يقفون مكتوفى الأيدى بازاء الجيش الذى علموا أنه يحشد لسحقهم ؟!

وكان ســوفخاتب ينوء بهم ثقيل لأنه كان يؤمن بما يقول الملك ، ولكن أراد أن ينفس عن صدره . فقال وكأنه يتمنى :

ـ عسى أن يكون ريبنا وهما ، ويكون ما نظنه خيانة محض مصادفة . فتنقشع هذه السحابة الدكناء بأهون الأسباب .

ولكن فرعون ثار على العزاء وقال :

ـ لا أزال أذكر صورة أولئك الكهنة المطرقين ، كانوا بلا شك ينطوون على سر رهيب . ولما قام رئيسهم ليتكلم ، تحدى حماس الحكام باطمئنان ، وألقى كلمته بثقة لا حد لها ، ولعله الآن يتكلم بعشرة ألسنة . آه .. الويل للخيانة .. لن يعيش مرنرع الثانى تحت رحمة الكهنة .

وغضب طاهو لحزن مولاه فقال :

ـ مولاى .. تحت امرتك حرس قوى يزن الرجل منه ألف رجل من رجالهم ، ويجود بنفسه فى سبيل مولاه عن طيب خاطر .

فاعرض فرعون عنه ، وارتمى على مقعد وتير مستسلما لأفكار رأسه الساخن . ترى هل يمكن أن يتحقق أمله بالرغم من هذه الأحزان ؟. أم يفشل مشروعه الى الأبد ؟ . يا لها من ساعة فاصلة فى حياته .. هى مفترق الطرق بين المجــد والهوان ، والقوة والانهيار ، والحب والشقاء . لقد رفض مرة أن يتنازل عن الأراضى حيلة ، فهل يجد نفسه يوما مضطرا الى التنازل عنها محافظة على عرشه ؟ آه .. لن يأتى هذا اليوم ، وان أتى فلن يسام الخسف أبدا . وسيبقى الى آخر لحظة من حياته كريما مجيدا عزيزا . وتنهد بالرغم منه حسرة . وقال لنفسه

آسفا .. آه لو لم يعثر حظى بالخيانة . وقطع عليه صوت سوفخاتب وهو يقول :

ــ مولاى دنا موعد الحفل .

فنظر اليه كمن يصحو من نوم عميق ، وتمتم « حقا » ثم قام واقفا وذهب الى الشرفة وكانت تطـل على فناء القصر العظيم ــ وقوة العجـلات متراصة به فى الانتظـار ــ وترى الميدان عن بعد تتلاطم فيه أمواج القوم المحتفلين ، فألقى على تلك الدنيا الحافلة نظرة باهتـة وعاد الى مكانه ، ثم دخل الى مخدعه وغاب هنيهة ، ورجع لابسا جلد النمر شارة الكهنوت والتاج المزدوج . وتأهبوا جميعـا للخروج ، ولـكن سـبقهم بالدخول حاجب من حجاب القصر حيا مولاه وقال :

ــ السيد طام رئيس شرطة آبو يستأذن فى المثول بين يدى مولاه .

فأذن الملك له ومشـيراه لما شاهدوه على وجهـه من آى الاضطراب ، وحيا الشرطى الكبير مولاه ، وقال مبادرا بعجلة واضطراب :

ــ مولاى ! لقد جئت الآن لأضرع الى ذاتكم المقدسـة أن تعدلوا عن الذهاب الى معبد النيل !

فخفق قلب الرجلين ، وسأل الملك منزعجا :

ــ وما الذى حملك على هذا ؟

فقال الرجل وهو يلهث :

ــ قبضت فى هذه الساعة على كثيرين كانوا يوجهون هتافات شريرة الى شخصية نبيلة يكرمها مولاى وأخشى أن تكرر هذه الهتافات فى أثناء مرور الموكب .

فخفق قلب الملك وغلت مراجـل الغضب فى دمه ، وسأله بصوت متهدج :

ـ ماذا قالوا ؟ .
فابتلع الرجل ريقه ، وقال باضطراب وارتباك :
ـ قالوا لتسقط العاهرة ! لتسقط ناهبة المعابد !!.
فاشتد الغضب بالملك ، وصاح بصوت كالرعد :
ـ يا للويل .. لا بد من أن أضرب ضربة تنفس عن صدرى أو ينفجر بنيانى .
واستطرد الرجل مذعورا :
ـ وقد قاوم المجرمون رجالى فوقعت معارك بيننا وبينهم ، وساد الاضطراب والهرج برهة ، وفى أثناء ذلك تعالت هتافات أكبر شرا وأوغل غيا .
فسأل الملك قائلا وهو يصر على أسنانه غضبا ومقتا :
ـ وماذا قالوا أيضا ؟
فأحنى الرجل رأسه ، وقال بصوت خافت :
ـ تجاسر المجرمون على ما هو أجل .
فقال الملك فى صوت ذاهل :
ـ أنا .. !؟
فلاذ الرجل بالصمت وقد امتقع وجهه ، ولم يتمالك سوفخاتب نفسه فصاح :
ـ كيف يمكن أن أصدق أذنى ؟
وصاح طاهو بغضب :
ـ هذا جنون لا يعقل .
وضحك فرعون ضحكة عصبية ـ وقال بسخرية مريرة :
ـ كيف ذكرنى شعبى يا طام ؟.. تكلم ! انى آمرك .
فقال الرجل :
ـ قال الأوغاد .. « ملكنا يلهو » .. « نريد ملكا جادا » .
فضحك الملك ضحكة كالأولى ، وقال متهكما :

ـ واأسفاه .. ما عاد مرنرع يصلح لعرش الكهنة !.. وماذا قالوا أيضا يا طام ؟.

فقال الرجل بصوت خافت لا يكاد يسمع :

ـ وهتفوا يا مولاى طويلا بحياة حضرة صاحبة الجلالة الملكة نيتوقريس ! .

فلاح برق خاطف بعينى الملك ، وردد اسم نيتوقريس بين شفتيه بصوت خافت كأنما يذكر شيئا قديما طال به عهد النسيان ، وتبادل المشيران نظرة الدهشة ، وأحس فرعون بدهشة الرجلين وتحرج رئيس الشرطة ، فلم يرض أن يجعل من الملكة حديثا مريرا ، وان سأل نفسه حيرة : ترى ما عسى أن يكون شعور الملكة حيال هذه الهتافات .. واشتد الضيق بصدره ، وأحس بموجةعنيفة منالغضب والتمرد والاستهتار، فوجه كلامه الى سوفخاتب قائلا بخشونة :

ـ هل حان موعد الذهاب ؟

فقال طام بذهول :

ـ ألن يعدل مولاى عن الذهاب ؟

فقال الملك بعنف :

ـ ألا تسمعنى أيها الوزير ؟

فاضطرب سوفخاتب وقال بخضوع :

ـ بعد برهة قصيرة يا مولاى .. حسبت مولاى سيعدل عن الذهاب ؟

فقال الملك بهدوء كالذى يسبق العاصفة :

ـ سأذهب الى معبد النيل خلل الجموع الساخطة ، وسنرى ما يكون .. عد يا طام الى واجبك .

الأمل والسم

وكانت رادوبيس فى صباح ذلك اليوم مستسلمة الى الديوان الوثير تحلم ، كان يوما يتيه على الزمان بما ينبض فيه من أفراح العيد وبما يدخر لها من فوز عظيم ، فأى سعادة وأى فرح . كان صدرها فى ذلك اليوم كبركة من ماء مصفى معطر ، تنبت على حفافيها الأزهار وتغنى فى جوها البلابل شادية نشوى .. فيا لدنيا الأفراح ، ومتى تتلقى نبأ الفوز ؟ .. حين الأصيل ، حين تبدأ الشمس رحلتها الى العالم الثانى ويشرع قلبها فى رحلته الى دنيا السعادة واستقبال الحبيب ؛ فيا لساعة الأصيل! ساعة الأصيل هى ساعة الحبيب . حين يقبل عليها بقوامه الفارع وشبابه الغض ، فيلف ذراعيه المفتولتين حول خصرها الدقيق ، يناجى اسمها العذب ، يبشرها بالفوز فيقول انتهت الآلام . وتفرق الحكام ليحشدوا الجنود ، فهنيئا لحبنا . آه ما أجمل الأصيل . .

ولكن كيف تصدق أن هذا النهار ينقضى ؟.. لقد انتظرت عودة الرسول شهرا انطوى ثقيلا مرهقا ، ولكنها تخال هذه الساعات المعدودات أشد وطأة وأكبر كلفة ، على أنه قلق يخالط طمأنينة . وخوف يمازج سعادة .. وكأنما أرادت أن تتناسى الانتظار لتتغفل الزمن ، فعطفت أفكارها الى هنا والى هناك حتى عثرت فى شرودها بالعاشق الجاثى فى معبده .. فى الحجرة الصيفية ، بنامون بن بسار ، ما أرقه وأخف ظله ، كانت تساءلت مرة حيرى كيف تجزيه على ما أدى لها من خدمة جليلة ، وقد طار على جناحى حمامة الى أقصى الجنوب ، وعاد

بأسرع مما ذهب يحمله الشوق فيعبر به مشاق الطريق ..
بل همست مرة فى ارتباك كيف تستطيع أن تتخلص منه ؟ ..
ولكنه علمها بقناعته إن الحب حبا عجيبا لا يعرف الأثرة ولا التملك ولا الطمع ، ويرضى بالأحلام والأوهام . فياله من شاب حالم بعيـد عن الدنيا . ولو أنه طمع فى قبلة مثـلا لما عرفت كيف تتحاماه ، دون أن تمد له فمها ، ولكنه لا يطمع فى شىء ، وكأنه يخشى لو لمسها أن يحترق بلهيب غامض ، أو لعله لا يصدق أنها شىء يلمس ويقبل . انه لا يرمقها بعين انسان فلا يستطيع أن يراها من بنى الانسان ، ويقنع بأن يحيا على بهائها كما يحيا نبات الأرض بالشمس السابحة فى السموات .

وتنهدت وقالت : حقا ان الحب عالم عجيب ، أما حبها فينبع متدفقا من صميم الحياة ، فالقوة التى تجذبها الى مولاها هى قوة الحياة الكاملة الرهيبة . وأما حب بنامون فيكاد أن ينقطع له عن أسباب الحياة ، ويضل فى آفاق سامية ، لا يعلن عن أثر محسوس الا فى يده الماهرة ، وأحيانا فى لسانه الملعثم الحار .. فياله من حب يرق من ناحية فيصير طيفا من الأحلام ، ويقوى من ناحية أخرى فيبث فى الصخر الأصم حياة .. فكيف تفكر فى التخلص منه وهو لا يكلفها شيئا ، فلتتركه فى معبـده آمنا ، يصـور فى جـدرانه الصامتة أجمـل التهاويل التى تـكتنف وجهها الجميل .

وعادت تهتف من أعماق صدرها : متى الأصـيل ؟ سحقا لشيث لو لبثت الى جانبها لسلتها بثرثرتها وخبثها ، ولكنها أبت الا أن تذهب الى آبو لمشاهدة حفل عيد النيل ..

يا ما أجمل الذكريات ! ذكرت العيد الماضى ، يوم اعتلت هودجها الفاخر وشقت به الحشد الكبير لترى فرعون الشاب ، ولما وقعت عيناها عليـه خفق قلبها وهى لا تدرى ، وأحست بدبيب الحب غريبا لطول عهدها بالجفاء ، فحسبته قلقا غاضبا

أو نفثة ساحر ، ذاك اليوم الخالد حين خطف النسر صندلها !، ولم يكد يبدأ اليوم الثانى حتى زارها فرعون ، ومن ثم زار قلبها الحب وتغيرت حياتها وتغيرت الدنيا جميعا .

أما العام الثانى فها هى ذى تقبع فى قصرها ، والدنيا تقصف وتلهو فى الخارج ، ولن يتاح لها الظهور الا بحساب ، فلم تبق رادوبيس الغانية الراقصة ، ولكنها منذ عام والى الأبد قلب فرعون الخافق ، وكانت أفكارها تضل هنا وهنالك فلا تلبث أن تنجذب بعنف الى موطن همها فتساءلت : ترى ماذا حدث فى الاجتماع الخطير الذى قال مولاها انه سيدعو اليه ليقرأ عليه الرسالة .. هل التأم ولبى النداء وأدناهما الى أملهما الفاتن؟.

أواه .. متى يأتى الأصيل ..

وملت الجلسة ، فقامت تتمشى ، ودلفت الى النافذة المطلة على الحديقة تسرح الطرف فى آفاقها المنفسحة . ولبثت ما لبثت حتى سمعت يدا مضطربة تطرق الباب ، فالتفتت متضايقة برمة ، فرأت جاريتها شيث تقتحم الباب مهرولة لاهثة زائغة البصر يعلو صدرها وينخفض ، وكان وجهها شاحبا كأنما تقوم ساعتها من فراش مرض طويل ، فوجب قلبها ، وطالعها نذير شؤم . وسألتها فى اشفاق :

ـ مالك يا شيث ؟ .

وهمت الجارية أن تتكلم ، فغلبها البكاء ، فجثت على ركبتيها أمام مولاتها ، وشبكت يديها على صدرها ، وأفحمت فى البكاء بحالة عصبية شديدة ، فاستولى الانزعاج على رادوبيس ، وصاحت بها :

ـ مالك يا شيث ؟ .. بالله تكلمى ، ولا تتركينى فريسة الحيرة ، فان لى آمالا أخاف عليها الوساوس .

فتنهدت المرأة تنهدا عميقا ، وشهقت شهقة عنيفة ، ثم قالت بصوت باك :

ــ مولاتى ... مولاتى ... انهم هائجون ثائرون !

ــ من الهائجون الثائرون ؟

ــ الناس يا مولاتى ... انهم يصرخون فى غضب جنونى ، مزقت الأرباب ألسنتهم .

فخفق قلبها مفزوعا وقالت بصوت متهدج :

ــ ماذا يقولون يا شيث ؟

ــ آه يا مولاتى ... انهم قوم مجانين تهذى ألسنتهم المسمومة هذيانا مخيفاً .

فكادت المرأة تجن فزعا ، وصاحت بحدة :

ــ لا تعذبينى يا شيث ! صارحينى بما قالوا ... رباه .

ــ مولاتى انهم يذكرونك ذكراً غير جميل ... ماذا فعلت يا مولاتى حتى تستحقى غضبهم ؟

فضمت رادوبيس يدها الى صدرها ، وقد آتسعت عيناها ذعراً ، وقالت بصوت متقطع :

ــ انا .. أيغضب الناس على أنا .. ألم يجدوا فى هذا اليوم المقدس ما يشغلهم عنى .. رباه .. ماذا قالوا يا شيث ... أصدقينى رحمة بى .

فقالت المرأة وهى تبكى بكاء مرا :

ــ تصايح المجانين يا مولاتى بأنك تنهبين مال الأرباب .

فتنهدت من صدر مكلوم ، وتمتمت بحزن :

ــ أواه .. ان قلبى ينخلع ويتوجس خيفة . وأخوف ماأخاف أن يضيع الفوز المرتقب وسط الصراخ وصيحات الغضب . أما كان الأجدر بهم أن يتغاضوا عنى اكراما لمولاهم ؟

فصكت الجارية صدرها بيديها ، وولولت قائلة :

ــ ان مولانا نفسه لم يسلم من أذى ألسنتهم .

وفرت صرخة فزع من فم المرأة الفزعة ، وأحست برجفة تزلزل نفسها ، وقالت :

ـ ماذا تقولين ؟.. هل تجاسروا على مس فرعون ؟
فقالت المرأة الباكية :
ـ نعم يا مولاتى وا أسفاه ... قالوا فرعون يلهو . نريد ملكاً جاداً .
فرفعت رادوبيس يديها الى رأسها كأنها تستغيث ، وتلوى جسمها من شدة الألم ، وارتمت بيأس على الديوان ، وهى تقول :
ـ رباه ... أى هول هذا ... كيف لا تزلزل الأرض . وتندك الجبال ! كيف لا تصب الشمس نيرانها على الدنيا !
فقالت الجارية :
ـ انها تزلزل يا مولاتى زلزالا شديداً . فالقوم مشتبكون فى قتال عنيف مع الشرطة ، والدماء تسيل وتنفجر ... وكادت تطؤنى الأقدام ، ففررت لا ألوى على شىء ، وانحدرت فى قاربه الى الجزيرة . وما كان أشد انزعاجى اذ وجدت النيل يموج بالسفن ، والناس على ظهرها يهتفون كما يهتف الآخرون ، وكأنهم جميعا على ميعاد .
وغشيها خور ، وطغت عليها موجة يأس خانق ، أغرقت آمالها الصارخة بغير رحمة ، وجعلت تسائل نفسها المحزونة : ترى ماذا حدث فى آبو ! وكيف وقعت هذه الحوادث الخطيرة ، وما الذى أثار الشعب وأخرجه عن وعيه ؛ وهل يقدر للرسالة الفشل ويقضى على أملها بالموت ؟ الجو مغبر كالح ، تتطاير فيه نذر شر مستطير ، ولن يتذوق قلبها الطمأنينة . ان الخوف القاتل يجثم عليه كقطعه من الزمهرير ، وقد قالت بصوت كالبكاء :
ـ الغوث أيتها الأرباب .. هل يظهر مولاى لهذا الشعب الهائج ؟.
فقالت شيث تطمئنها :
ـ كلا يا مولاتى .. لن يترك قصره قبل أن ينزل عقابه بالثائرين .

ــ رباه .. أنت لا تعرفين من هو يا شيث ... أن سيدى غضوب لا يتقهقر أبداً ، ولشد ما يخاف قلبى يا شيث لا بد أن أراه الآن .

فارتجفت الجارية رعبا وقالت :

ــ هذا مستحيل .. فالسفن الغاصة بالهائجين تغطى سطح الماء ، وحرس الجزيرة متجمع على الشاطىء .

فشدت على رأسها بجنون وصاحت :

ــ ما بال الدنيا تضيق فى وجهى ، والأبواب تسد على ؟ انى أتردى فى بئر ضيقة من اليأس ، آه يا حبيبى .. كيف ألت الآن وكيف السبيل اليك ؟! ..

فقالت شيث تخفف عنها :

ــ صبراً يا مولاتى ، ستنقشع هذه السحابة القاتمة .

ــ يمزق قلبى اربا أن أشعر بأنه يتألم ، آه يا سيدى وحبيبى ! ترى ماذا يقع الآن من الحادثات فى آبو !؟ وقهرتها الأحزان فانصهرت آلام قلبها وسالت دموعها ساخنة . وشدهت شيث لدى هذا المنظر الغريب اذ رأت رادوبيس ربيبة الحب والنعيم تذرف الدمع وتتأوه من الألم واليأس . وفكرت فى غيبوبة الحزن التى غشيتها فيما آلت اليه آمالها التى كانت مشرقة منذ قليل ، وأحس قلبها ببرودة اليأس ، وتساءلت خائفة مذعورة : هل يمكن أن يرغموا مولاها فيفقدوه سعادته وكبرياءه أو أن يجعلوا قصرها هدفا لغضبهم ومقتهم ؟ ان الحياة لا تطاق مع تحقق أى من هذه الوساوس ، والخير لها أن تفارق الحياة اذا فزعت من مجدها وسعادتها ، فاما أن تعيش رادوبيس التى خالفها الحب والمجد ، وأما أن تموت . وفكرت فى أمرها طويلا حتى أحضرت لها ذاكرة الأحزان ما كانت أدرجته طوايا النسيان ، فاستولى عليها اهتمام شديد ، وقامت من فورتها وغسلت وجهها بماء بارد

لتمحو أثر البكاء من عينيها ، وقالت لشيث : انها ستتحدث الى بنامون فى بعض الشئون . وكان الشاب منهمكا فى عمله كعادته ، غافلا عما يكدر صفو الدنيا من خطير الحدثان . ولما أحس بها اقبل نحوها فرحا ، ولكنه سرعان ما وجم وقال : « وحق هذا الحسن الالهى انك حزينة اليوم » .

فقالت وهى تخفض ناظريها :

ــ بل تعبة فقط أو كالمريضة .

ــ الجو شديد الحرارة ، لماذا لا تجلسين ساعة الى شاطىء البركة ؟

فقالت باقتضاب :

ــ جئتك برجاء يا بنامون .

فعقد ذراعيه الى صدره كأنما يقول لها هأنذا طوع بنانك . فقالت

ــ أتذكر يا بنامون أنك حدثتنى يوما عن السموم العجيبة التى ركبها ابوك ؟.

فقال الشاب وقد بدت على وجهه الدهشة :

ــ نعم أذكر بغير ريب !

ــ بنامون ، أريد قارورة من هذا السم العجيب ، الذى اطلق عليه ابوك اسم السم السعيد .

فازداد الشاب دهشة وتمتم متسائلا : « ولم ؟ » فقالت بلهجة هادئة ما استطاعت :

ــ لقد حدثت احد الأطباء فأبدى اهتماما شديداً بشأنه ، وطلب الى أن أوافيه بقارورة منه ، عسى أن ينقذ بها حياة احد مرضاه ، فوعدته يا بنامون ، فهل تعدنى بدورك أن تحضرها لى فى أقرب وقت ؟

فقال الشاب بسرور ، وكان يسعده أن تطلب اليه ما تشاء :

ـ ستكون محضرة بين يديك بعد ساعات قلائل .

ـ كيف ؟ الا ينبغى أن ترحل الى أمبوس لاحضارها ؟

ـ كلا . . لدى قارورة فى مسكنى بآبو .

فأثار تصريحه اهتمامها بالرغم من أحزانها ، ورمقته بنظرة دهشة ، فخفض عينيه وقد تخضب وجهه احمراراً وقال بصوت خافت :

ـ أحضرتها فى تلك الأيام الأليمة ، حين كدت أشفى من حبى على اليأس . ولولا ما أبديت نحوى بعد ذلك من عطف لكنت الآن الى جوار أوزوريس !

وذهب بنامون ليحضر لها القارورة ؛ أما هى فهزت كتفيها استهانة وقالت وهى تهم بالمسير :

ـ قد ألوذ بها مما هو شر منها !!

سهم الشعب

صدع طاهو بأمر مولاه ، فأدى التحية وذهب يعلو وجهه الارتباك والخوف ، وظل الرجلان واقفين ممتقعى الوجه حتى خرج سوفخاتب عن صمته ، فقال بتوسل :

— أضرع اليك يا مولاى أن تعدل عن الذهاب اليوم الى المعبد.

ولكن فرعون لم يتسع صدره لهذه النصيحة ، فقطب جبينه غضباً وقال :

— أأفر لدى أول هتاف ؟

فقال الوزير :

— مولاى ان القوم هائجون غاضبون ، فينبغى التروى .

— يحدثنى قلبى بأن خطتنا سائرة الى الفشل المحتوم ، فاذا تراجعت اليوم خسرت هيبتى الى الأبد .

— وغضب الشعب يا مولاى ؟

— سيهدأ ويسكن اذا رآنى أشق صفوفه على عجلتى كالمسلة الشامخة ، واقتحام الأهوال ولا التسليم والخنوع .

ومضى فرعون يذرع الحجرة جيئة وذهابا ساخطا شديد التأثر ، فسكت سوفخاتب وهو كظيم ، وعطف ناظريه الى طاهو وكأنه يستغيث به . ولكن القائد كان غارقا فى الهموم كما بدا من امتقاع وجهه ، وشرود نظرته ، وثقل أجفانه ، فشملهم صمت عميق ، ولم يكن يسمع الا وقع أقدام الملك . . .

وقطع عليهم سكونهم أحد الحجاب ، وكان متسرعا مضطربا ، فانحنى للملك . وقال :

ـ ضابط من الشرطة يستأذن يا مولاى فى المثول بين يديك .
فأذن له الملك ، وحدج رجليه بنظرة يفحص بها اثر قول الحاجب فى نفسيهما ، فوجدهما قلقين مضطربين ، فعلت فمه ابتسامة ساخرة ، وهز كتفيه العريضتين استهانة . ودخل الضابط وكان يلهث من الجهد والاضطراب ، وكانت ثيابه معفرة وقلنسوته مضعضعة تنذر بالشر ، فأدى التحية ، وقال قبل أن يؤذن له فى الكلام :
ـ مولاى !. ان الشعب مشتبك مع رجال الشرطة فى قتال عنيف ، وقد قتل من الجانبين رجال كثيرون . ولكن سيقتحمنا القوم اذا لم تصلنا نجدات قوية من الحرس الفرعونى .
وارتاع سوفخاتب وطاهو ارتياعا ، ونظرا الى فرعون فوجداه مرتعش الشفتين من الغضب ، وقد صاح بصوت أجش :
ـ وحق الأرباب جميعا ما أتى هذا الشعب للاحتفال بالعيد .
فاستدرك الضابط قائلا :
ـ وقد آذنتنا العيون يا مولاى أن الكهنة يخطبون الناس فى أطراف المدينة زاعمين لهم أن فرعون يتذرع بوجود حرب وهمية فى الجنوب ليحشد جيشاً يذل به الشعب ، والناس تصدقهم ويشتد بهم الغضب ، ولولا وقوف الشرطة فى وجههم لاقتحموا السبل الى القصر المقدس .
فصاح فرعون بصوت كالرعد :
ـ قطع الشك باليقين ، وافتضحت الخيانة اللئيمة ، وها هم أولاء يعلنون العداوة ويبدأوننا بالهجوم !
ووقع الكلام من الآذان موقعاً غريبا لا يصدق ، وبدا على الوجوه كأنها تتساءل فى دهشة وانكار : أحقاً ان هذا فرعون ؟ وهذا شعب مصر ؟.. ولم يطق طاهو صبراً ، فقال لمولاه :
ـ مولاى ! هذا يوم كئيب كأنما دسه الشيطان خفية فى دورة

الزمان ، وكانت بدايته سفك دماء ، والرب أعلم كيف يكون منتهاه، فمرنى أن أقوم بواجبى .

فسأله فرعون :

ـ وماذا أنت فاعل يا طاهو ؟

ـ سأوزع الجنود على أماكن الدفاع الحصينة ، وأقود فرقة العجلات لملاقاة الثائرين ، قبل أن يتغلبوا على الشرطة ويقتحموا الميدان الى القصر . . .

فابتسم فرعون أبتسامة غامضة وصمت مليا ، ثم قال بصوت رهيب :

ـ سأقودها بنفسى .

فانخلع قلب سوفخاتب فى صدره ، وصاح بالرغم منه :

ـ مولاى !

فضرب الملك صدره بيديه بعنف ، وقال :

ـ ما زال هذا القصر حصنا ومعبداً منذ آلاف السنين ، ولن يصير على عهدى هدفا رخيصا لكل متمرد .

خلع الملك جلد النمر ورماه بازدراء ، وأسرع الى مخدعه ليرتدى لباسه الحربى . وفقد سوفخاتب اتزانه ، وتوجس خيفة وشراً ، فالتفت الى طاهو . وقال بلهجة الآمر :

ـ أيها القائد لا وقت لدينا نضيعه ، فاذهب وأعد الدفاع عن القصر ، وانتظر ما يأتيك من الأوامر .

وخرج القائد يتبعه الشرطى ، ولبث الوزير ينتظر الملك .

ولكن الحادثات لم تنتظر ، فقد حملت الريح ضوضاء صاخبة ، ما زالت تعلو وتشتد حتى طبقت على الآفاق ، فهرول سوفخاتب الى الشرفة المطلة على فناء القصر وألقى بناظريه الى الميدان ، فرأى جموع الشعب تعدو قادمة من بعيد هاتفة ملوحة بالسيوف والخناجر والعصى . كأنها أمواج فيضان هائل جارف لا ترى العين

منها الا رءوساً عارية وسلاحا لامعاً . فأحس الوزير بالفزع ونظر الى أسفل ، فرأى العبيد فى حركة سريعة يثبتون المتاريس خلف الباب العظيم ، وجرى المشاة كالنسور وارتقوا الأبراج المقامة على السور المحيط فى الأمام وعلى الجانبين الشمالى والجنوبى ، واندفعت قوات عظيمة منهم الى ممر الأعمدة الموصل الى الحديقة يحملون الرماح والقسى ، اما العجلات ، فقد ارتدت الى الوراء ، واصطفت صفين طويلين تحت الشرفة استعداداً للانطلاق فى الفناء اذا اقتحم الباب الخارجى .

وسمع سوفخاتب وقع قدمين خلفه ، فالتفت الى الوراء ، فرأى فرعون واقفاً على عتبة الشرفة فى ثياب القيادة العليا ، وعلى رأسه تاج مصر المزدوج ، وكانت عيناه ترسلان شرراً متطايراً ، والغضب مرتسما على وجهه كلسان من اللهب ، ويقول حانقاً مغيظاً :

ــ حوصرنا قبل أن نبدى حراكا !

فقال سوفخاتب :

ــ القصر يا مولاى قلعة لا تؤخذ ، يدافع عنها جنود جبابرة ، وسيرتد الكهنة مهزومين .

وجمد الملك فى مكانه ، وتراجع الوزير وراءه ، وجعلا ينظران فى صمت محزن الى الجموع التى لا يحصيها العد ، وهى تهدر كالوحوش ، وتلوح مهددة بسلاحها ، وتهتف بأصوات كالرعد : « العرش لنيتوقريس » « ليسقط الملك العابث » . وكانت جنود الحرس تطلق السهام من خلف الأبراج ، فتستقر فى المقاتل ، ورد الثائرون بسيل عارم من الأحجار والأخشاب والسهام .

وهز فرعون رأسه ، وقال :

ــ مرحى ... مرحى ... ايها الشعب الكاسر الذى جاء لخلع الملك العابث ، ما هذا الغضب ، ما هذه الثورة ، لماذا تهدد

بهذا السلاح ، أتريد حقا أن تغمده فى قلبى ؟ .. مرحى ... مرحى .... انه لمنظر حقيق بأن يخلد على جدران المعابد ... مرحى مرحى يا شعب مصر .

وكان الحراس يقاتلون بشدة وبسالة ، ويطلقون السهام كالمطر ، فاذا سقط منهم قتيل حل مكانه غيره مستهيناً بالموت ، والقواد على متون الجياد يطوفون بالأسوار ويديرون القتال .

وانه ليشاهد هذه المناظر الأليمة ، اذ سمع صوتا يعرفه حق المعرفة يقول :

ــ مولاى .

فالتفت الى الوراء مدهوشا ، فرأى الذى يناديه على قيد خطوتين ، فقال بعجب :

ــ نيتوقريس !

فقالت الملكة بصوت حزين :

ــ نعم يا مولاى . لقد صك أذنى صراخ بشع لم يسمع من قبل فى هذا الوادى ، فجئت ساعية اليك لأعلن ولائى ، وأشاطرك المصير .

قالت ذلك ، ثم ركعت على ركبتيها وأحنت رأسها ، فتقهقر سوفخاتب الى الخارج . وبادر الملك الى معصميها ورفعها من ركعتها ، ونظر اليها بعينين مرتبكتين ، ولم يكن رآها منذ اليوم الذى جاءت فيه الى جناحه وردها أسوأ رد ، فاشتد به الحرج والألم ، على أن صياح القوم وصراخ المتقاتلين رداه الى ما كان عليه ، فقال لها :

ــ شكراً لك أيتها الأخت ، تعالى انظرى الى شعبى ، انه يحيينى فى يوم العيد .

فخفضت عينيها ، وقالت فى حزن عميق :

ــ كبرت كلمة تخرج من أفواههم .

واستحال تهكم الملك غضباً وسخطاً وازدراء ، وقال بلهجة تنطوى على الاشمئزاز :

ــ بلد مجنون ، جو خانق ، قلوب ملوثة ... خيانة ... خيانة ... خيانة ...

فارتعدت فرائص الملكة لذكر كلمة الخيانة ، وجمدت عيناها من الذعر ، وأحست بأنفاسها تحتبس فى صدرها .

ترى هل حمل هتاف القوم لها على بعض الظن ؟.. وهل يكون جزاؤها الاتهام بعد أن طوت فؤادها على أسقامه ، وجاءته طوعاً الى من أهانها وأشقاها ؟.. وهالها الأمر ، فقالت :

ــ وا أسفاه يا مولاى ، ليس فى وسعى الا أن أشاطرك المصير ، ولكنى أعجب من الخائن ، وكيف كانت الخيانة !؟

ــ الخائن رسول ائتمنته على رسالة ، فسلمها الى عدوى ؟!

فقالت الملكة بلهجة استغراب :

ــ لا علم لى بالرسالة ، ولا بالرسول ، ولا أظن أن الوقت يتسع لانبائى . وما أتمنى عليك من شىء الا أن أظهر الى جانبك أمام الشعب الذى يهتف لى ليعلم أنى أواليك ، وأنى أعادى من يعاديك .

ــ شكراً لك يا أختاه ، ليس من حيلة ، وما على الا أن أستعد لموت شريف .

ثم أمسك بذراعها ، وسار بها صوب حجرة اعتكافه ، وأزاح الستار المسدل على بابها ودخلا معا الى الحجرة الفاخرة . وكان يطالع الداخل محراب منحوت فى الجدار يقوم بداخله تمثالان للملك والملكة السابقتين ، فاتجه الملكان الى تمثالى والديهما ، ووقفا أمامهما خاشعين صامتين ينظران بعينين حزينتين كئيبتين ، وقال الملك بصوت ثقيل ، وهو ينظر الى تمثال والديه :

ــ ترى ما رأيكما فى ؟!

وسكت لحظة كأنه ينتظر أن يتلقى الجواب ، وعاوده انفعاله فغضب على نفسه ، ثم ثبت عينيه على وجه أبيه ، وقال :

ـ لقد أورثتني ملكا عظيما ومجدا أثيلا ، فماذا صنعت بهما ؟ لم يكد يمضي عام على توليتي حتى شارفت الدمار . وا أسفاه لقد أذللت عرشي موطئاً للنعال ، وجعلت اسمي مضغة الأفواه ، واكتسبت لنفسي اسماً جديدا لم يطلق على فرعون من قبل ، هو الملك العابث .

وانحنى رأس الملك الشاب مثقلا حزيناً ، ولبث ينظر الى الأرض بعينين مظلمتين ، ثم رفعهما الى تمثال والده ، وتمتم :

ـ لعلك وجدت في حياتي ما أخجلك ، ولكنك لن تخجل من موتي أبدا !

والتفت فجأة الى الملكة ، وقال لها :

ـ هل تغفرين اساءتي اليك يا نيتوقريس ؟

وكان التأثر قد بلغ منها مبلغاً عظيما ، فاغرورقت عيناها بالدموع ، وقالت :

ـ لقد نسيت همومي في هذه الساعة .

فقال بانفعال شديد :

ـ طالما أسأت اليك يا نيتوقريس ، لقد تطاولت على كبريائك ، وظلمتك وجعلت حماقتي من سيرتك اسطورة حزينة تلقى بالانكار والغرابة . كيف حدث هذا ؟... وهل كنت استطيع أن أغير المجرى الذي تنصب فيه حياتي ؟... لقد غمرتني الحياة وتولاني جنون عجيب ، ولا أستطيع حتى في هذه الساعة أن أعلن ندمي . وا اسفاه ان العقل يستطيع أن يعرفنا بسخفنا وتفاهتنا ، ولكن يبدو لي انه لا يقدر على تلافيهما . هل رأيت افدح من هذه المأساة التي اودها ؟... ومع هذا فلن يفيد الناس منها الا بلاغة كلامية ، وسيبقى الجنون ما بقيت حياة الانسان . بل لو بدأت

حياتى من جديد لما تجنبت الوقوع فى المأساة مرة أخرى ، ايتها الأخت .. لقد ضاقت نفسى بكل شىء ، وما من فائدة ترجى . فالخير أن أستحث النهاية .

وبدا على وجهه العزم والاستهتار ، فسألته حائرة قلقة :

ـ أى نهاية يا مولاى ؟

فقال بحدة :

ـ لست نذلا لئيما ، وأستطيع أن أذكر واجبى بعد طول النسيان . ما جدوى القتال ؟ ... سيصرع جميع رجالى المخلصين أمام عدو لا يحصى له عدد ، وسيأتى دورى حتما بعد أزهاق آلاف من الأرواح من جنودى وشعبى ، ولست جبانا رعديدا يلوذ بأهداب الحياة قابضا على خيط واه من الأمل ، فلأحقن الدماء وأواجه الناس بنفسى .

فارتاعت الملكة وقالت :

ـ مولاى ... أتحمل ضمير رجالك وزر التخلى عن الدفاع عنك ؟...

ـ بل لا أريد ان أضحى بهم عبثا ، وسألقى عدوى وحيدا لنصفى حسابنا معا .

فأحست بامتعاض شديد ، وكانت تعرف عناده ، فيئست من اقناعه ، وقالت بهدوء وحزم :

ـ سأكون الى جانبك .

ولكنه هلع ، وأمسك بذراعيها ، وقال بتوسل :

ـ نيتوقريس ، ان الشعب يريدك ، وحسنا أراد . فأنت جديرة بحكمه فابقى له . اياك وأن تظهرى الى جانبى فيقولوا ان الملك يحتمى بزوجه أمام شعبه الغاضب .

ـ وكيف أتخلى عنك ؟

ـ افعلى هذا من أجلى ، ولا تقدمى على عمل يفقدنى شرفى الى الأبد .

فأحست المرأة بالحيرة والارتباك والضيق الشديد ، فصاحت يائسة : « يا للساعة الرهيبة » .
فقال الملك :

— هذه رغبتى نفذيها اكراما لى ، لا تقاومى وحق الدنيا ، فان كل دقيقة تمر يسقط جنود بواسل بغير ثمن . الوداع أيتها الأخت الكريمة ، إنا ذاهب موقنا بأنك لن تلطيخينى بالعار فى ساعتى الأخيرة . ان من يتمتع بالسلطان الكامل لا يستطيع أن يقنع بالأسر فى قصر . فالوداع أيتها الدنيا ، الوداع أيتها اللذات والآلام .. الوداع أيها المجد الكاذب والمظاهر الجوفاء . لقد مجت نفسى كل شىء ، فالوداع الوداع ..
وهوى بفمه فقبل رأســها ، والتفت الى تمثالى والديه ، وانحنى لهما . ثم ذهب .

ووجد سوفخاتب ينتظر فى الردهة الخارجية ، جامدا كتمثال أخنى عليه القدم ؛ فلما رأى مولاه دبت فيه الحياة وتبعه فى سكون ، وفسر خروجه على هواه ، فقال : « سيبث ظهور مولاى روح الحماس فى قلوبهم الباســلة » ، فلم يجبه الملك وهبطا الأدراج معا الى ممر الأعمدة الطويل الذى يصل ما بين الحديقة والفناء ، وأرسل فى طلب طاهو ، وانتظر صامتا . وفى تلك اللحظة نزعت نفسه الى الناحية الجنوبية الشرقية ، الى بيجة .. وتنهد من أعماق قلبه . لقد ودع كل شىء الا أحب الأشياء اليه ، فهل تحم النهاية قبل أن يلقى نظرة على وجه رادوبيس ويسمع صوتها لآخر مرة ؟.. وأحس قلبه بحنين أليم وحزن شديد ، وصحا من غفوة همومه على صوت طاهو يحييه ، فاندفع بقوة لا تقهر الى سؤاله عن طريق بيجة قائلا :
— هل النيل آمن ؟
فأجابه القائد قائلا ، وكان ممتقع الوجه شديد الشحوب :

ـ كلا يا مولاى . ولقد حاولوا أن يهاجمونا من الخلف بالقوارب المسلحة ، ولكن أسطولنا الصغير ردهم بغير عناء ، ولن يؤخذ القصر من هذه الناحية أبدا .

ولم يكن القصر الذى يهم الملك ، لذلك أحنى رأسه ، وقد أظلمت عيناه . سيموت قبل أن يلقى نظرة وداع على الوجه الذى باع الدنيا ومجدها من أجله . ترى ماذا تفعل رادوبيس فى هذه الساعة المفجعة .. هل بلغها ما أصاب آمالهما من الانهيار ، أم انها ما تزال تتيه فى وديان السعادة ، وتنتظر عودته بفارغ الصبر ! ؟ .

ولم يكن الوقت يسمح له بالاستلام الى أحزانه ، فطوى آلامه فى صدره ، وقال لطاهو آمرا :

ـ مر جنودك أن تخلى الأسوار ، وتكف عن القتال ، وتعود الى ثكناتها .

فاستولت الدهشة على طاهو ، ولم يصدق سوفخاتب أذنيه فقال بانزعاج :

ـ ولكن الشعب يقتحم الباب توا ! .

ولبث طاهو واقفا لا يبدى حراكا ، فصاح الملك بصوته كالرعد دوى دويا مخيفا فى ممر الأعمدة :

ـ اصدع بما أمرت .

وذهب طاهو ذاهلا ينفذ أمر مولاه ، وتقدم فرعون بخطى ثابتة نحو فناء القصر ، فالتقى عند نهاية الممر بفرقة العجلات المصطفة ، وقد رآه الضباط والجنود ، فسلوا أسيافهم وأدوا التحية ، فنادى الملك قائد الفرقة وقال له :

ـ عد بفرقتك الى الثكنات ولا تبرحها حتى تأتيك أوامر أخرى .

فأدى القائد التحية وجرى نحو فرقته ، ونادى فى الجند بصوت شديد فتحركت العجلات بسرعة وانتظام الى ثكناتها فى

الجناح الجنوبى من القصر . وكان سوفخاتب ترتعد أوصاله ، ولا تكاد تحمله قدماه الضعيفتان ، وقد أدرك ما يريده مولاه ، ولكنه لم يستطع أن ينطق بكلمة .

ومضت الجند تخلى مواقعها الحصينة منفذة الأمر الرهيب ، وتنزل عن الأسوار والأبراج وتنطوى فى نظام الى الويتها ، ثم تعدو بسرعة الى الثكنات يتقدمها ضباطها . وما لبثت أن خلت الأسوار ، وخلا الفناء والممرات حتى من قوات الحرس العادى المنوط بها واجب الحراسة فى أوقات السلم .

وظل الملك واقفا عند مدخل الممر والى يمينه سوفخاتب ، وعاد طاهو لاهثا ، ووقف الى يساره ، وقد بدا وجهه كالشبح المخيف . وكان كلا الرجلين يرغب فى التوسل الى الملك برغبة حارة ، ولكن ما بدا على وجهه من الجمود والصلابة والشدة ، بدد شجاعتهما ، فلازما الصمت مرغمين . والتفت الملك اليهما . وقال بهدوء :

ــ لماذا تنتظران معى ؟

فارتعب الرجلان أيما ارتعاب ، ولم يستطع طاهو الا أن ينطق بهذه الكلمة بتوسل واشفاق : «مولاى» أما سوفخاتب ، فقال بهدوء غير عادى :

ــ اذا أمرنى مولاى بالتخلى عنه سأصدع بأمره لا محالة ، ولكنى سأزهق نفسى فى الحال .

فتنهد طاهو ارتياحا كأنه ظفر بالحل الذى أعياه طلبه ، وتمتم قائلا : « أحسنت أيها الرئيس » ، وسكت فرعون ، ولم يقل شيئا .

وفى أثناء ذلك كانت توجه الى باب القصر الكبير ضربات شديدة قاصمة ، ولم يتجاسر أحد على اعتلاء الأسوار كأنهم توجسوا خيفة من انسحاب الحرس المفاجىء ، وتوهموا أنه

ينصب لهم شراكا قاتلا ، فوجهوا كل قوتهم الى الباب . ولم يحتمل الباب ضغطهم زمنا طويلا فتزعزعت المتاريس وارتج بنيانه وهوى بقوة عنيفة رجت الأرض رجا ، واندفعت الجموع متدفقة صاخبة ، وانتشروا فى الفناء كغبار ريح الصيف . وكانوا يتدافعون بعنف ، وكأنهم يتقاتلون ، ويتباطأ المتقدمون منهم ما استطاعوا خشية خطر غير منظور . وما زالوا فى تقدمهم حتى شارفوا القصر الفرعونى ، ولمحت أعينهم الواقف عند مدخل الممر ، وعلى رأسه تاج مصر المزدوج فعرفوه ، وأخذوا بمنظره ووقفته وانتظاره وحيدا لهم . وتشبثت أقدام الذين على الرءوس بالأرض ، ونشروا أذرعهم يوقفون التيار الجارف المنصب وراءهم ، وصاحوا فى الجموع :

ـ مهلا .. مهلا .

ولعب أمل ضعيف بقلب سوفخاتب حين رأى الذهول يستولى على قادة الثائرين فيشل أعضاءهم ، ويزيغ أبصارهم ، وتوقع قلبه المتهالك معجزة تخلف ظنه الأسود . ولكن كان يوجد بين الثائرين دهاة يشفقون مما يرجو قلب سوفخاتب ، وخشوا أن ينقلب فوزهم هزيمة ، ويخسروا قضيتهم الى الأبد ، فامتدت يد الى قوسها ، ووضعت سهما فى كبده ، وسددته الى فرعون وأطلقته ، فانطلق السهم من وسط الجموع واستقر فى أعلى صدر الملك دون أن تمنعه قوة أو رجاء . وصرخ سوفخاتب كأنما هو الذى أصيب ، ومد يديه يسند الملك فالتقتا مع يدى طاهو الباردتين . وأطبق الملك شفتيه فلم يخرج منهما أنين ، ولا آهة ، وتماسك بما بقى فيه من قوة ليحفظ توازنه وقد تقطب جبينه ، وارتسم عليه الألم ، وأحس سريعا بخور وضعف ، وأظلمت عيناه فترك نفسه لأيدى رجليه المخلصين .

وساد الصفوف الأمامية سكون رهيب ، وعقد الألسنة

صمت ثقيل ، وهلعت الأعين ، وأرسلت نظرات زائغة الى الرجل العظيم الذى يعتمد على رجليه تتحسس يده موضع السهم فى صدره فيلطخها الدم الساخن المتدفق بغزارة ، وكأنهم لا يصدقون أعينهم ، أو كأنهم هاجموا القصر لغير هذه الغاية .

ومزق السكون صوت من المؤخرة يسأل : « ماذا هنالك؟ » فقال آخر بصوت خافت : « قتل الملك !! » .

وتناقلتها الألسنة بسرعة جنونية . وتصايح بها الناس ، وهم يتبادلون نظرات الحيرة والارتياع .

ونادى طاهو عبدا وأمره أن يحضر هودجا ، فجرى الرجل الى داخل القصر ، وعاد يحمل هودجا هو وجماعة من العبيد ، فوضعوه على الأرض ورفعوا جميعا فرعون وأنامُوه فى رفق . وانتشر الخبر داخل القصر ، فجاء طبيب الملك مسرعا ، وظهرت خلفه الملكة ، وكانت تسرع الخطى فى اضطراب باد ، ولما وقعت عيناها على الهودج وعلى النائم عليه جرت اليه فزعة ، وجثت على ركبتيها الى جانب الطبيب ، وهى تقول بصوت متهدج :

— يا للويل .. لقد أصابوك يا مولاى كمشيئتك !

وشاهد القوم الملكة ، فصاح واحد منهم : «جلالة الملكة » . وانحنت هامات الشعب الواجم كأنه فى صلاة جامعة .. وأخذ الملك يفيق من أثر الصدمة الأولى ، ففتح عينيه المغمضتين ، ومضى يقلبهما فيمن حوله فى هدوء وضعف . وكان سوفخاتب يحملق فى وجهه فى ذهول وصمت ، وكان طاهو جامدا ووجهه كوجوه الموتى ، وكان الطبيب يفحص الجرح ، ويكشف عنه قميص الزرد . أما الملكة فقد اكتسى وجهها بالجزع والألم ، وقالت للطبيب :

— أليس بخير ؟.. قل لى انه بخير !

فأدرك الملك ما تقول ، وقال ببساطة :
ــ كلا يا نيتوقريس ، انه سهم قاتل .
وأراد الطبيب أن ينتزع السهم ، ولكن الملك قال له :
ــ دعه ..لا فائدة ترجى من هذا العذاب .
واشتد التأثر بسوفخاتب ، فقال لطاهو بانفعال شديد غير نبرات صوته تغيرا تاما .
ــ ادع جندك ، وانتقم لمولاك من المجرمين .
وبدت على الملك المضايقة ، فرفع يده بصعوبة ، وقال :
ــ لا تتحرك يا طاهو ، هل هانت عليك أوامري يا سوفخاتب في رقادي هذا !. لاقتال بعد الآن ، قولوا للكهنة انهم بلغوا غايتهم ، وان مرنرع الثاني على فراش الموت ، فليرجعوا بسلام .
وسرت رعدة في جسم الملكة فمالت على اذنه ، وقالت همسا :
ــ مولاى ! لا أحب أن أبكى أمام قاتليك ، ولكن ليطمئن قلبك ، فوحق ابوينا ، وحق هذا الدم الزكى لأنتقمن من عدوك انتقاما تتحدث به الأزمان جيلا بعد جيل .
فابتسم اليها ابتسامة خفيفة يعبر بها عن شكره ومودته ، وغسل الطبيب الجرح وسقاه جرعة من دواء مسكن ، ووضع بعض الأعشاب حول السهم . واستسلم الملك الى يديه ولكنه كان يشعر بدنو أجله وباقتراب الساعة الفاصلة . ولم ينس في رقاده الوجه الحبيب الذى تمنى لو يودعه قبل النهاية المحتومة فلاحت في عينيه نظرات حنين ، وقال بصوت خافت بغير وعى منه الى ما حوله :
ــ رادوبيس .. رادوبيس .
وكان وجه الملكة قريبا من وجهه فسمعته ، وأحست بطعنة نجلاء تخترق شغاف قلبها ، فرفعت رأسها وقد أحست بدوار شديد . ولم يلق بالا الى شعور الآخرين ، فأومأ الى طاهو ، فبادر الرجل اليه ، فقال له برجاء :

ــ رادوبيس .

فقال القائد :

ــ هل آتى بها يا مولاى ؟

فقال بصوته الخافت :

ــ كلا .. احملنى اليها ، فى قلبى بقية حياة أريد أن تنفد فى بيجة .

ووجه طاهو نظرة الى الملكة فى ارتباك شديد ، فقامت الملكة واقفة وقالت بهدوء :

ــ نفذ مشيئة مولاى .

وسمع الملك صوتها ، وأدرك قولها ، فقال لها :

ــ أيتها الأخت ، طالما غفرت لى الذنوب ، فاغفرى لى هذه أيضا .. انها رغبة ميت .

فابتسمت الملكة ابتسامة حـزينة ، وانحنت على جبينـه ولثمته ، ثم أوسعت للعبيد .

الوداع

انحدرت السفينة فى هدوء متجهة صوب جزيرة بيجة ، والهودج فى مقصورتها بحمله الثمين ، يقف الطبيب عند رأسه ، وطاهو وسوفخاتب عند قدميه .. وكانت هذه أول مرة يخيم فيها الحزن على السفينة ، فتحمل مولاها نائما مستسلما ، يغشى وجهه ظل الموت .. وكان الرجلان يلازمان الصمت وعيناهما الحزينتان لا تفارقان وجه الملك الشاحب ، وكان يرفع جفنيه الثقيلين ، وينظر اليهما نظرة ذابلة ، ثم يعود فيغمضهما فى تراخ . ومضت السفينة تدنو من الجزيرة رويدا رويدا ، حتى رست الى سلم حديقة القصر الذهبى .

ومال طاهو على أذن سوفخاتب ، وهمس قائلا :

ــ أرى أن يسبق أحدنا الهودج حتى لا تؤخذ المرأة بغتة .

ولم يكن سوفخاتب فى تلك الساعة الرهيبة يبالى شعور انسان . فقال باقتضاب :

ــ افعل ما بدا لك .

ولكن طاهو لم يبرح مكانه ، ولبسته حيرة التردد ، فقال :

ــ يا له من نبأ لا يدرى الانسان كيف يؤديه اليها .

فقال سوفخاتب بحدة :

ــ ماذا تخشى أيها القائد ؟!. ان من يبتلى بمثل ما ابتلينا به لا يعمل حسابا لمحذور .

قال سوفخاتب ذلك ، وغادر المقصورة مسرعا ، وصعد درجات السلم الى الحديقة ، واخترق الممشى مهرولا حتى انتهى

الى البركة ، فاعترضت سبيله الجارية شيث ، وقد دهشت الجارية لمرآه ، وكانت تعرفه من تلك الأيام الخوالى . وفتحت فاها لتكلمه ، ولكنه قطع عليها السبيل قائلا بسرعة :

ـ أين سيدتك ؟ .

فقالت شيث :

ـ مسكينة سيدتى لا تعرف اليوم لنفسها مستقرا ، وما زالت تدور بالحجرات ، وتطوف بالحديقة حتى :

وفرغ صبر الرجل فقاطعها قائلا بحدة :

ـ أين سيدتك ؟.

فقالت دهشة مستاءة :

ـ فى الحجرة الصيفية يا سيدى .

وأسرع الرجل الى الحجرة ، ودخل متنحنحا . وكانت رادوبيس جالسة على كرسى مسندة رأسها الى يدها ، فلما أحست بالداخل التفتت اليه ، وسرعان ما عرفته ، فقامت واقفة وكأنها تقفز قفزا ، وقالت باهتمام وقلق :

ـ الرئيس سوفخاتب .. أين مولاى ؟..

فقال الرجل الغارق فى حزنه بذهول :

ـ سيأتى عما قليل ..

فضمت يديها الى صدرها فرحا ، وقالت بصوت بهيج :

ـ لشد ما عذبتنى المخاوف على سيدى ، لقد بلغنى أنباء العصيان المحزنة ، ثم انقطع عنى كل شيء ، فتركت وحدى الى وساوس قلبى .. متى يأتى يا سيدى ؟

وذكرت بسرعة خاطفة انه لم يتعود أن يرسل رسولا بين يديه فاعتورها القلق ، وقالت بسرعة قبل أن يبدأ سوفخاتب كلامه :

ـ ولكن لماذا بعثك الى ؟

فقال الوزير بجمود :

ـ صبرا يا سيدتى ، فلم يرسلنى أحد ، والحقيقة الأسيفة أن مولاى أصيب .

ووقعت هذه الكلمة الأخيرة من أذنيها موقعا غريبا داميا ، فحملقت فى وجه الوزير الكئيب فزعة ، وصدرت عن صدرها آهة زفرة حرى مرتعشة ، فقال سوفخاتب الذى أفقده الحزن شعوره :

ـ صبرا صبرا .. سيصل مولاى محمولا على هودجه كمشيئته . لقد أصيب بسهم فى هذا اليوم المنكود الذى غدا عيدا واضحى مأتما مروعا .

ولم تحتمل المكوث فى الحجرة ، فجرت الى الحديقة كالفرخة الذبيحة . ولكنها لم تكد تجاوز العتبة حتى سمرت قدماها فى الأرض ، وثبتت عينيها على الهودج يحمله العبيد متجهين صوب الحجرة ، فأفسحت لهم الطريق ، وهى تضع يديها على رأسها المضطرب من هول المنظر ، ثم تبعتهم على الأثر . وقد وضعوا الهودج فى حرص شديد وسط الحجرة وانسحبوا خارجا ، وخرج فى ذيلهم سوفخاتب ، وخلا المكان لها وله .. واندفعت الى الركوع الى جانبه ، وشبكت أصابع يديها وشدت عليهما بقسوة وبحالة عصبية عنيفة ، ونظرت الى عينيه الساهمتين الذابلتين ، وقد انقطعت منهما الأنفاس ، وجرى بصرها الزائغ على صدره المضطرب ، فرأت بقع الدم والسهم النافذ ، فاقشعر بدنها بحالة ألم جنونى ، وصاحت بصوت متقطع من العذاب والفزع :

ـ أصابوك .. يا للهول !.

وكان نائما فى تراخ وهمود ، وقد أتت الرحلة الصغيرة على بقية قواه الآخذة فى الانحلال السريع ، ولكنه حين سمع صوتها ورأى وجهها الحبيب دبت فيه نسمة حياة رقيقة ، ولاح فى عينيه المظلمتين ظل ابتسامة خفيفة .

ولم تكن تراه الا هائجا مفعما بالحياة كالعاصفة ، فكادت تجن ، وهي تشاهده كمن شاخ وذوى منذ دهر طويل . وألقت نظرة نارية على السهم الذى أحدث كل هذا ، وقالت بتألم :

ــ كيف تركوه فى صدرك ؟!. هل استدعى الطبيب ؟!..

فاستجمع قواه الخائرة المشتتة ، وقال بصوت ضعيف :

ــ لا فائدة .

فلاحت فى عينيها نظرة جنونية . وقالت بصوت العتاب :

ــ لا فائدة يا حبيبى .. كيف تقول هذا !.. هل هانت عليك حياتنا !.

فمد يده فى ضعف شديد حتى مست كفها الباردة ، وهمس قائلا

ــ هى الحقيقة يا رادوبيس ، لقد جئت لأموت بين يديك فى المكان الذى أحببته أكثر من أى مكان فى الدنيا .. فلا تندبى حظنا ، وامنحينى صفاء .

ــ مولاى ، أتنعى الى نفسك ؟!. يا لساعة الأصيل هذه ، كنت أنتظرها يا حبيبى بنفس أضناها الشوق وغرر بها الأمل ، وكنت أرجو أن تجىء حاملا لى بشرى الفوز ، فجئت حاملا هذا السهم .. كيف لى بالصفاء ؟!.

فازدرد ريقه بصعوبة ، وقال بتوسل وبصوت كالأنين :

ــ رادوبيس تناسى هذا الألم وادنى منى ، أريد أن أنظر الى عينيك الصافيتين .

انه يريد أن يرى الوجه الصبيح المتألق بالغبطة والسعادة ليختم بصورته الفاتنة حياته ، اما هى فكانت تعانى آلاما برحاء لا قبل لانسان بها ، وكانت تود لو تنفس عن صدرها المضطرم بالصراخ والعويل والهذيان ، أو تلتمس الشفاء فى الجنون العنيف واصطلاء نيران الجحيم . فكيف تصفو وتهدأ وتطالعه

بالوجه الذى أحبه وسكن أليه دون العالمين .. وكان يتابع النظر اليه برجاء ، فقال بحزن :

ـ ليست هاتان العينان عينيك يا رادوبيس .

فقالت بأسى وحزن :

ـ هما عيناى يا مولاى ، ولكن جف ما يمدهما بالنور والحياة .

ـ آواه يا رادوبيس ، ألا تريدين أن تنسى آلامك هذه الساعة اكراما لى .. أريد أن أرى وجه رادوبيس حبيبتى ، وأن أستمع الى صوتها العذب .

ونفذ رجاؤه الى قلبها ، فكبر عليها أن تحرمه من شىء يريده فى تلك الساعة السوداء ، وقست على نفسها قسوة شديدة ، فبسطت صفحة وجهها واغتصبت من شفتيها المرتعشتين ابتسامة وحنت عليه فى سكون والطمئنان كأنما تحنو عليه ، وهو يرقد رقاد غرام ، فتبدى على وجهه الشاحب الذابل الرضا ، وانفرجت شفتاه الباهتتان عن ابتسامة .

ولو أنها تركت لعواطفها لما وسعتها الدنيا هذيانا وجنونا ، ولكنها نزلت على ارادته العزيزة ، وملأت عينيها من وجهه ، وهى لا تصدق أن هذا الوجه سيغيب عنها بعد لحظات قصيرة الى الأبد ، وانها لن تراه فى هذه الدنيا مهما تألمت أو تأوهت أو سكبت الدمع الحزين ، وأن صورته وحيلته وحبه ستغدو ذكريات ماض غريب ، هيهات أن يصدق قلبها المكلوم أنه كان يوما حاضرها واستقبالها . كل هذا لأن سهما مجنونا استقر فى هذا الموضع من صدره .. كيف يستطيع هذا السهم الحقير أن يقضى على آمال ضاقت عنها الدنيا بأسرها !.. وتنهدت المرأة تنهدا حارا صعد فتات قلبها ، وكان الملك يستفرغ بقية الحياة القلقة فى صدره ، المضطربة فى أنفاسه ، وقد خارت قواه ووهنت أعضاؤه ، وماتت حواسه ، وأظلمت عيناه ، ولم يبق

منه الا صدر يضطرب اضطرابا عنيفا ، ويقتتل به الموت والحياة اقتتال القهر واليأس . وتجلى بغتة على وجهه الألم وفتح فاه كأنما يريد أن يصرخ أو يستغيث ، وأمسك بيدها التى امتدت اليه فى فزع لا يوصف ، وصاح بقوة : « رادوبيس أسندى رأسى .. أسندى رأسى » وأحاطت رأسه بيديها المرتجفتين وهمت أن تجلسه ، ولكنه شهق شـــهقة قوية ، وأسقطت يده الى جانبه ، وانتهت عند ذاك المعركة الناشبة بين الحياة والموت . وأعادت رأسه الى وضعه الأول بسرعة ، وصرخت صرخة فزع شديدة عالية ، ولكنها كانت قصيرة ، ثم انقطع صوتها كأنما مزقت مسالكه ، وتصلب لسانها ، والتحم فكاها بشدة ، وحملقت فى وجه الذى كان انسانا بعينين جامدتين ، ثم لم تبد حراكا .

وأذاعت صرختها الخبر الأليم ، فهرع الرجال الثلاثة الى الحجرة دون أن تحس بهم ووقفوا صفا أمام الهودج ، وألقى طاهو على وجه الملك نظرة ذاهلة ، وعلت وجهه صفرة الموت ولم ينبس بكلمة . وتقدم سوفخاتب من الجثة ، وانحنى فى اجلال عظيم وقد أخفاها عنه دمع غزير جرى على خديه وتساقط على الأرض ، وقال بصوت متهدج مزقت نبراته الباكية الصمت المخيم :

ــ سيدى ومولاى ، وابن سيدى ومولاى ، نستودعك الآلهة العلية التى اقتضت مشيئتها أن يكون اليوم بدء رحلتك الى عالم الأبدية . وددت لو أفتدى شبابك الغض بشيخوختى الفانية ، ولكنها ارادة الرب التى لا ترد ، فالوداع يا مولاى الكريم .

ومد سوفخاتب يده الهزيلة الى الغطاء ، وسجى الجثة فى أناة ، وانحنى مرة أخرى ، وعاد الى مكانه بقدمين ثقيلتين .

وظلت رادوبيس جاثية ، فى غفوة من الذهول لا تفيق ، ولا تتحول عيناها عن الجثة ، وقد سرى فى جسمها جمود غريب

كالموت ، فلم تبد حراكا ، ولا بكت ، ولا صرخت ، وظل الرجال في وقفتهم منكسي الرءوس .. الى أن دخل أحد العبيد الذين حملوا الهودج ، وقال :

ـ وصيفة جلالة الملكة .

والتفت الرجال الى الباب ، فرأوا الوصيفة تدخل يبدو على وجهها أثر الحزن الشديد ، فانحنوا لها تحية ، فردت المرأة التحية بايماءة من رأسها ، وألقت نظرة على الجثة المسجاة ، ثم ردت ناظريها الى سوفخاتب ، فقال الرجل بصوت حزين :

ـ انتهى الأمر أيتها السيدة الجليلة .

فصمتت المرأة برهة كالذاهلة ، ثم قالت :

ـ ينبغي اذا أن تحمل الجثة الكريمة الى القصر الفرعوني . هذه ارادة جلالة الملكة أيها الوزير .

واتجهت الوصيفة نحو الباب ، وأومأت الى العبيد ، فهرعوا اليها مسرعين ، فأمرتهم أن يرفعوا الهودج . وقصد العبيد الى الهودج ومالوا الى قوائمه ليرفعوه ، فانتبهت رادوبيس مذعورة ولم تكن تحس بشيء مما يدور حولها ، وتساءلت بصوت مبحوح غريب :

ـ الى أين .. الى أين ؟.

وارتمت على الهودج ، فتقدم منها سوفخاتب وقال :

ـ ان القصر يريد أن يؤدى واجبه نحو الجثة المقدسة .

فقالت المرأة الذاهلة :

ـ لا تأخذوه مني .. انتظروا .. سأموت على صدره .

وكانت الوصيفة تتعالى بناظريها عن رادوبيس ، فلما سمعت قولها قالت بخشونة : أن صدر الملك لم يخلق لكي يكون لحدا لانسان .

وانحنى سوفخاتب على المرأة ، وقبض على معصمها برقة

ورفعها بهدوء ، وحمل العبيد الهودج ، فنزعت رادوبيس يدها من بين يديه ، وادارت رأسها بعنف فيما حولها فلم يبد على وجهها التائه أنها عرفت أحدا من الحاضرين ، وصاحت بصوت متقطع كالحشرجة :

ـ لماذا تأخذونه .. هذا قصره .. وهذه حجرته .. كيف تسومونني القهر امامه .. انمولاى لا يرضى عمن يسىء الى .. ايها القساة .. ايها القساة .

ولم تبالها الوصيفة ، فشقت طريقها الى الحديقة وتبعها العبيد يحملون الهودج ، وغادر الرجال الحجرة فى خشوع وصمت . وكادت المرأة تجن . وجمدت فى مكانها لحظة قصيرة ، وهمت بالاندفاع وراءهم ، ولكن يدا غليظة أمسكت بذراعها ، فحاولت التخلص منها ، ولكن ضاعت محاولتها هباء .

فالتفتت الى الوراء بعنف وغيظ ، فوجدت نفسها وجها لوجه أمام طاهو ...

نهاية طاهو

وسهمت اليه بنظرة غريبة كأنها لا تعرفه ، وحاولت أن تخلص ذراعها ، ولكنه لم يمكنها من غايتها ، فقالت له بعنف :

ــ دعنى أذهب ...

فهز رأسه يمنة ويسرة ببطء كأنه يقول لها : كلا كلا .. وكان وجهه رهيبا مخيفا ونظرة عينيه جنونية ، وتمتم قائلا :

ــ انهم ذاهبون الى مكان لا يجوز أن تلحقيهم اليه .

ــ دعنى أذهب لقد خطفوا سيدى .

فاربد وجهه ، وقال لها بلهجة عنيفة كأنه يلقى أمرا عسكريا .

ــ لا تقاومى رغبة الملكة الحاكمة .

فسكت عنها الغضب فى خوف وكفت عن المقاومة . واستسلمت استسلاما غريبا ، وقطبت جبينها ، ثم هزت رأسها فى حيرة كأنها تحاول أن تستجمع قوى ادراكها المشتت الذاهل ، وحدجته بنظرة غرابة وانكار ، وقالت :

ــ ألا ترى أنهم قتلوا مولاى .. قتلوا الملك !

وكانت عبارة « قتلوا الملك تقع من أذنيه موقعا غريبا مروعا فسكن هياجه ، وقال :

ــ نعم يا رادوبيس ، قتلوا الملك ، وما كنت أحسب قبل اليوم أن سهما يمكن أن يقضى على حياة فرعون .

فقالت ببساطة البله :

ــ فكيف للعهم يخطفونه منى بعد ذلك ؟!.

فانفجر ضاحكا ضحكة جنونية مخيفة ، وقال :

ـ أتريدين أن تتبعى أثرهم ؟.. يا لك من مجنونة يا رادوبيس . انك تعمين عن العواقب ، فقد أذهلك الحزن . أصحى أيتها الفاتنة ، فالجالسة على عرش مصر الآن امرأة قضيت عليها بالهوان ، وانتزعت زوجها من بين يديها ، وأهويت بها من سامق المجد والسعادة الى زوايا النسيان والشقاء .. انها سرعان ما تبعث اليك من يسوقك اليها مكبلة بالسلاسل ، ثم تدفع بك الى أيدى جلادين لا يعرفون الرحمة يحلقون شعرك الحريرى ، ويسملون عينيك السوداوين ، ويجدعون أنفك الدقيق ، ويصلمون أذنيك الرقيقتين ، ثم يحملونك على ظهر عربة قطعة من البشاعة المشوهة يعرضونك على أنظار الساخطين الشامتين ، ويسير بين يديك مناد يصيح بأعلى صوته أن انظروا الى العاهرة المشئومة التى أتلفت على الملك نفسه ، ثم أتلفته على شعبه ..

وكان طاهو يتكلم بلهجة تنشف عن غل وعيناه تبرقان بنور مخيف ؛ ولكنها لم تتأثر بكلامه كأنما حيل بينه وبين حواسها ، وسهمت الى شىء غير منظور فى هدوء غريب ، ثم هزت منكبيها فى استهانة وبساطة . فاحتدم فى قلبه الغيظ والحنق لبرودها وذهولها ، واندفع الغضب من قلبه الى قبضة يده فشد عليها ، وشعر برغبة فى أن يوجه الى وجهها ضربة هائلة جنونية فيحطمه تحطيما ، ويمتع ناظريه بتشوهه ، وتفجر الدم من مسامه ومنافذه . ولبث دقيقة يتفرس فى وجهها الهادىء الذاهل ، ويحاور رغبته الشيطانية ، ولكنها رفعت عينيها اليه دون أن يلوح فيهما معنى من معانى الحياة ، فاضطرب وتخاذل وبدا عليه رعب من يضبط متلبسا بجريمة ، فتراخت أصابعه ، وتنهد تنهدا عميقا ثقيلا ، ثم قال :

ـ أراك لا تكترثين لشىء .

وكانت لا تلقى الى ما يقول بالا ، ولكن تصادف أن قالت وكأنها تحادث نفسها :

ـ كان ينبغى أن نتبعهم .

فقال طاهو بغضب :

ـ كلا .. كلا .. ما عاد كلانا يصلح للدنيا .. ولن يفتقدنا بعد اليوم أحد .

فقالت ببساطة وهوء :

ـ أخذته منى .. أخذته منى .

فعلم انها تعنى الملكة ، وهز منكبيه قائلا :

ـ لقد استوليت عليه حيا ، واستردته ميتا .

فحدجته بنظرة غريبة ، وقالت له :

ـ يا أحمق يا جاهل ألا تعلم .. لقدقتلته الخائنة لتسترده .

ـ من الخائنة ؟.

ـ الملكة ، هى التى أفشت سرنا وأثارت الشعب ، هى التى قتلت مولاى .

وكان ينصت اليها فى صمت ، وعلى فمه ابتسامة شيطانية ساخرة ، فلما انتهتضحك ضحكته الجنونية المخيفة ، ثم قال :

ـ أخطأت يا رادوبيس ، ليست الملكة خائنة ولا قاتلة !

وحملق فى وجهها ودنا منها خطوة ، وكانت تنظر اليه بدهشة وانكار ، ثم قال بصوت رهيب :

ـ ان كان يهمك أن تعرفى الخائن ، فها هو ذا يقف أمامك .. أنا الخائن يا رادوبيس .. أنا ..

ولم يهمها قوله كما كان يتوقع ، ولا بدت عليها اليقظة ، ولكنها هزت رأسها هزات خفيفة كأنما تريد أنتنفض عن نفسها الخمول والاعياء . فاستولى عليه الغضب ، وأمسك بكتفيها بغلظة . وهزها بعنف شديد ، وصاح بها :

ـ اصحى ، الا تسمعين ما أقول .. أنا الخائن .. طاهو هو الخائن .. أنا علة الكوارث جميعا .

وارتعد جسمها بعنف ، وانتفضت انتفاضا شديدا خلصت به من يديه وتقهقرت خطوات ، وهى تنظر الى وجهه المفزع بخوف وجنون ، فسكت غضبه وهياجه ، وأحس بتخاذل جسمه ورأسه فأظلمت عيناه . وقال بهدوء وبلهجة حزينة :

ـ انى أنطق بكلمات هائلة بكل بساطة ، لأنى أشعر شعورا صادقا أنى لست من أهل الدنيا . لقد انقطع ما بينى وبين العالم جميعا ، ولا شك فيما أحدثه اعترافى لك من الفزع ، ولكنها الحقيقة يا رادوبيس . لقد تحطم قلبى بقسوة شنيعة ، ومزق نفسى الألم البالغ فى تلك الليلة الجنونية التى فقدتك فيها الى الأبد .

وسكت القائد ريثما تهدأ أنفاسه المضطربة ، ثم استطرد قائلا :

ـ وانطويت على الألم ، واستوصيت بالصبر والتجلد ، واعتزمت صادقا أن اؤدى واجبى الى النهاية ، حتى كان ذلك اليوم الذى دعوتنى فيه الى قصرك لتستوثقى من اخلاصى . فى ذلك اليوم جن جنونى ، واشتعلت النار فى دمائى ، فهذيت هذيانا غريبا ، واستاقنى الجنون الى عدو متربص ، فأفضيت له بسرنا ، وهكذا انقلب القائد الأمين خائنا غادرا يطعن من وراء الظهور .

واهاجته الذكرى فتقلص وجهه ألما وخزيا ، ونظر الى وجهها الفزع بقسوة ، فعاوده الغضب والحنق ، وصاح :

ـ أيتها المرأة الهلوك المدمرة ، لقد كان جمالك لعنة على كل من رآه . لقد عذب قلوبا بريئة ، وخرب قصرا عامرا ، وزلزل عرشا مكينا ، وأثار شعبا أمينا ، ولوث قلبا شريفا .. انه لشؤم ولعنة ..

وسكت طاهو ، وما زال الغضب يغلى فى شرايينه ، ورآها كصورة للعذاب والخوف ، فأحس بارتياح ولذة ، وتمتم قائلا :

ــ ذوقى العذاب والهوان ، وانظرى الموت فما ينبغى لأحدنا أن يحيا ، وقد مت أنا منذ زمن بعيد ، ولم يبق لى من طاهو الا ثيابه المزركشة المجيدة . أما طاهو الذى اشترك فى غزو النوبة ، وأبلى بلاء حسنا استحق له ثناء بيبى الثانى ، طاهو قائد حرس مرنرع الثانى ، وصفيه ، ومشيره ، فلا وجود له ..

والقى الرجل نظرة سريعة على ما حوله ، وبدا على وجهه الضيق والجزع الشديد ، ولم يعد يحتمل السكون المطبق ، ولا رؤية رادوبيس التى استحالت تمثالا جامدا .. فنفخ فى الهواء بقوة وسخط واشمئزاز ، وقال :

ــ ينبغى أن ينتهى كل شىء ، ولكننى لن أحرم نفسى من العقاب الصارم . سأذهب الى القصر ، وأدعو كل من يحسن بى الظن ، ثم أعلن جريمتى للملأ ، وأمزق الستار عن الخائن الذى طعن مولاه وهو يساره ، وانزع النياشين التى تحلى صدرى الآثم ، وأرمى بسيفى ، ثم الطعن قلبى بهذا الخنجر .. فالوداع يا رادوبيس ، والوداع أيتها الحياة التى تستأدينا فوق ما تستحق ..

نطق طاهو بهذه الكلمات ، ثم ذهب ..

النهـــاية

ولم يكد طاهو يغادر القصر حتى رسا القارب الذى يحمل بنامون بن يسار الى سلم الحديقة . وكان الشاب منهوك القوى شاحب اللون معفر الثيـاب ، قد هـدم أعصابه ما رأى من اضطراب المدينة وهياج الناس وثورة النفوس . وكان بلغ مسكنه بشق الأنفس ولاقى فى طريق العودة ما هون عليه ما صادفه فى الذهاب ، وتنفس الصعداء حين وجـد نفسه يسير فى ممرات حديقة قصر بيجة الأبيض ، والحجرة الصيفية تعترض سبيله عن بعد قريب ، وانتهى به المسير الى الحجرة ، فاجتاز عتبتها ، وهو يظن أنها خاليـة ، ولكنه ما لبث أن أدرك خطأه . ورأى رادوبيس جالسة فى استرخاء على ديوان تحت صورة وجهها الرائعة ، وشيث متربعة عند قدميها يشملهما سكون غريب ، فتردد هنيهة ، وأحست شيث بمقدمه ، والتفتت اليه رادوبيس ، ثم قامت الجارية وانحنت له تحية وغادرت الحجرة ، وتقدم الشاب من المرأة ، وقد لفه الفرح ، فلما أن تبين وجهها عن كثب ركدت حركة نفسه ، وأصابه الوجوم والغم ، ولم يشك فى أن أخبار الخارج المحزنة قد بلغت آذان معبودته ، وأن أنباء الآلام التى تطحن الناس انعكست على وجهها الجميل ، فألبسته هذا الرداء الغليظ المغبر من الكدر . وركع بين يديها ، ثم مال على حاشية ثوبها فقبلها بحنان ، ونظر اليها بعينيه الصافيتين نظرة اشفاق كأنه يقول لها : « فداؤك نفسى » ، ولم يغب عنه ما بدا على وجهها لدى رؤيته من الارتياح ، فخفق قلبه خفقة السعادة ، وتخضب وجهه بالاحمرار ، وقالت له رادوبيس بصوت ضعيف :

ـ غبت طويلا يا بنامون .

فقال الشاب :

ـ لقد شققت طريقى وسط بحر متلاطم من الخلق الغاضبين : ان آبو اليوم تغلى وتفور وتنثر الشظايا المحرقة ، فتملأ الجو حمما ...

ثم دس الشاب يده فى جيبه وأبرز لها قارورة صغيرة ، فتناولتها بيدها وعقدت عليها كفها ، وأحست ببرودتها تسرى فى جسمها وتستقر فى قلبها . وسمعته يقول لها :

ـ أرى أنك تحملين نفسك فوق ما تحتمل .

فقالت له :

ـ ان الأحزان تنتقل بالعدوى .

ـ ولكن رفقا بنفسك ، فما ينبغى لك أن تستسلمى كل الاستسلام الى الحزن .. ليتك يا مولاتى تهاجرين الى أمبوس ردحا من الزمن ريثما يعود الهدوء الى هذه البقاع .

وكانت تسمع اليه فى اهتمام خادع ، وتنظر اليه بغرابة ، نظرتها الى آخر حى من أهل هذه الدنيا تقع عليه عيناها لآخر مرة ، وكانت فكرة الموت قد استولت عليها استيلاء جعلها تشعر كأنها غريبة عن هذه الدنيا . واختنقت عواطفها اختناقا لم تحس معه بأى رحمة نحو الشاب الراكع أمامها ، الهائم فى عالم الآمال بعينين مغمضتين عن المصير الذى ينتظره عن كثب .. وظن بنامون أنها تدير فكرته فى نفسها فاعب بقلبه الأمل واستفزه الطمع ، فقال بحماس :

ـ أمبوس يا مولاتى بلد السكينة والجمال ، لا ترى العين فيها الا سماء صافية ، وطيرا لاهيا ، وبطا سابحا ، وأخضر ناضرا .. وسيمحو جوها المشرق السعيد الآلام التى أثارتها فى نفسك الرقيقة آبو الحزينة الغاضبة .

وسرعان ما سئمت حديثه ، واتجهت أفكارها الى القارورة العجيبة ، وأحست بشوق الى النهاية . فبحثت عيناها الموضع الذى شغله الهودج منذ حين ، وصرخ قلبها أن ها هنا ينبغى أن تختم حياتها ، واعتزمت أن تتخلص من بنامون ، فقالت له :

ــ ان ما تعرضه على جميل يا بنامون ، فدعنى أفكر وحدى رويدا . .

فأضاء وجه الشاب بالفرح والأمل ، وسألها :

ــ هل يطول انتظارى ؟

فقالت :

ــ لن يطول انتظارك يا بنامون .

فلثم الشاب يدها ، وقام واقفا ، وغادر الحجرة ، ودخلت شيث على الأثر ، وكانت رادوبيس تهم بترك مجاسها ، فلما رأت الجارية ابتدرتها قائلة لتتخلص منها :

ــ الى بابريق من الجعة .

فذهبت الجارية الى القصر ، وكان بنامون قد اتجه الى البركة واطمأن الى مقعد على حافتها ، وكان فى تلك الساعة يشعر بالسعادة والغبطة ، ويدنى اليه الأمل غايته فى أن يذهب بمعبودته الى أمبوس بعيدا عن الشقاء المخيم على آبو فتخلص له ، ويسكن اليها ، ودعا الآلهة أن تهبط اليها فى وحدتها وتلهمها الرأى السديد والحل السعيد . .

ولم يطق الجلوس طويلا ، فقام يسير الهوينى حول البركة ، ولما أتم دورته رأى شيث تحمل ابريقا ، وتتجه بسرعة الى الحجرة ، فتبعها بعينيه حتى غيبها الباب . وأراد أن يعاود الجلوس مرة أخرى ، ولكنه لم يكد يفعل حتى سمع صرخة مدوية آتية من داخل الحجرة فانتفض واقفا ، وقد انخلع قلبه فى صدره ، واندفع جريا الى مصدرها ، فرأى فى وسط الحجرة

رادوبيس ملقاة على الأرض ، والجارية تجثو على ركبتيها الى جانبها وتنكب عليها تناديها ، وتجس خديها وكفيها .. فهرع اليها بساقين مرتجفتين ، وقد اتسعت عيناه ولاح فيهما الهلع والفزع ، وجثا الى جانب شيث وأمسك بكف رادوبيس بين كفيه ، فشعر ببرودتها ، وكانت كالنائمة ، الا أن وجهها شاحب تمازجه زرقة خفيفة ، وقد انفرجت شفتاها الباهتتان وبعثرت خصلات شعرها الأسود على صدرها ومنكبيها ، وانسابت ضفائر منه على البساط ، فأحس بجفاف حلقه واختناق أنفاسه ، وسأل الجارية بصوت مبحوح :

ـ ماذا بها يا شيث .. لماذا لا تجيب ؟

فأجابت المرأة بصوت كالعويل :

ـ لا أدرى يا سيدى ، فلقد وجدتها عند دخولى الحجرة كما تراها الآن ، فناديتها فلم تجب ، وأسرعت اليها أهزها فلم تنتبه ، ولم تبد عليها اليقظة ، أواه يا مولاتى .. مالك ما الذى اعتورك فحولك الى ما أرى ؟.

ولم ينبس بنامون بكلمة ، وجعل يطيل النظر الى المرأة الملقاة فى سكون رهيب ، وان عينيه لتدوران فيما حولها اذ عثرتا تحت مرفقها الأيمن بالقارورة الجهنمية منزوعة السدادة ، فشهق شهقة عنيفة ، والتقطها بأصابعه المرتعدة ، فلم يجد بها الا آثارا لاصقة بباطنها ، وردد بصره بين القاروة ووجه المرأة فتبين له الحق ، وسرت فى جسمه النحيل رجفة مزقت جوارحه ، فأن أنينا موجعا لفت اليه الجارية ، وقال بصوت فزع :

ـ يا للهول .. يا للرعب !

فصوبت اليه الجارية عينيها ، وسألته بلهفة وذعر :

ـ ماذا يهولك ويرعبك ؟.. تكلم فاني أكاد أجن من الحيرة !!

ولكنه لم يأبه لها ، وقال يحادث رادوبيس ، وكأنها تسمعه وتبصره :

ـ لماذا انتحرت .. لماذا انتحرت يا مولاتي ؟

فصرخت شيث ودقت صدرها بيديها ، وقالت :

ـ ماذا تقول ؟ كيف علمت أنها انتحرت يا هذا ؟

فرمى القارورة بعنف ، فاصطدمت بالحائط وتحطمت ، ثم قال بذهول وحيرة :

ـ لماذا أزهقت نفسك بهذا السم ؟.. ألم تعديني بأن تفكري جديا في اصطحابي الى أمبوس بعيدا عن أحزان الجنوب ... أكنت تخدعينني ريثما تزهقين روحك ؟

فنظرت الجارية الى حطام القارورة ، وقالت بدهشة :

ـ من أين لمولاتي بالسم ؟.

فهز منكبيه يأسا ، وقال :

ـ أتيت لها به بنفسي .

فتولاها الغيظ ، وصاحت به :

ـ كيف تأتي به يا شقي ؟ !

ـ لم أكن أدري أنها تريده لتزهق به نفسها ، لقد خدعتني كما فعلت بي الآن .

فتحولت عنه يائسة ، وأفحمت في البكاء ، وانكبت على قدمي مولاتها تقبلهما وتغسلهما بدموعها ، وغشي الشاب ذهول ، فتفجرت عيناه ، وثبتت على وجه رادوبيس الساكن سكون الأبدية ، وكان يعجب في ذهوله كيف يلحق العدم بمثل هذا الجمال الذي لم تشرق الشمس على مثله من قبل ، وكيف تسكن الحيوية الفائضة الملتهبة ، وتكتسي بهذا الاهاب الشاحب الذابل الذي تهم به عوامل الخراب ؟ تمنى لو أن يراها لحظة خاطفة وقد ردت اليها نسمة الحياة ، فأبدت عن تثنيها الرقيق ، وأشرقت

بوجهها ذى البهاء ابتسامة السعادة ، وانبعثت من عينيها نظرة الحب والفتون ، ثم يموت فتكون آخر عهده بالدنيا ..

وأزعجه نحيب شيث أيما ازعاج ، فانتهرها قائلا :

ـ أمسكى عن هذا ؟

وأشار الى قلبه ، ثم استدرك :

ـ هنا حزن جليل ، أجل من البكاء والنحيب .

وبقى فى نفس الجارية أمل ضعيف يخفق ، فنظرت الى الشاب خلل دموعها ، وقالت بتوسل :

ـ ألا يوجد رجاء يا سيدى ؟. عسى أن يكون ما بها غيبوبة شديدة ؟

ولكنه قال بصوته الحزين :

ـ ما من رجاء ولا أمل ، ماتت رادوبيس ، ومات الحب ، وتبددت الأوهام ... كم عبثت بى الأحلام والأوهام ...

اما الآن فقد انتهى كل شيء ، وأيقظنى من غفوتى الموت الرهيب ..

وانقصف آخر شعاع للشمس ، وانغمس وجهها القانى فى عين حمئة ، فزحفت الظلمة تغشى الكون فى ثوب حداد . ولم تنس شيث فى حزنها واجبها نحو جثة مولاتها ، وادركت أنها لن تستطيع أن توفيها حقها من الاجلال والصون فى بيجة المحاطة بأعدائها والمتربصين للانتقام منها وأفضت بمخاوفها الى الشاب الحزين الذى تحترق نفسه على كثب منها ، وطلبت اليه أن يحملا الجثة الى بلدة أمبوس ، وهنالك يدفعان بها الى أيدى المحنطين ، ويودعانها مقبرة أسرة يسار ، ووافق بنامون على رأيها بقلبه ولسانه ، فنادت شيث بعض الجوارى ، وأتين بهودج ، ووضعن الجثة عليه وسجينها ... ورفع العبيد الهودج الى السفينة الخضراء التى انحدرت به نحو الشمال .

وجلس الشاب عند راس الجثة على مقربة من شيث ، وقد شمل المقصورة سكون عميق .. فى تلك الليلة الحزينة ، والسفينة تنساب مع المياه المصطخبة صوب الشمال ، تاه بنامون فى وديان قصية من الأحلام ، ومرت حياته أمام ناظريه فى صور متعاقبة ، عرضت آماله وأحلامه وما كابد من ألم ورجاء ، وما ظن يوما أنه نصيبه من السعادة والهناء والعيش النضير . ثم تنهد من أعماق قلبه المكلوم ، وثبت عينيه على الجثة المسجاة التى ارتطمت عليها آماله وأحلامه ، فتحطمت وتناثرت ، كأوهام بددتها اليقظة ...

مؤلفات الأستاذ نجيب محفوظ

		الطبعة الأولى		
مصر القديمة	(مترجم عن الانجليزية)	١٩٣٢		
همس الجنون	مجموعة أقاصيص	١٩٣٨	الطبعة الخامسة	١٩٦٦
عبث الأقدار	قصة تاريخية	١٩٣٩	» »	١٩٦٦
رادوبيس	» »	١٩٤٣	» »	١٩٦٤
كفاح طيبة	» »	١٩٤٤	» »	١٩٦٤
القاهرة الجديدة		١٩٤٥	» السادسة	١٩٦٦
خان الخليلي		١٩٤٦	» »	١٩٦٥
زقاق المدق		١٩٤٧	» »	١٩٦٥
السراب		١٩٤٨	» الخامسة	١٩٦٦
بداية ونهاية		١٩٤٩	» السادسة	١٩٦٥
بين القصرين		١٩٥٦	» الخامسة	١٩٦٤
قصر الشوق		١٩٥٧	» السادسة	١٩٦٦
السكرية		١٩٥٧	» السادسة	١٩٦٧
اللص والكلاب		١٩٦١	» الرابعة	١٩٦٦
السمان والخريف		١٩٦٢	» الثالثة	١٩٦٥
دنيا الله	قصص قصيرة	١٩٦٣	» الثانية	١٩٦٦
الطريق	رواية	١٩٦٤	» »	١٩٦٥
بيت سيىء السمعة	قصص قصيرة	١٩٦٥	» »	١٩٦٦
الشحاذ	رواية	١٩٦٥	» »	١٩٦٦
ثرثرة فوق النيل	»	١٩٦٦		
ميرامار	»	١٩٦٧		

دار مصر للطباعة

٣٧ شارع كامل صدقي

دار مصر للطباعة

الثمن ٢٠ ق